رسائل الشريف المرتضى

المجموعة الرابعة

اعداد
السيد احمد الحسيني

دار القرآن الكريم

منشورات
دار القرآن الكريم
قم - ايران

Sharif al-Murtaḍá ...

رسائل
الشريف المرتضى

المجموعة الرابعة

اعداد

السيد احمد الحسيني

دار القرآن الكريم
للعناية بطبعه ونشر علومه
ايران - قم المقدسة صندوق البريد ١٥١

* الكتاب : رسائل الشريف المرتضى ـ ٤
* التأليف : الشريف المرتضى
* اعداد : السيد احمد الحسيني
* الناشر : دار القرآن الكريم ـ قم
* المطبعة : مطبعة الخيام ـ قم
* التاريخ : جمادى الثانية ١٤١٠ ـ هـ
* العدد : (٢٠٠٠) نسخة
* الطبعة : الاولى

ايران : قم ـ شارع ارم ـ دار القرآن الكريم ـ صندوق البريد ١٥١
رقم الهاتف : ٣٣٠٧٨ كد ٠٢٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلوٰةُ والسلامُ على أشرفِ الأنبياءِ والمرسلينِ محمّدٍ المصطفىٰ وعترتِهِ الطاهرينْ

في هذه المجموعة

جوابات المسائل المصريات	١٤
جوابات المسائل الواسطيات	٣٧
المسائل الرملية	٤٥
شرح القصيدة المذهبة	٥١
الشهاب فى الشيب والشباب	١٤١
مسألة فى معجزات الانبياء عليهم السلام	٢٧٧
مسألة فى نكاح المتعة	٣٠٠
نقد النيسابورى فى تقسيمه للاعراض	٣٠٧
مسائل شتى	٣١٧

تقديم

صدر باشرافي في سنة ١٤٠٥ ثلاثة مجاميع من رسائل الشريف المرتضى علم الهدى علي بن الحسين بن موسى الموسوي البغدادي المتوفى سنة ٤٣٦، تلقاها العلماء والمعنيون بتراث المرتضى بعين الرضا وأقبلوا عليها اقبالا كان مشجعاً لنا للسعي في جمع بقيتها وطبعها كأخواتها في مجاميع أخرى .

وتكرر الطلب منهم عامة ومن سماحة سيدنا المرجع الدينى الكبير آية الله العظمى السيد محمد رضا الكلبايكاني ـ مد الله تعالى ظله الوارف على رؤوس المسلمين ـ خاصة، فكانوا يلحون علي في كل فرصة كنت ألتقي بهم في اصدار ما بقي منها . وبالرغم من شعوري بضرورة اكمال العمل ونشر بقية الرسائل بين الملأ العلمي، كانت العوائق المتوالية والأعمال المتراكمة تمنعني من انجاز هذه الأمنية العلمية وترجئها الى فرص آتية .

وقبل شهور عثرت على مصورة لمجموعة مخطوطة كانت في مكتبة صديقنا العلامة السيد محمد الموسوي الجزائري ـ حفظه الله وأبقاه ـ ضمت عدداً من رسائل المرتضى مطبوعة ومخطوطة وبعض رسائل لعلماء آخرين . وعند الاطلاع

علىهذه المصورة رأيت التأخير فياصدار المجموعة الرابعة غيروجيه والمبادرة الى اخراجها فرض علمي لايمكن التخليعنه ، فعزمت ـ بحول الله تعالى ـ على نسخ ما لم يطبع منها واعدادها للنشر .

وتم العمل بالشكل الذي يراه القارىء الكريم بين يديه .

* * *

في هذه المجموعة الرابعة نجد الموضوعات التالية :

١ ـ جوابات المسائل المصريات . وهي المسائل الواردة من النيل ، وجد منها من المسألة السادسة الى السابعة والعشرين .

٢ ـ جوابات المسائل الواسطيات . وجد منها المسألة الخامسة الى المسألة الثانية عشر .

٣ ـ المسائل الرملية . وهي مسائل مبعثرة وجد منها مسألتان فقط .

٤ ـ شرح القصيدة المذهبة . وهي القصيدة البائية المعروفة في مدح الامام امير المؤمنين عليه السلام انشأها اسماعيل بن محمد الحميري الملقب بالسيد . وكان الشرح قد طبع في بيروت سنة ١٩٧٠ بتحقيق محمد الخطيب .

٥ ـ الشهاب في الشيب والشباب . وهو كتيب جمع شعر ابيتمام والبحتري والشريف الرضي والشريف المرتضى في الشيب والشباب وشرح ما يحتاج منه الى شرح . طبع بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ .

٦ ـ مسألة في معجزات الأنبياء عليهم السلام . ونظن أنها مستلة من بعض كتب المرتضى الكلامية .

٧ ـ مسألة في نكاح المتعة . وهو جواب ممتاز مختصر على من منع المتعة من طريق القياس .

٨ ـ نقد النيسابوري في تقسيمه للأعراض . تتميم للتقسيمات التي عملها أبو رشيد سعيد بن محمد النيسابوري المعتزلي للأعراض ، وكان قد أخل ببعض ما ينبغي أن يذكره في تقسيماته .

٩ ـ مسائل شتى . وهي مسائل مختلفة كلامية وفقهية وغيرها بعضها مؤرخ وبعضها غير مؤرخ ، كتبت جواباً على أسئلة كانت ترد على الشريف المرتضى من مختلف البلدان الاسلامية .

* * *

أما مجموعة السيد الجزائري المشار اليها، فهي مكتوبة على الأكثر في القرن الحادي عشر الهجري، وكان يشيع فيها التحريفات والأخطاء ، شأن المخطوطات التي ينسخها أناس لا يمتون الى العلم بصلة ولا يعرفون ماذا يكتبون من الألفاظ والجمل .

وقد تداركنا الأخطاء بالقدر الممكن مع الاشارة الى الأصل في الهوامش، وبقيت ألفاظ لم نهتد الى صوابها يجدها القارىء مشاراً اليها بلفظة « كذا » .أما الأخطاء في التذكير والتأنيث وجعل التاء ياءاً وبالعكس ، فلا تخلو صفحة من صحائف المجموعة من عدد غير قليل منها، رأينا تلافيها من دون الاشارة اليها لئلا نثقل على القارىء وتتلف وقته فيما لا يعنيه ولم نجد فيها فائدة كبيرة .

هذا ، ونحن نعتقد أن عملنا الذي قمنا به تجاه آثار المرتضى انما هو خطوة تعبد للمحققين طريقهم وتيسر تحقيق تلك الآثار اذا شاؤا العمل فيها ، وهو ليس الا نسخ فني يوفر لهم الوقت والجهد .

ويجب أن نشكر في هذه الفرصة القصيرة سماحة السيد الكلبايكاني الذي أولى هذه المجاميع عنايته الخاصة وكرر علي الأمر ـ كما قلت ـ في التسرع الى

اخراجها ، ولولا عنايته الخاصة واهتمامه الأكيد لكان هـذا الأثر العلمي مطموراً في زوايا الخمول والنسيان يعلوه التراب ،كآلاف من تراثنا الذي لانعرف عنه الا الأقل من القليل .

والله تعالى هو المسؤول أن يهدينا الى طريق الحق والصراط المستقيم ويرشدنا الى ما فيه الخير والصواب ، فانه خير مسؤول وهاد .

قم : ربيع المولود ١٤١٠ هـ — السيد احمد الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم

ما وجد من المسائل الواردة من النبل وجوابها سوى ماشذ منها :

المسألة السادسة

[الحوادث لايمكن حدوثها الابمحدث]

قوله [زيد] بهاؤه :

ان حشرات الأرض والبراغيث حوادث لامحدث لها ، من أي طريقة قال[1] والى أي شيء ذهب وما يقبل منهما ، والعمل[2] والصبيان أيضاً بغير ذنب له عوض أم لا ، وان كان ليس له عوض فما بال غيره ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

انه رأى استحالة حدوثها هنا لتعذر فعل الأجسام وعلمه[3] الحياة علينا وخفي عليه

١) في الاصل « قالوا » وصححناه بقرينة ما سيأتي .

٢) كذا في الاصل .

٣) كذا في الاصل .

وجه الحكمة والمصلحة في وقوعها من القديم تعالى فقال : لايصح وقوعها منه ، فلما رأى تعذر وقوعها من الفاعل المحدث وقد ثبت حدوثها قال : انها حوادث لامحدث لها . ولو علم وجه الحكمة لأضافها الى القديم تعالى .

فأما العوض فهو ثابت فيما يدخل عليها من الالام كما يستحقه غيرها من المؤلمات ، والدليل على ثبوت العوض في الموضعين واحد .

المسألة السابعة

(فى الرعد والبرق والغيم)

ما هو قوله تعالى « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » [١] وهل هنا برد أم لا ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان الغيم جسم كثيف ، وهو مشاهد لايمكن الشك فيه .

وأما الرعد والبرق فقد روي أنهما ملكان[٢].

والذي نقوله هو : ان الرعد صوت من اصطكاك أجرام السحاب ، والبرق يعد [٣] أيضاً من تصادمهما [٤] .

وقوله « من جبال فيها من برد » لاشبهة فيه أنه كلام الله تعالى ، وأنه لايمتنع أن يكون جبال البرد مخلوقة حال ماينزل البرد .

---

١) سورة النور : ٤٣ .

٢) أنظر : بحار الانوار ٣٧٨/٥٩ .

٣) كذا فى النسخة ، ولعل الصحيح : يحدث .

٤) فى الاصل « من تصادقهما » .

المسألة الثامنة

[الدليل على حياة الفاعل]

اذا كان الفاعل لايكون الا حياً فما ينكر ألا يكون الا جسماً .

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان الفاعل لا يكون الا قادراً ، وكون الحي حياً يصح أن يكون قادراً ، فمن هذا الوجه [يصح] [1] ان يكون الفاعل حياً . وليس كونه جسماً مصححاً لكونه فاعلا ولا قادراً ، فلايجب ذلك فيه .

والفاعل منا انما احتاج الى كونه جسماً لأنه قادر بقدرة وحي بحياة ، وللقدرة والحياة تأثير في محلهما ، فيصير محلهما آلة في فعله . فمن هو قادر لا بقدرة وحي لا بحياة ولا يحتاج الى ذلك معارف [2] كونه جسماً لكونه حياً .

المسألة التاسعة

[تعقل من لا مثل له ولاضد]

فان قيل : كيف يعقل من لامثل له ولاضد .

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان اثبات المثل والضد والخلاف تابع للدليل ، وان كان اثبات مخالف

---

١) زيادة منا لاستقامة الكلام .

٢) كذا في النسخة .

للذات لابد منه ، لان تميزها من غيرها نفسها [. . .] [١] ، الا أنه يكفي أن يعلم أن لها مخالفاً[٢] على جهة الجملة ، فأما اثبات ضد ومثل فمنه بدأ ويجوز أن يكون ويجوز أن لا يكون بحسب الدليل .

والقدر التى يتقدر بها لامثل لواحدها ، لأنه لايصح أن تتعلق قدرتان بمقدور واحد .

واذا كان الدليل قد دل على أن القديم تعالى لا مثل له ولاضد له ـ بمابيناه في موضعه ـ وجب أن نقول به وعجب [٣] فيما دل الدليل عليه .

المسألة العاشرة

[تعقل فاعل من دون لمس]

فان قيل : كيف يعقل فاعل[٤] من غير ملامسة ولا اتصال .

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان الفاعل انما يحتاج فيماكونه فاعلا الى ما يصح الفعل من كونه قادراً وما يجري مجراه ، وليس الملامسة والاتصال من ذلك في شيء . وقد بينا أنه انما يحتاج الى الجسمية فينا [٥] لأجل القدرة والحياة فصارمحلهما آلة فياستعمالهما ، فاحتيج الى الاتصال في الملامسة لأجل استعمال القدرة والحياة ، فمن هو حي لا بحياة لايحتاج الى ذلك .

١) بياض فى الاصل .
٢) فى الاصل « مخالف » .
٣) كذا فى النسخة .
٤) فى الاصل « فاعلا » .
٥) كذا فى النسخة .

المسألة الحادية عشر

[القدرة على خلق الاجسام]

فان قيل : فمن أين هذا أن تكون الأجسام خلق غيره ، فمن أقدره عليها من جسم آخر .

(الجواب) وبالله التوفيق :

انه اذا ثبت أن القدر لايصلح لها فعل الاجسام وكان وقوع الأجسام بها محالاً لم يصح ماذكر في السؤال ، وقد ذكرت في الذخيرة والشبوخ [١] وغيرهما من كتب الشيوخ .

وبهذا توصلنا الى ابطال قول المفوضة الذين قالوا : ان الله تعالى فوض الى محمد [٢] وعلي عليهما السلام الخلق والرزق وغير ذلك .

المسألة الثانية عشر

[القدرة على الاختراع من غير مباشرة]

فان قيل : ماتنكرون أن يعطيه قدرة على الاختراع من غير مباشرة ولاتولية [٣].

(الجواب) وبالله التوفيق :

انه اذا كان مستحيلا بالقدرة فعل الجسم ، لأن القدرة لايصح الفعل بها الا باستعمال محلها في الفعل ان كان مباشراً أو في سبب الفعل الى اثنين من حيث كان

---

١) كذا في النسخة .

٢) في الاصل «آل محمد» .

٣) في الاصل «ولا متولدة» .

في العالم خير وشر ، ولا يجوز أن يكون الخير والشر من فاعل واحد [١].

المسألة الثالثة عشر

[وقوع الخير والشر من فاعل واحد]

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان الخير والشر لا يستحيل وقوعهما من فاعل واحد ، ولهذا يفعل الواحد منا [٢] الخير والشر .

واذا كان كذلك فما الملزم [٣] لنا أن يكونا فاعلين ، وانما كان يجب ذلك لو كان الخير يقع من فاعل واحد مستحيل أن يقع الشر منه، والشر يقع عن فاعل يستحيل أن يقع عنه [. . .] [٤]، فلا وجه لاثبات الاثنين .

المسألة الرابعة عشر

[تعقل الشيء من دون أن يكون جسماً]

[. . .] هو لا ظلمة ولا ضياء ولا زمان ولا مكان ولاشيء [. . .] [٥].

(الجواب) وبالله التوفيق :

١) اختلط هنا بقية جواب المسألة الثانية عشر وصدر السؤال من المسألة الثالثة عشر، كما يظهر عند امعان النظر في العبارة .

٢) في الاصل « منها » .

٣) في الاصل « فما الملزوم » .

٤) بياض في النسخة .

٥) بياض في النسخة .

اذا كانت الظلمة اسماً لجسم [فيه سواد والضياء اسماً لما] [١] فيه بياض والزمان اسماً لحركات الفلك والمكان اسماً لما اعتمد عليه جسم آخر، وكان جميع ذلك معلقاً بالأجسام والأعراض التى قد ثبت أنها محدثة ، فالمحدث لابد أن يكون وجوده لم يكن ولا يتصور ، وقد عقل يعني الظلمة والضوء والزمان والمكان ، لأنه تعلق بوجود الأجسام والاعراض ، وقبل وجودها لا يجب أن يكون شيئاً .

المسألة الخامسة عشر

[حدوث شيء ولا من شيء]

فان قيل : كيف يعقل حدوث شيء ولا من شيء .

(الجواب) وبالله التوفيق:

ان اراد كيف يعقل حدوث شيء ولا من شيء موجود ، فانه يعقل ذلك ، لأن الشيء اذاكان موجوداً أومحدثاً فقد صح وجوده واحداثه واستغنى بوجوده عن وجودثان . وان أراد من شيء معدوم فما حدثت الاشياء الا من أشياء معدومة، لأن الأجسام والاعراض كانت معدومة قبل وجودها ثم وجدت، وقد عقل حدوث شيء لا من شيء موجود.

المسألة السادسة عشر

[الاضافة الى الطبع مضاف الى العرض]

فان قيل: لم لايكون قديم العالم [. . .] [٢] .

---

١) الزيادة منا لاستقامة الكلام .

٢) بياض فى النسخة .

(الجواب) وبالله التوفيق :

[...] [١] أولا معقولـة حتى يقال أرجبته الطبائع [...] [١] الطبائـع الا بأنهالاتعقل ، لأن كل ماتضيفونه الى الطبع مضاف عندنا الى عرض من الأعراض أو الى غيره مما دل الدليل عليه ، فمن ادعى أنه يرجع الى طبع فعليه الدلالة .

واذا ثبت أن الطباع معقولة صح اثبات اضافة مايريد اضافته اليه ، واذا لـم تكن معقولة فقد بطل ما قاله من أصله واستغنينا عن الكلام معه .

المسألة السابعة عشر

[استغناء الطبائع أوعدمه]

فان قيل : فما تنكر أن تكون الطبائع حية قادرة عالمة قـديمة مستغنية عـن محل أو غيره .

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان هذه المسألة تجري مجرى التى قبلها ، وانما يصح الكلام فيأن الطبائع حية وقادرة أو عالمة أو قـديمة أو غير ذلك اذا ثبتت الطبائع ، فأما اذا لم تثبت فلامعنى للكلام في صفاتها ، لأن الصفات فرع ، فاذا بطل الأصل بطل الفرع .

---

١) بياضات في النسخة .

المسألة الثامنة عشر

[تمثل جبرئيل في صورة دحية الكلبي]

نزول جبرئيل عليه السلام بالوحي في صورة الكلبي[١] كيف كان يتصور بغير صورته ، ثم هو القادر عليها أو القديم تعالى يشكل وليست صورة جبرئيل ، فان كان الذي من القرآن من صورة غيرجبرئيل ففيه مافيه ، وان كان من جبرئيل فكيف يتصور بصورة البشر . وهذه القدرة قد رويت أن ابليس يتصور وكذلك الجن .

أريد توضيح أمر الفلك وما كان يسمعها جبرئيل من الوحي أمن الباري تعالى أم من [وراء] [٢] حجاب ، وكيف كان يبلغه وهو جبرئيل يعلم من صفات الباري اكثر مما نعلمه أومثله ، وأين محله من السماء ، وهل القديم اذا خطر ببال جبرئيل يكون متحيراً فيه مثلنا ويكون سبحانه لا تدركه الأوهام ، أو منزه علينا وجميع الملائكة أيضاً .

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان نزول جبرئيل عليه السلام بصورة دحية كان لمسألة من النبي صلى الله عليه وآله لله تعالى في ذلك ، فأما تصوره فليس بقدرته بل الله تعالى يصوره كذلك حقيقة لاشكلا [٣].

---

١) لقد تمثل جبرئيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة دحية بن خليفة الكلبي في مواقع عديدة . أنظر : سفينة البحار ١/٤٤١ ، الاصابة ٢/١٦١ ، اسد الغابة ٢/١٣٠ .

٢) في الاصل : ان الباري تعالى أمن حجاب .

٣) في الاصل « لاشكيك » .

والذي كان يسمعه [١] النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن من جبرئيل في الحقيقة كان ، فأما ابليس والجن فليس يقدران[٢] على التصور.

وكل قادر بقدرة فحكمهم[٣] سواء في أنهم لايصح أن يصوروا [٤] نفوسهم ، بل اقتضت المصلحة أن يتصور بعضهم بصورة يصوره الله تعالى للمصلحة .

فأما جبرئيل عليه السلام وسماعه الوحي فيجوز أن يتكلم الله تعالى بكلام يسمعه فيعلمه ، ويجوز أن يقرأه من اللوح المحفوظ .

فأما ما يعلم جبرئيل من صفات الله تعالى ، وطريقه الدليل ، وهو والعلماء فيه واحد .

فأما محله من السماء ، فقد روي أنه في السماء السابعة[٥].

فأما ما يخطر بباله ، فلايجوز أن يتجوز فيه ، لان جبرئيل عليه السلام معصوم لايصح [٦] أن يفعل قبيحاً .

المسألة التاسعة عشر

[معنى الصفة فى القديم تعالى]

قول أبي علي الجبائي أن القديم تعالى بكونه سميعاً بصيراً صفة زائدة ، أريد

---

١) في الاصل « يسميه » .
٢) في الاصل « يقدر » .
٣) في الاصل : فحمك هم .
٤) في الاصل : أن يصور .
٥) انظرحول جبرئيل: بحار الانوار ٥٩/٢٤٨ – ٢٦٥. ولم نجد الحديث المزمع اليه فى الكتاب .
٦) في الاصل « لا يفتح » .

أن توضح الصفة هل تجعلونها مثل القدرة والعلم أو غير ذلك ؟

(الجواب) :

ان الصفة في الأصل هي قول الواصف ، فأما الصفة التى [يوصف] تعالى بكونه [قادراً] [1] وعالماً وغير ذلك ، فالمراد بها فاعلة الذات من الحال التى يختص بها ، سواء كانت للنفس أو للمعنى أو لفاعل .

فأما القدرة والعلم فليست عندنا صفة، انما يسميها الصفاتية أصحاب الأشعري وأما نحن فنسمي الصفة والحال ما أوجبته القدرة والعلم من كونه قادراً أوعالماً أو [ما] يجري[2] مجرى ذلك .

المسالة العشرون

[كلام الله تعالى كيف يكون]

كلام الله تعالى هل يكلم بـه أو أحدثه مثل غيره من المحدثات ، وكلامه لموسى عليه السلام من الشجرة كيف كان وقد كان تعالى وما كان أن يكلمه الله الا وحياً .

(الجواب) وبالله التوفيق :

انه اذا أحدثه فقدتكلم به ، لان المتكلم هو فاعل الكلام، فاذا فعل الكلامفقد تكلم به وقد أحدثه ، والمعنى فيهما واحد .

وأما كلام موسى عليه السلام من الشجرة ، فالله تعالى كلمه ، ولذلك قال «وكلم

---

١) الزيادتان منا لاستقامة الكلام .

٢) فى الاصل « أو يجرى » .

الله موسى تكليماً »[١].

وأما قوله « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب » [٢] ، فقد قال أيضاً « أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » فمن بعضها [يفسر][٣] بعض .

المسألة الحادية والعشرون

[حول الكعبة والميثاق والعقل والروح]

الكعبة كانت قبلة من تقدمنا أولنا لابراهيم عليه السلام[٤].

وقول الحجاج الحجر « وفيت بعهدي وتعهدت ميثاقي » [٥]، أيسمع الحجر ذلك أو يحدث فيه يوم القيامة العلم بذلك ، وهل الميثاق له[٦] أصل ، فان كان هناك ميثاق فيجب أن نذكره ان كنا عقلاء في ذلك الوقت، وان كنا غير ذلك فحوشي أن يؤخذ الميثاق على غير عاقل . فأيضاً فهذا مما يقوى به أصحاب التناسخ ، لأنهم يحتجون علينا بأن الأرواح مخلوقة قبل الابدان بألفي عام .

وأريد أيضاً أن تشرح صورة الأرواح هل خلقت قبل الابدان أم لا ، واكثر تعلقهم بهذا الخبر وكون الارواح قديمة قبل الأجسام .

وهذه الأرواح اذا فارقت الأبدان هل تحس أم لا، وهل الحسيات عليها وعلى

---

١) سورة النساء: ١٦٤ .

٢) سورة الشورى : ٥١ .

٣) الزيادة منا .

٤) كذا فى النسخة .

٥) انظر وسائل الشيعة ٥/٤٠٢ – ٤٠٧ ، ففى أحاديث وردت هذه الجملة « أمانتى أديتها وميثاقى تعاهدته لتشهد لى بالموافاة » .

٦) فى الاصل « وهو الميثاق » .

الأبدان أوعليها وحدها .

وإذا نام الانسان ما يعدم من البدن منها وما الذي يبقى فيه .

والعقل أين مستقره من البدن ، وهل هو في العالم سواء أويتفاضل الناس فيه .

وهل الأنبياء والأئمة عليهم السلام لهم علينا مزية فيه أونحن وهم فيه سواء ، بأن اكتساب علوم فلابد (من أصل الماء أعني) (١) بذلك الأصل ، وهل يكبر مع الصبي كلما كبر أو الذي يكسبه علوم .

والروح في الانسان لـم روح ، وأين مستقر العقل ، وهل هو داخل فيها أو خارج عنها ، والانسان من هو ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان الكعبة معلوم أنها قبلتنا ، وأما كونها قبلة من تقدمنا فغير معلوم ، وهو مجوز.

وأما قول الحاج للحجر ، فانا تعبدنا بذلك أن نقول هذا اللفظ عند الحجر.

وكيف يجوز أن يسمع الحجر والسمع يفتقر الى كونه حياً ومعلوم أنه جماد .

وأما قوله «هذا الميثاق» الأصل ميثاق الذر، وهو قوله «ألست بربكم قالوا بلى» (٣).

وليس الأمر كذلك، لأن الميثاق الذي يعنيه هو الميثاق الذي أخذه الله تعالى علينا بالحج على لسان نبيـه صلى الله عليه وآله ، وإذا كان كذلك ولامالة (٤) علينا الا في خطابه للحجر ، وقد قلنا انه عبادة من الله تعالى لنا بذلك .

وأما قوله ان هذا [. . .] (٥) أهل التناسخ .

---

١) كذا والعبارة غير مستقيمة .

٢) كذا .

٣) سورة الاعراف : ١٧٢ .

٤) كذا في النسخة .

٥) بياض في الاصل .

فقد بينا في مواضع من كلامنا وكلام شيوخنا بطلان التناسخ بأدلة لا يمكن دخول الشبهة عليها ، فكيف يرجع عليها بمثل ذلك .

فأما قوله : انهم قالوا ان الأرواح مخلوقة قبل الأبدان بألفي عام .

فمن جملة الدعاوي الباطلة التي يفتقرون في تصحيحها الى الأدلة الظاهرة ، ولادليل . ونحن فقد دللنا على حدوث الأجسام جميعها روحاً كانت أوغير روح ، ودللنا على حاجتها الى محدث في مواضع . وعمدة كلامهم على أن الروح نفسها حية ، والحي عندنا هو الجسم الذي الروح له . وهذه المسألة مبنية على معرفة الانسان الحي الفعال من هو ، فاذا عرف سقط كلامهم وثبت مانقوله .

ومن الذي يسلم لهم أن الأرواح قديمة ، والأرواح عندنا جملة من الأجسام، وقد دللنا على حدوثها .

وقوله : وهذه الأرواح اذا فارقت الأبدان هل تحس .

فقد قلنا : ان الذي يحس هو الحي ، والحي هو الذي تحله الحياة ، وهو الجملة التي تدرك المدركات . واذا كانت الأرواح اذا انفردت لايكون لها هذا الحكم لم يجز أن تحس[1]، لأن الحس عبارة عن ادراك .

وقوله : وهل الحساب عليها أو على الأبدان .

والحساب على الحي المكلف المأمور المنهي ، واذا كانت الأرواح لاتقوم بنفسها ـ أعني عن كونها حية ـ وانما هي تابعة فالحساب على من هي تابعة له لا عليها .

وأما قوله : اذا نام الانسان ما الذي يعدم من البدن وما الذي يبقى .

فالروح عندنا عبارة عن الهواء المتردد في مخارق الحي ، وهذا الهواء الحال

١) في الاصل « أن يحسن » .

في حالتي النوم والانتباه[١].

وقوله : والعقل أين مستقره .

فمستقره القلب ، وقد ذكرنا ذلك في مسألة أخرى ، وقد قلنا : ان الناس فيه سواه لايتفاضلون . ولامزية الأنبياء عليهم السلام علينا فيه، وانما المزية[٢] في علوم أخرى .

وقوله : وهل يكبر مع الصبي .

فانه من فعل الله تعالى ، وهو مجموع علوم بين الناس فيه خلاف هل يكون في من ليس بعاقل بعضد أم لا. والظاهر أن الله تعالى يفعله[٣] متى شاء بأن يفعله صغيراً كان من يفعله فيه أو كبيراً ، لأنه يتعلق به باختياره تعالى متى [شاء][٤] أن يفعله فعله ، وقد فعله لعيسى عليه السلام وهم أطفال .

وقوله : والروح في الانسان ثم روح .

والروح روح واحدة ، وقد قلنا انها عبارة عن الهواء المتردد في مخارق الحي، واذا لم يكن في مخارق حي فهو هواء وروح .

وقوله : وأين مستقرها .

فقد قلنا: مخارق الحي.

وقوله : أين مستقر العقل منها .

فليس الروح هي العاقلة ، وتكون الروح داخلة في العقل ولا العقل فيها .

---

١) فى الاصل « فى الانتباه » .

٢) فى الاصل « وانما المزيلة » .

٣) فى الاصل « لفعله » .

٤) الزيادة منا .

وقوله: والانسان من هو.

فهذه المسألة أصل لجميع(١) هذه المسائل، وهي مسألة طويلة لا يحتملها هذا الموضع، وقد أشرنا الى تفصيلها .

المسألة الثانية والعشرون

[اول ماخلق الله تعالى]

اذا كان القديم تعالى قديماً فيما لم يزل فكيف يقطع عليه أن [. . .](٢) السماوات و الأرض وما فيهما أول ابتداء خلقه ، فهل الشريعة تقطع بذلك أو غيره . توضح ذلك. وهو قديم فيما لم يقطع بذلك .

(الجواب) وبالله التوفيق :

انا لانقطع على أن السماوات والارض أول ماخلق، وذلك فجوز(٣) الله تعالى هو العالم بذلك ، وليس في العقل ولا في الشرع مايقطع به عن ذلك .

المسألة الثالثة والعشرون

[حقيقة الفراغ وهل له نهاية]

الفراغ له نهاية ، والقديم تعالى يعلم منتهى نهايته ، وهـذا الفراغ أي شيء هو . وكذلك الطبقة الثانية مـن الأرض والثامنة من السماء نقطع ان هناك فراغاً

---

١) في الاصل « لجميعهم » .

٢) بياض في النسخة .

٣) كذا .

ام لا، فان قلت لا طالبناك بماوراء الملاء ، وهـل القديـم تعالـى يعلم أن هناك نهاية ، فان قلت نعم طالبناك أي شيء وراء النهاية ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان الفراغ لايوصف بأنه منتهاه ولا أنه غير منتهاه على وجه الحقيقة ، وانما يوصف بذلك مجازاً واتساعاً .

وأمـا قوله : وهذا الفراغ أي شيء هو . فقد قلنا انه لا جوهر ولا عرض ولا قديم ولا محدث ولا هو ذات ولا معلوم كالمعلومات .

فأما الطبقة الثانية مـن الأرض فما نعرفها ، والذي نطق بـه القرآن « سبع سماوات طباقاً » [1] « ومن الأرض مثلهن » [2] . فأما غير ذلك فلا طريق يقطع بـه من عقل ولا شرع .

المسألة الرابعة والعشرن

[تكليف اهل جابرقا وجابرسا]

قول الحسن والحسين عليهما السلام : مابين جابرقا وجابرسا حجةالله غيرنا . هل هذه جابرقا وجابرسا لهما تحقيق وما تكليفهم .

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان الخبر قد ورد بذلك ، ولا يقطع عليه بصحة ولا بطلان ، لأنـه من أخبار

---

١) سورة نوح : ١٥ .

٢) سورة الطلاق: ١٢ . والاية « الله الذى خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن » ولعله قصد هذه الاية فجاءت كلمة « طباقاً » عفواً .

الاحاد ، فلن نقطع [١] على صحته ، فان قد اتصل بهم خبر نبينا عليه السلام فهم متعبدون بما في العقل وشريعته ويجرون مجرانا ، وان لم يكن قد اتصل بهم خبر نبينا عليه السلام فهم متعبدون بما في العقل فقط .

المسألة الخامسة والعشرون

[تكليف الاطفال يوم القيامة]

الأطفال ماحكمهم يوم القيامة، أطفال المؤمنين والكافرين، يعني من له اربعون يوماً ومازاد عليه .

(الجواب) وبالله التوفيق :

المروي أن [اولاد] [٢] المؤمنين يدخلون الجنة تفضلا عليهم، أو يرون بذلك سرور آبائهم، فيكون من جملة ثواب الاباء. فأما أولاد الكفار فحكمهم حكم غيرهم ممن ليس بعاقل في أنه يعاد للعرض ثم يصير تراباً .

المسألة السادسة والعشرون

[عقاب من قاتل اماماً]

من قاتل اماماً عادلا وهو مؤمن بجميع الشريعة الا خروجه على الامام وقتل ولم يصح منه توبة ، هل يجوز أن يقتص منه بقدر ظلمه للامام ويدخل الجنة .

(الجواب) وبالله التوفيق :

---

١) في الاصل « فان قطع » .

٢) زيادة منا لاستقامة الكلام .

مقاتلة الامام العادل كفر [. . .][1] عقاب فاعله عقاب الكفار على وجه الدوام، ولا يصح العفو عنه والشفاعة فيه ، ولا يسقط عقابه الا بالتوبة .

المسألة السابعة والعشرون

[الملائكة والجن بعد انتهاء التكليف]

اذا حصل أهل الجنة في الجنة ما حكم الملائكة ، هل يكونوا في جنة بنى آدم أو غيرها ، وهل يراهم البشر ، وهم يأكلون ويشربون مثل البشر أو تسبيح وتقديس ، وهل يسقط عنهم التكليف . وكذلك الجن .

(الجواب) وبالله التوفيق :

انه يجوز أن يكونوا في الجنة مع بنى آدم ، ويجوز أن يكونوا في جنة سواها ، فان الجنان كثيرة : جنة الخلد ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وغير ذلك مما لم يذكره الله تعالى .

وأما في رؤية البشر لهم فلا تصلح الا على احد الوجهين : اما أن يقوي الله تعالى [2]، أو يكيف الملائكة .

وأما الأكل والشرب فمجوز ، والله تعالى ينبئهم بما فيه لذتهم ، فان جعل لذتهم في الأكل والشرب جاز ، وان جعلها في غيره جاز .

وأما التكليف فأنه يسقط عنهم ، لأنه لا يصح أن يكونوا مكلفين مثابين في حالة واحدة .

والكلام في الجن يجري هذا المجرى .

---

١) بياض في النسخة .

٢) كذا ، ولعل الصحيح : اما أن يقوى الله تعالى رؤية البشر .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(جوابات المسائل الواسطيات)

بسم الله الرحمن الرحيم

المسألة الخامسة من المسائل الواسطيات

[انكاح النواصب والغلات]

هل يجوز للمؤمن أن يزوج ابنته الناصب أو الغالي أو فيها [1] مايخرج من حد النكاح الى السفاح ، وما الفرق بينهما في هذه الحالة، وما حقيقة بعدهما جمعاً من حقائق الأسلام على مقتضى الاعتقاد وأصول الدين ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

الناصب كالغالي في الكفر والخروج عن الايمان ، ولا يجوز مناكحة كل واحد منهما مع الاختيار. ولا فرق بينهما في أنهما كافران لايتعلق عليهما أحكام أهل الاسلام .

فأما مقادير عقاب كل واحد منهما وزيادة بعضه على بعض أونقصانه فمما يعلمه الله تعالى ولا طريق لنا الى تحقيقه وتفصيله .

---

١) كذا .

المسألة السادسة من الواسطيات

[ميراث أهل الذمة]

هل يرث المسلم ممن مات من أهل بيته ممن هو من أهل الذمة على مقتضى الشريعة أو الاسلام يمنعه من ميراث أهل المخالفين لملته، لقول النبي صلى الله عليه وآله: أهل ملتين لايتوارثون. بحسب ما ذكره ابن محبوب «ره» في كتاب المشيخة [1].

(الجواب) وبالله التوفيق:

انه لا يختلف أصحابنا في أن المؤمن يرث الكافر وان كان الكافر لايرث المؤمن وما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله من قوله «ان أهل ملتين لايتوارثون» ان كان صحيحاً فانه خبر واحد غير مقطوع به، فمعناه أن كل واحد منهما لايرث صاحبه وذلك لا يمنع من أن يورث المسلم الكافر، لأن التوارث تفاعل ولا يكون الابين اثنين على كل واحد واحد، واذا كان من جهة واحدة لم يكن تفاعلا ولا توارثاً.

المسألة السابعة من الواسطيات

[الصلاة في ثوب ابريسم ممزوج]

مع ثبوت الخبر أنه لا يجوز الصلاة في ثوب ابريسم الا أن يكون ممزوجاً بقطن أو كتان، فهل تجب الصلاة في ثوبين أحدهما ابريسم والآخر كتان وجوبهما جميعاً مجرى الثوب الممزوج اذا كان المعتمد في ذلك نقض الصلاة في الحرير

---

١) وسائل الشيعة ١٧/٣٧٧.

اذا لم يكن معه غيره .

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان الثوب اذا كان حريراً محضاً لا يخالطه قطن أو كنان فلبسه حرام والصلاة فيه أيضاً غير جائزة ، ولا يجري الثوبان اللذان أحدهما حرير محض والاخر قطن مجرى ثوب واحد ممزوج ، لأن لابس الثوبين واحدهما حرير محض لابس لما حرم من الحرير ، وليس كذلك الثوب الممزوج .

المسألة الثامنة من الواسطيات

[عدة وفاة الذمي]

اذا مات الذمي عن زوجته فكم أقل مايجب أن تعتد بعده فتحل للمستمتع بها من المسلمين ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

لايجوز التمتع ولاأن ينكح الدوام والتأبيدامرأة الذمي اذامات عنهازوجها[1] الذمي الا بعد أن تعتد العدة المفروضة في ذلك على الزوجة الحرة المسلمة .

مسألة التاسعة من الواسطيات

[المرأة المتسامحة فى نفسها عن مراعاة الطلاق]

اذا ثبت على المرأة المتسمحة في صيانة نفسها أنها تتزوج كثيراً ولا تراعي طلاقها الا بالخروج من بيت زوجها لا ينضبط لها استقرارهم وطلب الخلاص من

١) في الاصل « عن زوجها » .

حالهم وتزوجهم ، فكيف يكون السبيل للراغب فيها الى التزوج بها ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان نكاح[١] المرأة المتزوجة في دينها المتسمحة فيما يلزمها من عدة أو غيرها مكروه وان لم يكن محرماً، وكل امرأة لم يعلم أنها في حبال زوج أوعدة منه جاز نكاحها على ظاهر الأمر فيه وليس يلزمه ما في الباطن ، فمن أراد الاحتياط مع من خاف أن تكون فرطت في عدتها جاز له أن يلزمها أن تعتد عدة كاملة قبل العقد عليها وان لم يكن ذلك واجباً .

المسألة العاشرة من الواسطيات

[لاحد للمستمتعات فى العدد]

هل تجري المستمتعات بهن مجرى الزوجات في التحصين ، فيحرم على المستمتع الزيادة على الأربع أوتجري مجرى الاماء في كثرة العدد وترك الالتفات الى هذا الباب .

(الجواب) وبالله التوفيق :

لا خلاف بين أصحابنا في أن المتمتع أن يجمع بين النساء اكثر من أربع حرائر وأنهن يجرين مجرى الاماء اللواتي يستباح بملك اليمين وطؤهن ، وقوله تعالى « مثنى وثلاث ورباع »[٢] وكل ظاهر من قرآن أو سنة يقتضي ذلك الزائد على أربع ، نحمله على أن المراد نكاح الدوام دون المتعة .

---

١) فى الاصل « ان النكاح » .

٢) سورة النساء : ٣ .

المسألة الحادية عشر من الواسطيات

[طلاق المضطر ثلاثاً كم يعد]

اذا اضطر الرجل المؤمن الى التزوج فى أسفاره أوحسب اختياره وهومقارب لمن يتقيه ولا يتمكن أن يجعل طلاقه لهـن بحسب اعتقاده فيطلقهن اذا اضطر الى ذلك تطليق الثلاث مع مكان واحد ، فهل يجزيه ذلك مع التقية أوهـن في حباله حين لـم يطلقهن على مقتضى المذهب الذي يعتقده فيحرم عليه حينئذ التزويج بعد الأربع اللواتي طلقهن على ما شرح أولا .

(الجواب) وبالله التوفيق :

لاتقية على أحد في أن يطلق امرأته الطلاق الذي تذهب اليه الامامية ، فانه اذا طلقها تطليقة واحدة في طهر لاجماع فيه بمشهد من عدلين فقد فعل السنة وخلاف ذلك هو البدعة وان وقع الطلاق معه عند المخالف .

الا أنه يمكن أن يسأل عمن طلق نساه له أربعاً بلفظ واحد .

والجواب : انه اذا طلق جميعهن وهن في طهر لاجماع فيه بلفظ واحد بمشهد من عدلين فقد وقعت بهن تطليقة واحدة ، ولا يحل له أن يتزوج بأخرى الا بعد أن يخرجن من العدة وبين منه بالخروج منها .

المسألة الثانية عشر من الواسطيات

[جواز التمتع للمستمتع بها قبل انقضاء العدة]

هل يجوز للمستمتع بالامرأه اذا بانت عنه بخروج الاجل المسمى بينهاوبينه أن يستمتع بهـا قبل انقضاء عدتها أو بعد ذلك ، أوتحرم عليه بالمتعة الأولى مـن

اعادتها ومراجعة الاستمتاع بها ، وما الحكم والرخصة في ذلك ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

يجوز للمستمتع بالمرأة بعد انقضاء عدتها منه أن يعاود الاستمتاع بها ، ويجوز له بعد انقضاء الأجل المضروب وقبل أن تعتد منه أن يعاود التمتع . وانما العدة شرط في اباحة نكاح غيره لها وليست شرطاً في نكاحه هو اياها .

(المسائل الرملية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

[حكم الطلاق بعد ارتفاع الدم وايلاء المرأة]

مسألة من المسائل الرملية ، قال :

اذا كان الطلاق لا يقع بالمرأة الا وهي طاهر فى طهر لا ملامسة فيه ، فما الحكم في رجل قصد الى امرأة وهي طاهر فلامسها ثم آلى منها عقيب ملامستها وارتفع الدم عنها فتربصت به أربعة أشهر لم يقربها وجب عليه فيها مرافعته الى الحاكم بعد الأجل فأمره بالكفارة فامتنع منها ، أيلزمه الطلاق وهي فيطهر قد وقعت فيه الملامسة فيكون قد أفتى بضد مايقتضيه المذهب ، أم يتركه على حاله لا يكفر ولا يطلق فيخالف الاجماع في ذلك ؟

(الجواب) وبالله التوفيق:

ان الطلاق انما لايقع فيطهر تخللته الملامسة اذا كانت المرأة ممن تحيض وتطهر ، فأما اذا ارتفع الدم عنها ويئست من الحيض ودام ارتفاع الدم [1] فان

---

١) فى الاصل « وليس ارتفاع الدم » .

الطلاق يقع بها على كل حال .

واذا كان الأمر على مـا أوضحنا وصادف انقضاء الأربعة أشهر مرافعة المرأة لزوجها الى الحاكم اليائس من الحيض فالحاكم يأمره بالكفارة ، فاذا امتنع ألزمه الطلاق ، فان طلق وقع طلاقه ، لأن طلاقه طلاق يائسة .

اللهم الا أن يسأل عمن صادف مرافعة مـن زوجته الى الحاكـم بعد انقضاء الأجل حيضاً وامتنع الزوج من الكفارة، وقيل لنا : كيف تقولون ههنا أيلزمه الطلاق وهو لا يقع منه أوتمسك عن الزامه فيكون غير مكفر ولا مطلق ؟

والجواب عن ذلك :

انا نقول : انه ألزمه الطلاق بشرط طهارة زوجته، فكأنه يقول له : قد ألزمتك وحكمت عليك بأن تطلق زوجتك اذا طهرت فقد صار الطلاق لازماً لما امتنع من الكفارة لكن على الوجه المطلوب .

وهذا بين بحمد الله وتوفيقه .

(٢)
[حكم الخلاف في رؤية الهلال]

مسألة من المسائل الرملية :

ما القول في من طلب هلال شهر رمضان فلم يره ، أوراه وجوز رؤية غيره له من قبل في بلد آخر وكانت رؤيته لا تعطي معرفة له ، أي شيء يعتقد وعلى أي شيء يقول ؟

وكذلك اذا ظهر آخر الشهر لقوم واستتر عن قوم حتى وجب الصيام على من استتر عنهم والافطار على مـن ظهر لهم ، أليس يؤدي هذا الى نقصانه عند بعض

المكلفين وتمامه عندآخرين فتبطل حقيقة شهر رمضان في نفسه ، أو يكون له حقيقة عندالله تعالى لم ينصب لخلقه دليلا يتفقون به عليها ويعتقدونها على وجهها ، ويؤدي أيضاً الى اختلاف الاعياد وفساد التواريخ ومماثلة أهل الأجتهاد في الخلاف ؟

(الجواب) وبالله التوفيق :

ان تكليف كل مكلف يختص به ولايتعلق بغيره، فليس بمنكر أن يختلف تكليف الشخصين في الوقت الواحد ،كما لايمتنع اختلاف تكليف الشخص الواحد في الوقتين والوجهين وفي الوقت الواحد والوجه الواحد اذا كان التكليف على التخيير .

واذا صحت هذه الجملة فما المانع من أن يكون تكليف من رأى هلال شهر رمضان الصوم وتكليف من لم يره ولاقامت حجة برؤيته الفطر ، وكذلك حكمها في رؤية الفطر .

وأي فساد في اختلاف التكليف اذا اختلفت وجوهه أوطرقه ؟ أوليس الله تعالى قد كلف واجد الماء الطهارة به دون غيره وأسقط من فاقد الماء تكليف الطهارة به وكلفه التيمم بالتراب وجعل تكليفهما في صلاة واحدة مختلفاً كماترى ، ولم يقتض ذلك فساداً .

وكذلك تكليف المريض الصلاة من قعود والصحيح الصلاة من قيام، فاختلف التكليف فيهما لاختلاف أسبابهما به .

ومن طلب جهة القبلة وغلب في ظنه بأمارة لاحت له أنها في بعض الجهات وجب عليه ان يصلي اليها بعينها ، ومن طلبها في تلك الحال وغلب في ظنه بأمارة أخرى أنها في جهة سواها وجب عليه أن يصلي الى خلاف الجهة الأولى . وكل واحد منهما مؤد فرضه وان اختلف التكليف .

ولوذهبنا الى ماذكرمما يختلف فيه التكليف من ضروب الشرائع لطال القول واتسع .

ولسنا نعيب أصحاب الاجتهاد بالاختلاف في التكليف على ظن المسائل، لأن الاختلاف اذا كان عن دليل موجب للعلم وحجة صحيحة لم يكن معيباً . وانما عبناهم بالاجتهاد والقياس في الشريعة ، لأنه لا دليل عليهما ولا طريق اليهما .

(شرح القصيدة المذهبة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله الطاهرين .

سأل الأستاذ الفاضل أبوالحسن علي بن شهفيروز أدام الله عزه تفسير قصيدة أبي هاشم اسماعيل بن محمد الحميري الملقب بالسيد رضي الله عنه البائية التى أولها « هلا وقفت على المكان المعشب » ، وايضاح معانيها ومشكل ألفاظها .

وأنا أجيب الى ذلك على ضيق وقتي وتقسيم فكري و كثرة قواطعي .

ومن الله أستمد المعونة والتوفيق في كل قرب وطلب .

(١)

هلا وقفت على المكان المعشب
بين الطويلع(١ فاللوى من كبكب

المعشب : هو المكان الكثير العشب ، والعشب معروف ، ومنه مكان معشب

١) فى بعض النسخ « ظويلع » وهو لهجة بعض المناطق العربية .

وعشيب وعاشب . وجمع العشب أعشاب .

والطويلع : ماء لبني تميم في ناحية الضمان . ويكون مصغراً من أحد شيئين: اما أن يكون من « طلع على القوم » أي أشرف عليهم ، واما من قولهم « اطلع الرجل » اذا قاء ، والطلعاء القيء . فان كان الأول فهو تصغير « طالع » لاشراف موضعه من الوادي الذي هوفيه وعلوه ، وان كان من الثاني فهو تصغير على الأصل كأنه قال اطلع الرجل أي قاء ، فطلع القيء ، كما أنهم قالوا : أتاع الرجل اذاقاء أيضاً ، كما قال القطامي :

وظلت تعبط الأيدي كلوماً تمج عروقها العلق المتاعا

قالوا : اتاع القيء ، نفسه . واذا كان الاسم على ما قلنا طالعاً ، فان تصغيره « طويلع » الا أن التصغير دخله بعد أن صار اسماً ، لأن الصفة لا تصغر .

واللوى مقصوراً: انحناء بعد منقطع الرملة ، واما اللواء بالمد فهو الذي يعقد للوالي .

وأما « كبكب » فهو جبل معروف ، وهو المطل على عرفات ، وهو فعلل من الكبة وهي معظم الحرب . وكذلك كبة النار معظمها وجاحمها ، ومنه قوله تعالي « و كبكبوا فيهاهم والغاوون »[1]، ومعناه فكببوا ، كقولك فتحت الابواب اذاأردت تكثير الفعل . ويجوز أن يكون المعنى : ألقوا على وجوههم فيها .

ويمكن أيضاً أن يكون اشتقاق « كبكب » من المتكبب ، وهو المجتمع المتلون.

فان قيل : كيف يقول « بين الطويلع فاللوى من كبكب » والكلام يدل على تقارب الموضعين ، لأنه قال : هلا وقفت على المكان المعشب ، بين كذا و كذا ، وقد قلتم ان الطويلع بناحية الضمان ، و كبكب جبل مطل على عرفات وبينهما بون

---

١) سورة الشعراء : ٩٤ .

بعيـد ؟

قلنا : ليس يمتنع أن يأمره بالوقوف على كل مكان معشب بين هذين الموضعين وان تباعـدا . ويجوز أيضاً أن يكون أمره بالوقوف على مـكان بعينه معشب بين الطويلع فكبكب وان تباعد ما بينهما ، وهذا أحسن .

(٢)

فنجاد توضح فالنضايد فالشظا
فرياض سخة فالنقا مـن جونب

النجاد : جمع نجد ، وهو الطريق المرتفع . والنجد أيضاً: الأرض المستوية وجمعها نجود . ونجاد السيف حمائله . والنجاد أيضاً اللجام .

وتوضح : موضع مشهور ، قال النابغة :

الواهب المائة الأبـكار زينها كالعين ترعى في مسالك أعضب

وتوضح بالحمى حمى . . . كانت ابل الملوك ترعاه ، فلذلك ذكره النابغة وهو من « وضح الأمر » اذا بان وانكشف ، ومنه وضح الصبح : اذا بان وظهر .

وأما « النضائد » فمشتقة من نضدت الشيء : اذا عبأت بعضه الى بعض . والنضد ما نضدت مـن متاع البيت بعضه على بعض . والنضد أيضاً الشريف مـن الرجال وجمعه انضاد . والنضائد أعمام الرجل وأخواله .

والشظا : موضع يشبه أن يكون سمي بـذلك لبروزه وظهوره ، من قولهم شظي الفرس وتشظى شظاً : اذا تحرك شظاه ، وهو عصبة بين الوظيف والابجر . ويجوز أن يكون مشتقاً من المشقة والشدة، من قولهم : شظي الأمر شظاً وشظوظاً اذا شق واشتد .

وأما «سنحة» فمشتقة من السنح بمعنى الاعتراض، يقال سنح سنوحاً اذاعرض سنح الطريق منه. والسانح ما أولاك ميامنه، والبارح ما أولاك مياسره من الوحش والطير [١].

وأما «النقا» فهو قطعة من الرمل تنقاد محدودبة به، والتثنية نقوان ونقيان لغتان.

وأما «جونب» فهواسم موضع بلاشك، الا أنني لست أعرف جهته وناحيته الى الان، وقد تصفحت ما يجب أن يكون ذكره فيه فلم أجد، وان وجدت مستقبلا ما يدل على هذا الموضع بعينه وجهته استأنف ذكره بمشيئة الله تعالى.

(٣)

طال الثواء على منازل اقفرت
من بعد هند والرباب وزينب

أما «الثواء» فهو الاقامة، يقال ثويت بالمكان وأثويت. والثوية: المنزل الذي يثوى اليه، والثوي الضيف. والثوية أيضاً: عين تنبعث من حجارة للراعي يرجع اليها ليلا.

وأقفرت: بمعنى خلت من أهلها، يقال أرض قفر وقفرة للتي لا شيء بها.

---

١) هذا على نسخة «سنحة» بالنون والحاء المهملة، وأما على نسخة «سخة» بالسين المفتوحة وتشديد الخاء المعجمة فهوماءة في رمال عبدالله بن كلاب، أو «سخنة» بضم السين وسكون الخاء المعجمة ونون فهو بلدة في برية الشام يسكنها قوم من العرب. أنظر: معجم البلدان ١٩٦/٣.

(٤)

ادم حللن بها وهن اوانس
كالعين ترعى من مسالك اهضب

الادم من الرجال والنساء : البيض الى السمرة ، ومن الابل والضباع : البيض الى الحمرة .

وقوله « أوانس » يعني النساء ، وقد مضى ذكرهن في البيت الأول .

والعين : بقر الوحش ، الواحدة عيناء ، سميت بذلك لكبر عينها .

وأهضب : جمع هضبة ، وهو ما ارتفع من الأرض .

(٥)

يضحكن من طرب بهن تبسماً
عن كل ابيض ذى غروب اشنب

الطرب : ما يستخف الانسان من فرح أو حزن ، قال الشاعر :

وأدالوا طرباً في أمرهم طرب الواله أو كالمختبل

وقوله « يضحكن تبسماً » مناقض ، لأن الضحك الاستغراب والمبالغة الى غاية لا يدركها التبسم ، الا أنه أقامه مقامه فأجرى عليه اسمه[1].

---

١) في الهامش : قوله « أقامه مقامه فأجرى عليه اسمه » لعل الشاعر البليغ المجمع على بلاغته ، أراد أن هؤلاء الغواني المشبب بهن موصوفات بغاية وقوة الحياء ، مصونات عن كل خصلة مبتذلة ، فاذا غلبهن عجب من شيء لم يدرك منهن ما يدرك من غيرهن من الاعلان بالضحك الذى يسمع للعجب ، وانما يدرك منهن التبسم . وهذا غاية المدح فيهن ، مفيد معنى الكناية المطلوب . والله أعلم .

« والغروب » جمع غرب، وهو من كل شيء حده ، وانما أراد تحديد الأسنان وذلك من علامة حداثة السن .

والشنب : برد الاسنان وعذوبتها ، يقال : رجل أشنب وامرأة شنباء .

(٦)

حور مدامعها كأن ثغورها
وهنا صوافي لؤلؤ لم يثقب

حور : جمع حوراء ، من الحور الذي هو شدة بياض العين وشدة سواد سوادها. وقيل بل هوأن يكون البياض محدقاً بالسواد . وانما يكون ذلك في البقر والظباء ، ويستعار للناس .

ووهن الليل : قريب من نصفه ، وأراد أن ثغورهن وصف من النساء (كذا) يعني يضيء في هذا الوقت من الليل كما يضيء الصافي من اللؤلؤ . وخص مالم يثقب منه لأنه قبل الثقب لا يلبس ولا يستعمل ولا يستبذل فيتدنس بذلك .

(٧)

انس حللن بها نواعم كالدمى
من بين محصنة وبكر خرعب

الانس : جمع آنسة .

والدمى : جمع دمية ، وهي الصورة .

والمحصنة: العفيفة ، وهي أيضاً ذات الزوج ، والمراد بها ههنا ذات زوج حتى يقابل قوله « بكر خرعب » .

وأما « الخرعب » من النساء والخرعبة : فهي الطويلة اللينة العصب .

(٨)

لعساء واضحة الجبين اسيلة
وعث المؤزر جثلة المتنقب

اللعس : أن تشتد حمرة الشفة حتى تضرب الى السواد ، امرأة لعساء ونساء لعس .

ووضح الجبين : بياضه واشراقه .

والأسيلة : السهلة الخد .

وقولـه « وعث المؤزر » أي هي ثقيلة الردف مع لين و. . . كالواعث من الرمل : وهو ما اجتمع منه في سهولة ولين .

فأما قوله « جثلة المتنقب » فالجثل : الكثيف والكثافة في الوجه ليس فيها جمال توصف الحسناء به ، وانما توصف بالسهولة في الخد والوجه . وما أعلم الى أي شيء ذهب في هذا المعنى(١) .

(٩)

كنا وهن بنضرة وغضارة
فى خفض عيش راغد مستعذب

النضرة : الحسن ، يقال نضر الشيء فهو ناضر أي حسن .

والغضارة : البهجة .

١) فى الهامش : قوله « وما أعلم الى أى شىء ذهب» اذا كان المتنقب يصح اطلاقـه على هن المرأة ، عمل بالاستعارة : شبه تستره واخفاءه بالوجه المتنقب بالنقاب ، فأطلق عليه، فالامرظاهر، والكثافة فى الهن والعظم مما تحمد به المرأة ، بل تمدح به حتى قالت الاعرابية:

والخفض : لين العيش .

والراغد : الواسع .

(١٠)

ايام لي في بطن طيبة منزل
عن ريب دهر حاير متقلب

طيبة : مدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومـن أسمائها : طيبة ويثرب والمدينة والدار والمسكينة وجابرة والمجبورة والمحبة والمحبوبة والعذراء والرعبوبة والقاصمة وبندد [١] ، فذلك ثلاثة عشر اسماً .

ريب الدهر: خطوبه وطوارقه،وأصل الريب والريبة الشك، يقال رابني الدهر اذا خفت منه وشككت فيه ، في توجه الشرمنه .

ومعنى « عن ريب دهر » أي بدلا وعوضاً عن ريب دهر ، يقولون أعطيتك كذا من كذا أي بدلا عنه .

(١١)

فعفا وصار الى البلا بعد البنا
وازال ذلك صرف دهر قلب

عفـا : بمعنى درس ، يقولون : عفا الموضع يعفو عفواً ، وعفا فهو عاف اذا درس . وعفا القوم يعفون : اذا كثروا ، وعفا الشعر وغيره اذا كثر.

ان هنى لهن . . . ان جلست فوق . . . كالارنب الرانى . . .

فلعل السيد الحميرى يريد هذا مع أنه ذكر أنها أسيلة الوجه أى الخد وانها ثقيلة الردف.

أو يقال انه اراد به جثلة الشعر من الرأس . . .

١) انظر: « عمدة الاخبار في مدينة المختار » ٥١ للشيخ احمد بن عبدالحميد العباسي.

والبنا : جمع بنية .

وصرف الدهر : تقلبه وتصرفه .

والقلب : المتقلب المتردد في الأمور، ومن أوصاف الذئب : القلوب والقلب .

(١٢)

ولقد حلفت وقلت قولا صادقاً
تـالله لم آثم ولم اتريب

الاثم : الذنب والفعل القبيح ، والاثم أيضاً عند قوم الخمر ، والأثم بالفتح مصدر قولهم « ان الناقة لتأثم المشي أثماً » اذا أبطأت .

ومعنى لم أتريب : لم أجيء بريبة وبما يشك فيه .

(١٣)

لمعـاشر غلب الشقاء عليهم
وهوى اماًلهم لامـر متعب

أي حلفت لهؤلاء القوم الذين وصفتهم أن الشقاء غلب عليهم وأمالهم بهواهم الى الأمر المتعب.

(١٤)

من حمير اهل السماحة والندى
وقـريش الغر الكرام وتغلب

يشبه أن يكون انما خص بخطابه ووعظه حمير التي هي قبيلته لأن الانحراف عن أمير المؤمنين كان فيهم فاشياً شائعاً ، وقد روي في الأخبار أن داخلا دخل على السيد في غرفة له ، فقال له السيد : لقد لعن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه

الغرفة كذا وكذا سنة ، وكان والداي يلعنانه في كل يوم كذا وكذا مرة ، ثم قال: ولكن الرحمة غاصت علي غوصاً فاستنقذتني .

ولقد صدق في قوله ، لأن من شأن الولد أن ينشأ في الأغلب والأكثر على مذهب والديه لالفه لهما وتمرنه باستماع ما يقولانه ، ولكن الله تعالى اسمه يوفق من يشاء .

(١٥)

اين التطرب بالولاء وبالهوى
ء الى الكواذب من بروق الخلب

البرق الخلب : الذي لامطر فيه ، وهو مأخوذ من الخلب والخلاب الذي هو الغدر والخداع ، يقال رجل خلاب وخلبوت بالتاء أي غادر . والخلب أيضاً : الطير . والخلب : قلب النخلة . والخلب : الليف واحده خلبة . والخلب : القطع، وقد خلبت الشيء أخلبه خلباً ، وبه سمي المنجل : المخلب ، ومنه سمي مخلب الطائر . والخلب: حجاب القلب . ويقال انه يخلب النساء : أي تحبه النساء .

فكأنه قال : الى أين تذهبون بأهوائكم وولائكم ؟ أتذهبون الى ما لامحصول له ولا ثمرة فيه ولا نفع يعود منه. وجعل الاعتقاد الذي لايعود بنفع كالبرق الخلب الذي لا يتعقبه المطر.

(١٦)

ءالى امية ام الى شيع التى
جاءت على الجمل الخدب الشوقب

ذكر القبيلة نفسها وأراد أبناءها ومن نسلت، وهذا في الكلام المنظوم والمنثور كثير .

وأما « الخدب » فهو الضخم ، يقولون رجل خدب اذا كان عظيماً ، ورجل في خدب أي هوج ، وهو رجل أخدب . وخدب جمع خدب . ودرع خدباء أي واسعة .

والشوقب : الطويل ، يقولون حافر شوقب اذا كان واسعاً .

وانما أراد بالتي جاءت على الجمل الذي وصفه: عائشة بنت ابي بكر الصديق فانها جاءت في يوم الجمل راكبة على جمل هذه صفته .

وقيل ان اسم هذا الجمل « عسكر » ، وشوهد من هذا الجمل في ذلك اليوم كل عجب ، كلما انبتت منه قائمة من قوائمه ثبت على أخرى ، حتى روى أن أميرالمؤمنين نادى : اقتلوا الجمل فانه شيطان . وان محمد بن ابي بكر وعماراً رحمةالله عليهما توليا عقره بعد طول زمانه . وروي أن هذا الجمل بقي بار كاً ضارباً بجرانه سنة لا يأكل منه سبع ولا طائر .

(١٧)

تهوى من البلد الحرام فنبحت
بعد الهدو كلاب اهل الحوأب

انما قال « تهوى من البلد الحرام » لأنها أقبلت من مكة تريد البصرة .

وتقول العرب : أتانا بعد هدو من الليل ، وبعد هدء من الليل ، وهدي من الليل ــ على مثال فعل ــ أي حين سكنوا ، والجمع هدوء على مثال فعول .

والحوأب : ماء في الطريق ما بين البصرة ومكة من مياه بني كلاب .

والحوأب : الوادي الكثير الماء ، قال الراجز :

هل لك من شربة بالحوأب فصعدي من بعدها وصوبي

ويجوز أن يكون هذا الماء انما سمي بالحوأب للسعة والكثرة ، وقد قيل انما سمي بالحوأب نسبة الى بنت كلب بن وبرة .

وروي أنه لما جاءت عائشة الى هذا الموضوع نبحتها كلاب الحوأب ، فقالت عائشة : أي ماء هذا؟ قالوا : ماء الحوأب . فقالت : ردوني ردوني فاني سمعت رسول الله يقول « أبصري لا تكوني التي تنبحها كلاب الحوأب » . فقالوا : ليس هذا ماء حوأب، فأبت أن تصدقهم، فجاؤا بخمسين شاهداً من العرب، فشهدوا أنه ليس بماء حوأب ، وحلفوا لها ، فكسوهم أكسية وأعطوهم دراهم ، وكانت هذه أول شهادة زور حدثت في الاسلام[1] .

(١٨)

يحدو الزبير بها وطلحة عسكرا
يا للرجال لراى ام مشجب

معنى « يحدو » يسوق ، يقال : حدوته أي سقته ، وحداني اليه أي ساقني ، والاسم الحداء .

وانما قال « ياللرجال » بفتح اللام لأنه استغاث بهم ، وكسر اللام في قوله « لرأي أم » لأنه المستغاث له .

والشجب : الهلاك ، يقال شجب يشجب شجباً فهو شاجب ، وأشجبت زيداً اذا أهلكته .

والأم ههنا عائشة ، لقول الله عزوجل « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم

---

١) انظر تفصيل القصة في تاريخ الطبرى ٤٥٦/٤ فما بعد ، مروج الذهب ٣٥٣/٢.

وأزواجه أمهاتهم »[١] وفسر ذلك بتفسيرين : احدهما أنه تعالى أراد أنهن يحرمن علينا كتحريم الأمهات ، والاخر أنه يجب علينا من تعظيمهن وتوقيرهن مثلما يجب علينا في أمهاتنا . ويجوز أن يراد الأمران معاً فلا تنافي بينهما .

ومن ذهب لأجل تسميته بأنهن أمهات المؤمنين الى أن معاوية خال المؤمنين فقدذهب مذهباً بعيداً، وحاد عن رأي الصواب السديد، لأن أخاالأم انمايكون خالا اذا كانت الأمومة من طريق النسب ، وأما اذا كانت على سبيل التشبيه والاستعارة فالقياس غير مطرد فيها ، ولهذا لا يسمى آباء أزواج النبي أجداداً لنا ولا اخواتهن لنا خالات ، ولا يجري القياس في هذا الموضع مجراه في النسب .

وكيف اختص بالخؤولة معاوية دون كل اخوة أزواج النبي ؟ وهلا وصف محمد بن أبي بكروعبدالله بن عمر بالخؤولة ان كان القياس مطرداً ؟ ولكن العصبية تعمي وتصم .

(١٩)

ما للرجال لرأى ام قادها
ذئبان يكتنفانها فى اذؤب

انما أراد بالذئبين ههنا طلحة والزبير ، وقد سماهما بهذا الأسم للمكر والخديعة والمؤاربة والمخاتلة ، فانهما كانا من أشد الناس على عثمان وأبسطهم لساناً فيه واجلاباً له ، وكان طلحة ممن حاصر الداروقاتل أهلها وباشر القتل وتولاه وتحدد فيه ، ثم بايعا أمير المؤمنين مسابقين الى بيعته ، مغتبطين على ولايته . ثم مالا عن ذلك حسداً ونفاسة ، واستأذناه في الخروج الى مكة للعمرة ، فاذن لهما على ريبة

١) سورة الاحزاب : ٦ .

بهما وشك فيهما .

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كنت جالساً عند علي عليه السلام حين دخل طلحة والزبير فأستأذناه في العمرة ، فأبى أن يأذن لهما وقال: قداعتمرتما، فأعادا عليه الكلام فأذن لهما ، ثم التفت الي فقال : والله ما يريدان العمرة . فقلت له : لا تأذن لهما ، فردهما ثم قال لهما : والله ما تريدان العمرة ، ومـا تريدان الا نكثاً لبيعتكما وفرقة لأمتكما، فحلفا فأذن لهما، ثم التفت الي فقال : والله مايريدان العمرة ولكن يريدان الغدرة . فقلت : فلم أذنت لهما ؟ فقال : حلفا بالله . قال : فخرجا الى مكة ، فدخلا على عائشة فلم يزالا بها حتى أخرجاها .

والاخبار من الطرق المختلفة متظافرة أن طلحة والزبير حملا عائشة على المسير الى البصرة بعد أن كان أشار علبها جماعة من الصحابة بالمقام ، وجرى في ذلك من الجدال والحجاج ما هو مشهور مشروح [1] . ومن أراد تفحصه والنظر فيه فلينظر في الكتب المصنفة لاسيما في نصربن مزاحم المنقري الذي أفرده لأخبار يوم الجمل ، فانه يقف من بواطن هذا الأمر على ما يكثر فيه عجبه ، ويطول له ذكره .

ومن الأخبار الطريفة ما رواه نصر بن مزاحم هذا عن أبي عبدالرحمن المسعودي عن السري بن اسماعيل بن الشعبي عن عبدالرحمن بن مسعود العبدي قال : كنت بمكة مع عبدالله بن الزبير وبها طلحة والزبير . قال : فأرسلا الى عبدالله بن الزبير، فأتاهما وأنا معه ، فقالا له : ان عثمان قتل مظلوماً وانا نخاف

---

١) انظر شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ٢/ ٧٨ ، العقد الفريد ٣/ ٩٦ . وانظر روايات اخرى لما دار بين السيدتين فى البدء والتاريخ ٢/ ١٠٩ ، وفى الفائق للزمخشرى ١/ ١٩٠ .

الانتشار من أمة محمد صلى‌الله عليه وآله، فان رأت عائشة أن تخرج معنا لعل الله يرتق بها فتقاً ويشعب بها صدعاً . قال : فخرجنا نمشي حتى انتهينا اليها ، فدخل عبدالله بن الزبير في سمرها وجلست على الباب ، فأبلغها ما أرسلا به اليها ، فقالت : سبحان الله، ما أمرت بالخروج، وما تحضرني امرأة من أمهات المؤمنين الا أم سلمة ، فان خرجت خرجت معها. فرجع اليهما فأبلغهما ذلك، فقالا: ارجع اليها فلتأتها فانها أثقل عليها منا، فرجع اليها فبلغها، فأقبلت حتى دخلت على أم‌سلمة، فقالت أم‌سلمة : مرحباً بعائشة ، والله ماكنت لي بزائرة فما بدا لك ؟ قالت : قدم طلحة والزبير فخبرا أن اميرالمؤمنين عثمان قتل مظلوماً . قال : فصرخت أم‌سلمة صرخة أسمعت من في الدار ، فقالت : ياعائشة أنت بالأمس تشهدين عليه بالكفر وهو اليوم أميرالمؤمنين قتل مظلوماً ، فماتريدين ؟ قالت : تخرجين معي فلعل‌الله أن يصلح بخروجنا أمر أمة محمد « ص » . فقالت : يا عائشة أخرج وقد سمعت من رسول الله ما سمعت ، نشدتك بالله يا عائشة الذي يعلم صدقك أن صدقت ، أتذكرين يومك من رسول الله فصنعت حريرة في بيتي فأتيته بها وهو عليه السلام يقول : والله لا تذهب الليالي والأيام حتى تتنابح كلاب ماء بالعراق يقال له الحوأب امرأة من نسائي في فئة باغية ، فسقط الاناء من يدي ، فرفع رأسه الي فقال : ما بالك يا أم سلمة؟ قلت : يا رسول الله ألا يسقط الاناء من يدي وأنت تقول ما تقول ؟ ما يؤمنني أن أكون أنا هي ، فضحكت أنت ، فالتفت اليك فقال « ص » : ما يضحكك يا حمراء الساقين ، انى لأحسبك هي .

ونشدتك بالله يا عائشة أتذكرين ليلة أسرى بنا رسول الله « ص » من مكان كذا وكذا ، وهو بيني وبين علي بن ابي طالب يحدثنا ، فأدخلت جملك فحال بينه وبين علي ، فرفع مرفقة كانت معه فضرب بها وجه جملك وقال : أما والله ما يومك منه بواحد ، ولا بليته منك بواحدة ، أما انه لا يبغضه الا منافق أو كذاب .

وأنشدك الله يا عائشة أتذكرين مرض رسول‌الله « ص » الذي قبض فيه ، فأتاك أبوك يعوده ومعه عمر ، وقد كان علي بن ابي طالب يتعاهد ثوب رسول الله «ص» ونعله وخفه ، ويصلح ما وهى منها . فدخل قبل ذلك ، فأخذ نعل رسول الله «ص» وهي حضرمية وهو يخصفها خلف البيت ، فاستأذنا عليه فأذن لهما ، فقالا : يا رسول‌الله كيف أصبحت ؟ قال: أصبحت أحمد الله تعالى . قالا : مابد من الموت ؟ قال « ص » : لابد منه . قالا : يا رسول الله فهل استخلفت أحداً ؟ فقال : ما خليفتي فيكم الاخاصف النعل، فخرجا فمرا على علي « ع » وهو يخصف النعل.

كل ذلك تعرفينه يا عائشة وتشهدين عليه لأنك سمعته من رسول الله « ص » .

ثم قالت أم سلمة : ياعائشة أنا أخرج على علي بعد هذا الذي سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فرجعت عائشة الى منزلها فقالت: يابن الزبير أبلغهما أني لست بخارجة بعد الذي سمعته من أم سلمة، فرجع فبلغهما. قال: فما انتصف الليل حتى سمعنا رغاء ابلها ترتحل ، فارتحلت معهما .

ومن العجائب أن يكون مثل هذا الخبر الذي يتضمن النص بالخلافة ، وكل فضيلة غريبة موجودة في الكتب للمخالفين وفيما يصححونه من رواياتهم ويصنفونه من سيرتهم ولا يتبعونه ، لكن القوم رووا ما سمعوا ، وأودعوا كتبهم ما حفظوا ونقلوا ولم يتخيروا ويتبينوا ماوافق مذهبهم دون ماخالفهم، وهكذا يفعل المسترسل المستسلم للحق .

وروى نصر بن مزاحم المنقري: ان القوم لما خرجوا من مكة يريدون البصرة فبلغوا « ذات عرق » قام سعيد بن العاص فحمدالله وأثنى عليه ثم ذكر عثمان فترحم عليه ودعا له ، ثم قال : وقد زعمتم أيها الناس أنكم تخرجون لتطالبوا بدم عثمان، فان كنتم ذلك تريدون فان قتلة عثمان على صدور هذه المطي وأعجازها ، فميلوا عليهم بأسيافكم،والا فانصرفوا الى منازلكم ولا تقتلوا في طاعة المخلوقين انفسكم،

ولا يغني من الله الناس عنكم يوم القيامة . فقال مروان : يضرب بعضهم ببعض فمن قتل كان الظفرفيه ويبقى الباقي وهو واهن ضعيف .

(٢٠)

ذلبان قادهما الشقاء وقادها
للحين فاقتحما بها في منشب

الحين : الهلاك .

واقتحما : أي دخلا ، يقال اقتحمت على الأمر وهجمت عليه ، وأقتحمته عيني اذا ازدرته .

المنشب : يقال « نشب في الأمر بنشب » اذا دخل فيه وعلق به ، ومثله نشق الصيد في الحبالة ينشق اذا دخل فيها ما نشب .

(٢١)

في ورطة لحجا بها فتحملت
منها على قتب بائم محقب

الورطة : الهلكة ، وكذلك الوردة . والورطة والوراط : الخديعة .

ومعنى لحجا : نشبا ، يقال لحج لحجاً ولخص يلخص لخصاً اذا نشب .

والقتب : قتب الرحل ، والقتب أيضاً واحد الأمعاء ويقال لواحدتها قتبة .

فأما « محقب » فمن قولهم احتقب الذنب ، مأخوذ من الحقيبة والحقاب.

(٢٢ - ٢٣)

ام تدب الى ابنها و وليها
بالمؤذيات له دبيب العقرب

[لو شد والدها بقوة قلبها
لاقى اليهود بخيبر لم يهرب] (١)

لم يرد بقوله « ابنها ووليها » الاشارة الى واحد ، وانما أراد جنس الأبناء والأولياء . وقد يعبر عن الجنس بلفظ الواحد ، يقولون « أهلك الناس الدينار والدرهم » وانما يراد الجنس لا الواحد . وقال الله تعالى « وحملها الانسان » (٢) والمراد الجنس لاتعيين واحد بعينه .

ولما كانت مضرة خروج الامرأة في يوم الجمل ، وحربها للامام العادل ، لاحقة بالدين ، عادت تلك المضرة على جميع المسلمين، فلهذا جعل ذلك الدبيب مشبهاً بدبيب العقرب من حيث اشتركا في المضرة والأذية .

(٢٤)

اما الزبير فحاص حين بدت له
جاواء تبرق في الحديد الاشهب

ويروى « حاض » أيضاً ، ومعنى حاص وحاض واحد، لانه مأخوذ من العدول عن الشيء والانحياز عنه ، ويقولون في القلب « ضاح » مكان حاض .

والجأواء : الكتيبة التي يضرب لونها الى السواد من صدأ الحديد ، يقولون

---

١) هذا البيت يوجد في بعض نسخ الشرح .
٢) سورة الاحزاب : ٧٢ .

في لون البعير جؤورة اذا خالطه مثل لون الحديد، وانما أراد بهذا القول انصراف الزبير عن الوقعة قبل انجاز الأمر بالحرب وانفصاله .

أما انصراف الزبير فقد اختلف الناس فيه وفي أسبابه والداعي اليه : ادعى قومه أنه انصرف للندم على الحرب والتوبة منها ، فانه لما ذكره أمير المؤمنين علي بما ذكره به عاد الى الحق وانصرف عن الحرب .

وقد تكلمنا على ذلك في كتابنا المعروف « بالشافي في الامامة » وحررناه وفرعناه الى غايته ، وأبطلنا أن يكون الرجوع للتوبة والندم لوجوه كثيرة ، من أوضحها : أنه لوكان للتوبة لوجب أن ينحاز الى جهة أمير المؤمنين علي معتذراً اليه ومتنصلا من بغيه عليه ونكثه لبيعته بعد أن كان قد عقدها وأكدها وتولى أيضاً نصرته مع العود الى الاقرار بامامته ، وقتال من أقام الحرب من البغاة ، فلا حال هو فيها أحوج الى النصرة والمعونة من حاله هذه .

ومن جملتها أن قلنا : ان الانحياز عن الحرب والرجوع عن مباشرتها ،يحتمل وجوهاً كثيرة ، فليس لنا أن نحمله على أحد محتملاتها بغير دليل قاطع . هذا اذا سلمنا أن الرجوع على ذلك الوجه محتملا للتوبة كاحتماله لغيرها ، وقد بينا أنه لا يحتملها ، لأنه لم يصر الى جهة الامام المفترض الطاعة متنصلا غاسلا لدرن ما أقدم عليه .

وبينا أيضاً في ذلك الكتاب أن الرجل عصى بأفعال كثيرة : منها الحرب ، ومنها نكث البيعة ، والخروج عن الطاعة ، والمطالبة بدم عثمان لمن لا يستحق أن يطالب به . فهب عوده عن الحرب توبة منها ــ وقد بينا أنه ليس كذلك ــ أليس باقي الذنوب قتلا ، وهو عليها مصر غير نادم ولا مقلع . وفي ما لم يثبت منه كفاية في الغرض المقصود .

وقد روى نصر بن مزاحم في كتابه الذي أشرنا اليه أن أمير المؤمنين علياً حين

وقع القتال تقدم على بغلة رسول الله « ص » الشهباء بين الصفين ، فدعا الزبير ، فدنا منه حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، فقال : يا زبير انشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : انك ستقاتله وأنت ظالم له ؟ قال : اللهم نعم . قال : فلم جئت ؟ قال : جئت لأصلح بين الناس . فأدبر الزبير وهو يقول :

أتى علي بأمر كنت أعرفه قد كان عمر ابيك الخير مذحين
فقلت حسبك من عذل أباحسن بعض الذي قلت منه اليوم يكفيني
فاخترت عاراً على نار مؤججة أنى يقوم لها خلق من الطين
نبئت طلحة وسط القوم منجدلا ركن الضعيف ومأوى كل مسكين
قد كنت انصره حيناً وينصرني في النائبات ويرمي من يراميني
حتى ابتلينا بأمر ضاق مصدره فأصبح اليوم ما يعنيه يعنيني

قال : أقبل الزبير الى عائشة فقال : يا أمة الله ، مالي في هذا الأمر بصيرة وأنا منصرف . فقالت عائشة : أبا عبدالله أفررت من سيوف ابن أبي طالب ؟ فقال : انها والله طوال جداً وتحملها فتية أجلاء .

ثم أتى عبدالله ابنه فقال : يابني اني منصرف . فقال : اتفضحنا في قريش ؟ أتتركنا حتى اذا التقت حلقتا البطان، فضحتنا في العرب ؟ لا والله لاتغسل رؤوسنا منها أبداً ، أجبناً كل ما أرى يا ابتاه ؟

فقال : يا ميسرة أسرج لي الفرس ، ثم هيأ فرسه فرمى بها الى القوم ثلاث مرات فحطمهم ثم انصرف الى ابنه فقال : يا بني أيفعل هذا الجبان ؟ قال : لا فما ردك يا ابتاه ؟ قال : ان علمته كسرك ، قم بأمر الناس .

فخرج الزبير راجعاً فمر بوادي السباع وفيه الأحنف بن قيس قد اعتزل في بني تميم فأخبر الأحنف بانصرافه فقال : ما أصنع به انكان الزبير لف بين الغازين

من المسلمين ، وقتل أحدهما الاخر، ثم هو يريد اللحاق بأهله (كذا)، فسمعه ابن جرموز ، فخرج هو ورجلان معه، وقد كان لحق بالزبير رجل من كلب ومعه غلامه فلما أشرف ابن جرموزوصاحباه على الزبير حرك الرجلان رواحلهما فخلفا الزبير وحده ، فقال لهما الزبير : مالكما ؟ هم ثلاثة ونحن ثلاثة . فلما أقبل ابن جرموز قال له الزبير : اليك عني . فقال ابن جرموز : يا أبا عبدالله ، انني جئت أسألك عن أمور الناس . فقال : تركت الناس على الركب يضرب بعضهم وجوه بعض بالسيف . فقال ابن جرموز : أخبرني عن أشياء أسألك عنها . قال : أخبرني عن خذلك لعثمان وعن بيعتك علياً وعن نقضك بيعته واخراجك أم المؤمنين ، وعن صلاتك خلف ابنك ، وعن هذه الحرب التي جنيتها ، وعن لحوقك بأهلك ؟

فقال : أما خذلي لعثمان فأمر قدم فيه الذنب وأخر فيه التوبة . وأما بيعتي علياً فلم أجد منها بداً ، اذ بايعه المهاجرون والأنصار . وأما نقضي بيعته فانما بايعته بيدي دون قلبي. وأما اخراجي أم المؤمنين فأردنا أمراً وأراد الله غيره، وأماصلاتي خلف ابني فان خالته قدمته . فتنحى ابن جرموز وقال : قتلني الله ان لم اقتلك [ثم جرى في قتله ما قد سطر] .

وذكر في هذا الحديث مواضع تدل على أن انصرافه لم يكن للتوبة ، منها قوله « مالي فيهذا الأمربصيرة » ، وهذا قول شاك غير مستبصر ، والتوبة لاتكون مع عدم الاستبصار واليقين بالمعصية. ومنها أنه قال لابنه « قم بأمرالناس »، فكيف يتوب من المعصية من يستخلف عليها ؟ ومنها تصريحه بأنه بايع أمير المؤمنين بلسانه وأنه كان مبطناً للبغي عليه والغدر به ، وانه أراد أمراً وأراد الله غيره . فأي توبة تكون بالانصراف ؟ وهذا كلام كله دال على خلاف التوبة ، وانما كان بعد الانصراف وقدكان ينبغي لما اعترف في محاورة ابن جرموز ... التوبة أن يعترف

... أميرالمؤمنين (أيضاً) خطيئة موبقة وانـه قد تاب منها وأقلع عنها بعوده عن الحرب ولحوقه بأهله . واستقصاء هذا الكلام تجده في الكتاب الشافي متى طلبته.

(٢٥)

حتى اذا أمن الحتوف وتحته
عارى النواهق ذو نجاء ملهب

الناهقان من الفرس : العظمان الشاخصان في وجهه، أسفل من عينيه، والجمع النواهق . ويقال : الناهقان من الفرس والحمار حيث يخرج النهاق من حلقه .

والنجاء : الاسراع ، فسمي مـا يكون النجاء بـه نجاء ، والنجاء : السحاب الذي قد أهرق ماؤه ، ويقولون : ناقة ناجية ونجاة تقطع الارض بسيرها .

والملهب : الفرس المسرع المضطرم ، ويقولون : ألهب الفرس الهاباً فهو ملهب .

(٢٦)

اوى ابن جرموز عمير شلوه
بالقاع منعفراً كشلو التولب

معنى أثواه : تركه بالقاع، من الثواء الذي هوالمقام . وابن جرموز هوعمرو فصغره فقال : عمير ، ويحتمل أن يكون تكبيراً ، فان كان صغره للتكبير فلأنه جرى على يده أمر عظيم ، وقتل رجل شجاع كبير . ووجه التحقير أنه كان خاملا غير نبيه النسب ولا معروف بفضيلته .

والشلو : كعضو من أعضاء اللحم ، وجمعه أشلاء .

ومنعفر : من العفر وهو التراب ، ومنه قولهم « ظبي أعفر » اذا كان على لون

التراب . والعفر : يقال أيضاً لمخاط الشيطان .

والتولب : ولد الحمار الحولي ، وجمعه توالب .

(٢٧)

واغتر طلحة عند مختلف القنا
عبل الذراع شديد اصل المنكب

العبل : الضخم من كل شيء ، يقال : قد عبل يعبل عبالا ، ويقال : عبل يعبل عبلا اذا ابيض وغلظ ، فهو عبل . وجبل اعبل وصخرة عبلاء : أي بيضاء .

(٢٨)

فاختل حبة قلبه بمذلق
ريان من دم جوفه المتصبب

معنى اختل : دخل في خلل قلبه .

والمذلق : المتحدد من كل شيء .

وقد روي أن مروان بن الحكم هو الذي قتل طلحة بسهم رماه به .

وروي أنه تعمده ، لأنه كان أشد الناس على عثمان ، وهو ممن باشر الأمر وحضر يوم الدار .

وروي أن مروان في يوم الجمل، كان يرمي بسهامه في العسكرين معاً ويقول: من أصبت منهما فهو فتح ، لقلة دينه وتهمته للجميع .

(٢٩)

فى مارقين من الجماعة فارقوا
باب الهدى وحيا الربيع المخصب

المارقون : هم الذين خرجوا عن الجماعة ، والعادلون من عدل الى جور ، ومن قصد الى خبط . وأصله من قولهم : مرق السهم من الرمية يمرق مروقاً : اذا نفذ من الشق الآخر .

والحيا المقصور : هو الغيث ، والحيا أيضاً هو الاستحياء .

والمخصب : مأخوذ من الخصب ، وهو سعة العيش .

(٤٠)

خير البرية بعد احمد من له
منى الهوى والى بنيه تطربى

انما عنى أمير المؤمنين عليه السلام وان لم يسمه ، لكنه وصفه بصفة ليست الا له بقوله « انه خير البرية بعد احمد ».

وقد دلت الأدلة الواضحة على أن اميرالمؤمنين عليه السلام خير البشر بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وافضلهم واكملهم [١] ، ولو لم يدل على ذلك الا أنه استخلفه ونص عليه بالامامة فقد دلت العقول على أن امامة المفضول للفاضل لا تحسن .

ويدل أيضاً على ما ذكرناه قوله صلى الله عليه وآله « أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لانبي بعدي » [٢] ، ولا شبهة ولا خلاف في أن من جملة منازل

---

١) انظر الاحاديث فى ذلك فضائل الخمسة ٢/١٠٠ و١٠٣ .

٢) انظر مصادر حديث المنزلة في فضائل الخمسة ١/٣٤٧ .

هارون من موسى أنه كان أفضل قومه عنده وأعلاهم منزلة لديه ، وجب أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الصفة لأنها من جملة المنازل، ولم يخرجها الاستثناء .

وقد استقصينا الكلام في التفضيل وما يتصل به في مواضع من كتبنا، وخاصة في الكتاب المعروف « بالشافي » ، وليس هذا موضوع تقصيه .

ومعنى « والى بنيه تطربي » أي الى ولائهم ومحبتهم خفوفي واسراعي ، لأنا قد بينا فيما تقدم معنى الطرب .

(٣١)

امسى واصبح معصماً منى له
بهوى وحبل ولاية لم يقضب

معنى أمسى وأصبح معصماً : أي متمسكاً لازماً، لأنهم يقولون: أعصم الرجل بصاحبه اعصاماً اذا لزمه وتمسك به ، وأعصمت القربة بالعصام : اذا شددتها به

ومعنى لم يقضب : لم يقطع ، يقولون قضبت الشيء قضباً أي قطعته، ومنه قولهم : سيف قضاب. والقضب:الرطبة،وهي علف أهل العراق ، ويقال لموضعها: المقضبة ، ولعلهم انما سموها بذلك لأجل القطع .

(٣٢)

ونصيحة خلص الصفاء له بها
منى وشاهد نصرة لم يعزب

النصيحة معروفة، وهي المشورة بما فيه الحظ والصلاح. ونصح الشيء مثل نصع : اذا خاص ، ومنه سميت النصيحة . ويقولون أيضاً نصحت الثوب انصحه نصحاً اذا خطته . والناصح : الخياط . والنصاح : الخيط . ويقال نصحت الابل

نصوحاً: اذا رويت، وأنصحتها أناانصاحاً. والنصاحات : الجلود، واحدها نصاح.

ومعنى « لم يعزب » لم يفارقني. يقال: عزب عنه حلمه اذا فارقه، فهوعازب . وعزب عني الشيء عزوباً : اذا ذهب .

(٢٣)

ردت عليه الشمس لما فاته
وقت الصلاة وقد دنت للمغرب

هذا خبر عن رد الشمس له عليه السلام في حياة النبي صلى الله عليه وآله ، لأنه روى أن النبي «ص» كان نائماً ورأسه في حجر أميرالمؤمنين، فلما حان وقت صلاة العصر كره أن ينهض لأدائها فيزعج النبي «ص» من نومه ، فلما مضى وقتها وانتبه النبي دعا الله بردها عليه ، فردها وصلى الصلاة فيوقتها [1] .

فان قيل : هذا يقتضي أن يكون عليه‌السلام عاصياً بترك الصلاة .

قلنا : عن هذا جوابان :

(أحدهما) : أنه انما يكون عاصياً اذا ترك الصلاة بغير عذر، وازعاج النبي لاينكر أن يكون عذراً في ترك الصلاة .

فان قيل : الأعذار في ترك‌جميع أفعال الصلاة لاتكون الا بفقد العقل والتميز كالنوم والاغماء وما شاكلهما ، ولم يكن في تلك الحال بهذه الصفة، وأما الأعذار التي يكون معها العقل والتميز ثابتين كالزمانة والرباط والقيد والمرض الشديد واشتباك القتال ، فانما يكون عذراً فياستيفاء افعال الصلاة وليس بعذر في تركها أصلا ، فان كل معذور ممن ذكرنا يصليها على حسب طاقته ولو بالايماء .

---

١) انظر احاديث رد الشمس فى فضائل الخمسة ٢/ ١٣٥ .

قلنا : غير منكر أن يكون صلى مومياً وهو جالس لما تعذر عليه القيام اشفاقاً من انزعاج النبي « ص ». وعلى هذا تكون فائدة رد الشمس ليصلي مستوفياً لأفعال الصلاة ، وليكون أيضاً فضيلة له ولاله على عظم شأنه .

(والجواب الاخر) : ان الصلاة لم تنته بمعنى جميع وقتها ، وانما فاته مافيها من الفضيلة والمزية من أول وقتها ويقوي هذا شيئان :

أحدهما : الرواية الاخرى في الشعر «حين تفوته» ، لأن قوله «حين تفوت» صريح في أن الفوت لم يقع وانما قارب وكاد .

والشيء الاخر قوله «وقد دنت للمغرب» ، وهذا أيضاً يقتضي أنها لم تغرب وانما دنت وقاربت الغروب .

فان قيل : اذا كانت لم تنته فأي معنى للدعاء بردها حتى يصلي في الوقت وهو قد صلى فيه ؟

قلنا : الفائدة في ردها ليدرك فضيلة الصلاة في أول وقتها ، ثم ليكون ذلك دلالة على سمو محله وجلالة قدره في خرق العادة من أجله .

فان قيل : اذا كان النبي صلى الله عليه وآله هو الداعي بردها له ، فالعادة انما خرقت للنبي « ص » لا لغيره .

قلنا : اذا كان النبي انما دعا بردها لأجل أمير المؤمنين عليه السلام ليدرك ما فاته من فضل الصلاة ، فشرف انخراق العادة والفضيلة به منقسم بينهما .

فان قيل : كيف يصح رد الشمس وأصحاب الهيئة والفلك يقولون ان ذلك محال لا تناله قدرة ؟ وهبه كان جائزاً في مذهب أهل الاسلام ، أليس لو ردت الشمس من وقت الغروب الى وقت الزوال ، لكان يجب أن يعلم أهل المشرق والمغرب بذلك ؟ لأنها تبطيء بالطلوع على أهل البلاد ، فيطول ليلهم على وجه

خارق للعادة ، ويمتد من نهار قوم آخرين ما لم يكن ممتداً . ولا يجوز أن يخفى على أهل البلاد غروبها ثم عودها طالعة بعد الغروب ، وكانت الأخبار تنتشر بذلك، ويؤرخ هذا الحادث العظيم في التواريخ ، ويكون أهم وأعظم من الطوفان.

قلنا: قد دلت الأدلة الصحيحة الواضحة على أن الفلك وما فيه من شمس وقمر ونجوم غير متحرك بنفسه ، ولا بطبيعته على ما يهذي به القوم ، وان الله تعالى هو المحرك له والمصرف باختياره . ولقد استقصينا الحجج على ذلك في كثير من كتبنا ، وليس هذا موضع ذكره .

وأما علم المشرق والمغرب والسهل والجبل بذلك ـ على مامضى في السؤال ـ فغير واجب ، لأنا لا نحتاج الى القول بأنها ردت من وقت الغروب الى وقت الزوال ، أو ما يقاربه على ما مضى في السؤال ، بل نقول : ان وقت الفضل في صلاة العصر هو مايلي بلا فصل ، زمان أداء المصلي لفرض الظهر أربع ركعات عقيب الزوال، وكل زمان ـ وان قصروقل ـ يجاوزهذا الوقت، فذلك الوقت فائت. واذا ردت الشمس هذا القدر اليسير ، الذي يفرض أنه مقدار ما يؤدى فيه ركعة واحدة ، خفي على أهل الشرق والغرب ولم يشعربه ، بل هو مما يجوز أن يخفى على من حضر الحال، وشاهدها ان لم يمعن النظر فيها والتنقير عنها، فبطل السؤال على جواب الثاني المبني على فوت الفضيلة .

وأما الجواب الاخر المبني على أنها فاتت بغروبها للعذر الذي ذكرناه ، فالسؤال أيضاً باطل عنه ، لأنه ليس بين مغيب قرص الشمس في الزمان وبين مغيب بعضها وظهور بعض ، الا زمان يسير قليل يخفى فيه رجوع الشمس ، بعد مغيب جميع قرصها ، الى ظهور بعضه على كل قريب وبعيد . ولا يفطن اذا لم يعرف سبب ذلك بأنه على وجه خارق للعادة . ومن فطن بأن ضوء الشمس غاب

ثم غاب بعضه يجوز أن يكون ذلك لغيم أو حائل .

(٣٤)

حتى تبلج نورها في وقتها
للعصر ثم هوت هوى الكوكب

التبلج: مأخوذ من قولهم: بلج الصبح يبلج بلوجاً اذا أضاء . والبلجة : آخر الليل ، وجمعها بلج . والبلجة بالفتح : الحاجبان غير مقرونين ، يقال منه : رجل أبلج وامرأة بلجاء .

وأما « هوي الكوكب » فأراد به سقوط الكوكب وغيبوبته ، يقولون أهويت أهوي هوياً اذا سقطت الى أسفل،وكذلك الهوي في السير وهوالمضي فيه . ويقال: هوى من السقوط فهو هاو ، وهوى من العشق فهو هو ، وهوت الظبية تهوي : اذا فتحت فاها . ويقال : مضى هوي من الليل : أي ساعة .

(٣٥)

وعليه قد حبست ببابل مرة
اخرى وما حبست لخلق معرب

هذا البيت يتضمن الاخبار عن رد الشمس ببابل على أمير المؤمنين عليه السلام ، والرواية بذلك مشهورة ، وأنه « ع » لما فاته وقت صلاة العصر ردت الشمس له حتى صلاها في وقتها .

وخرق العادة هيهنا لا يمكن أن يقال ان نسبته الى غيره ، كما أمكن في أيام النبي صلى الله عليه وآله . والصحيح في فوت الصلاة هيهنا أحد الوجهين اللذين

تقدم ذكرهما في رد الشمس على عهد النبي « ص » ، وهو أن فضيلة أول الوقت فاتته بضرب من الشغل ، فردت الشمس ليدرك الفضيلة بالصلاة فى أول الوقت ، وقد بينا هذا الوجه في البيت الذي أوله « ردت عليه الشمس » ، وأبطلنا قول من يدعي أن ذلك يجب أن يقيم الخلق في الافاق معرفته حتى يدونوه ويؤرخوه .

وأما من ادعى ان الصلاة فاتته ـ بأن انقضى جميع وقتها ، اما لتشاغله بتعبيته عسكره ، أو لان بابل أرض خسف لا تجوز الصلاة عليها ـ فقد أبطل ، لأنالشغل بتعبية العسكر لا يكون عذراً فيفوت صلاة فريضة . وأما أرضالخسف فانها تكره الصلاة فيها مع الاختيار . فأما اذا لم يتمكن المصلي من الصلاة في غيرها وخاف فوت الوقت وجب أن يصلي فيها وتزول الكراهة .

وأما قوله « وعليه قد حبست ببابل » فالمراد بحبست : ردت ، وانما كره أن يعيد لفظة الرد لأنها قد تقدمت .

فان قيل : حبست بمعنى وقفت ، ومعناه يخالف معنى ردت .

قلنا : المعنيان ههنا واحد، لأن الشمس اذا ردت الى الموضع الذى تجاوزته فقد حبست عن المسير المعهود وقطع الأماكن المألوفة .

وأما المعرب : فهو الناطق المفصح بحجته ، يقال : أعرب فلان عن كذا : اذا أبان عنه .

(٣٦)

الا لاحمد اوله ولردها
ولحبسها تأويل امر معجب

الذي أعرفه وهو المشهور في رواية « الا ليوشع أوله »، فقد روي أنيوشع

عليه السلام ردت عليه الشمس .

وعلى الروايتين معاً سؤال ، وهو أن يقال : سواء قال « لاحمد » أم قال « ليوشع أوله » فان الرد عليهما جميعاً ، واذا ردت الشمس لكل واحد منهما لم يجز ادخال لفظة « أو » ، والواو أحق بالدخول ههنا ، لأنه يوجب الاشتراك والاجتماع ألاترى أنه لايجوز أن يقول قائل « جاءني زيد أوعمرو » وقد جاءا جميعاً ، فانما يقال ذلك اذا جاء أحدهما .

والجواب عن السؤال : ان الرواية اذا كانت « الا لأحمد أو له » فان دخول لفظة « أو » ههنا صحيح ، لأن رد الشمس في ايام النبي صلى الله عليه وآله يضيفه قوم اليه دون أمير المؤمنين عليه‌السلام ، وقد رأينا قوماً من المعتزلة الذين يذهبون الى أن العادات لاتنخرق الا للانبياء « ع » دون غيرهم ، ينصرون ويصححون رد الشمس في ايام النبي « ص » ويضيفونه الى النبوة ، فكأنه قال : ان الشمس قد حبست عليه ببابل ، وما حبست الا لاحمد « ص » ، على ما قاله قوم ، أو له على ماقاله آخرون ، لان رد الشمس في ايام النبي « ص » مختلف في جهة اضافته، فأدخل لفظة « أو » للشك لهذا السبب .

وأما الرواية اذا كانت بذكر يوشع فمعنى « أو » ههنا معنى الواو ، فكأنه قال: ليوشع وله ، كما قال الله تعالى : « فهي كالحجارة أو أشد قسوة » [1] على أحد التأويلات في الاية ، وكما قال الشاعر :

وقد زعمت ليلي بأني فاجر   لنفسي تقاها أو علي فجورها

١) سورة البقرة : ٧٤ .

(٤٧)

ولقد سرى في ما يسير بليلة
بعد العشاء بكربلا في موكب

أما السري : فهو سير الليل كله ، وهي مؤنثة ، لأنها جمع سرية وسروة ، يقولون : سريت الثوب عن الرجل وسروته : اذا كشفته ، أسريه سرياً ، وأسرو سرواً . والسرو : ما ارتفع من عن موضع السيل وانحدر عن غلظ الجبل ، ومنه قيل سروحمير .

ويقال : سرأت المرأة : كثر ولدها ، وسرأت الجرادة والضبة تسرأ سرءاً : اذا باضت ، وأسرأت : اذا حان ذلك منها ، وأول ما تكون الجرادة فهي سروة ، واذا تحرك فهو دبي قبل أن تنبت أجنحته ، ثم يكون غوغاء ، وبه سمي غوغاء الناس .

وكربلا : الموضع المعروف بنواحي الطفوف ، وهو الذي قتل فيه سيدنا أبوعبدالله الحسين بن علي عليه السلام .

ويشبه أن يكون اشتقاق هذا الاسم من الكراب الذي هو الحرث ، والكراب الحراث . ومن أمثال العرب « الكراب على البقر » ، ويقولون ما بها كراب : أي أحد .

(٤٨)

حتى الى متبتلا في قائم
القى قواعده بقاع مجدب

أراد بالمتبتل الراهب ، من البتل وهو القطع ، ومثله البت والبلت . وانما

سمي الراهب متبتلا لقطعه نفسه عن الناس وعن اللذات، ومنه امرأة متبتلة : كل جزء منها يقوم بنفسه في الحسن ، والعذراء البتول: التي انقطعت عن الأزواج ، وصدقة بتلة على هذا المعنى . واذا انفردت الفيلة واستغنت عن أمهاتها فهي البتول وأمها مبتل . وتبرت الشيء مثل بتلته وبتكته أيضاً : قطعته .

وأما « القائم » فهو صومعة الراهب .

والقـاع : الارض الحرة الطين التي لا حزونة فيها ولا انهباط ، والجمع : القيعان ، وقاعة الدار : ساحتها .

والقواعد : جمع قاعدة ، وهي أساس الجدار وكل ما يبنى .

ويجدب : مأخوذ من الجدب الذي هو ضد الخصب . والجدب : العيب ، يقال جدبه يجدبه فهو جادب اذا عابه ، قال ذو الرمة :

فيا لك من خد أسيل ومنطق   رخيم ومن خلق تعلل جادبه

وهذه قصة مشهورة قد جاءت الرواية بها ، فان أبا عبدالله البرقي روى عن شيوخه عمن خبرهم قال : خرجنا مع أمير المؤمنين نريد صفين ، فمررنا بكربلا فقال عليه السلام : أتدرون أين نحن ؟ ههنا مصرع الحسين وأصحابه . ثم سرنا يسيراً فانتهينا الى راهب في صومعة، وقد انقطع الناس من العطش ، فشكوا ذلك الى أمير المؤمنين عليه السلام ، وذلك لأنه أخذ بنا على طريق البر وترك الفرات عياناً . فدنا من الراهب فهتف به فأشرف من صومعته ، فقال : يا راهب هل قرب صومعتك من ماء ؟ قال : لا . فسار قليلا حتى نزل بموضع فيه رمل ، فأمر الناس فنزلوا ، فأمرهم أن يبحثوا عن ذلك الرمل ، فأصابوا تحت ذلك الرمل صخرة بيضاء ، فاقتلعها أمير المؤمنين عليه السلام بيده ونحاها فاذا تحتها ماء أرق من الزلال وأعذب من كل ماء، فشرب الناس وارتووا وحملوا منه، ورد الصخرة والرمل كما كان ،

قال : فسرنا قليلا وقد علم كل واحد من الناس مكان العين، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : بحقي عليكم الا رجعتم الى موضع العين فنظرتم هل تقفون عليها ؟ فرجع الناس يقفون الاثر الى موضع الرمل ، فبحثوا ذلك الرمل فلم يصيبوا العين فقالوا : يا أمير المؤمنين لا والله ما أصبناها ، ولا ندري أين هي .

قال: فأقبل الراهب فقال: أشهد يا أمير المؤمنين ان ابي أخبرني عن جدي ـ وكان من حواريي عيسى عليه السلام ـ أنه قال : ان تحت هذا الرمل عيناً من ماء أبرد من الثلج وأعذب من كل ماء عذب ، وانه لايقع عليها الا نبي أو وصي نبي ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله وانك وصي رسول الله وخليفته والمؤدي عنه ، وقد رأيت أن أصحبك في سفرك فيصيبني ما أصابك من خير وشر فقال له خيراً ودعا له بالخير، وقال عليه السلام : يا راهب الزمني وكن قريباً مني ففعل .

فلما كانت ليلة الهرير والتقى الجمعان واضطرب الناس فيما بينهم قتل الراهب فلما أصبح أمير المؤمنين عليه السلام قال لأصحابه : انهضوا بنا فادفنوا قتلاكم . وأقبل أمير المؤمنين يطلب الراهب حتى وجده فصلى عليه ودفنه بيده في لحده ، ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام : والله لكأني أنظر اليه والى زوجته والى منزلته ودرجته التي أكرمه الله بها [1].

وليس لأحد أن ينكر هذا الخبر من حيث كان خارقاً للعادة ولاحقاً بالمعجزات ولأنا قد بينا في مواضع من كتبنا وفي كتاب « الشافي في الامامة » خاصة ، ان المعجزات يجب ظهورها على أيدي الأئمة عليهم السلام ، وتكلمنا على شبه من امتنع من ذلك ، وليس هذا موضع الكلام فيه .

---

١) انظر هذه القصة مع تغيير يسير في بعض الخصوصيات بحار الانوار ٤١/ ٢٦٠ .

(٣٩)

ياتيه ليس بحيث يلقى عامراً
غير الوحوش وغير اصلع اشيب

معنى يأتيه[1]: أي يأتي الى الراهب ، وهو في الكلام الذي ذكر صفته .

ومعنى عامر : انه لايقيم فيه سوى الوحوش ، فان من أقام بمكان فكأنه قد عمره . ويمكن أن يكون أيضاً مأخوذاً من العمرة التي هي الزيارة .

والأصلع الأشيب : هو الراهب .

(٤٠)

في مدمج زلق اشم كأنه
حلقوم ابيض ضيق مستصعب

المدمج : هو الشيء المستور ، يقال أدمج الرجل ودمج بتشديد الميم : اذا دخل في الشيء فاستتر ، ومثله أدمقت الباب ادماقاً : اذا دخلته ، واندمق هو : اذا دخل .

وصومعة الراهب تستر من دخل فيها لا محالة .

والزلق : معروف ، وهو الذي لا يثبت على قدم .

والأشم : الطويل المشرف . . . الأبيض ههنا هو الطائر الكبير من طيور الماء ، والعرب تسمي الكبير من طيور الماء أبيض . وتشبيه الصومعة الطويلة بحلقوم طائر الماء من واقع التشبيه ، وانما جر لفظتي « ضيق » و « مستصعب » لأنه جعلها من وصف المدمج الزلق والأشم .

---

١) في بعض النسخ « بانيه ليس بحيث يلقى عامراً ».

(٤١)

قدنا فصاح به فأشرف ماثلا
كالنسر فوق شظية من مرقب

الماثل : المنتصب. ومثل أيضاً : لطا بالأرض، وهو من الاضداد . ومثل : غاب عنك ، ومثل الرجل مـن مرضه مثالة : اذا حسنت حاله ، ومثل بـه يمثل مثولا من المثلة . والمثال : الفراش ، وجمعه مثل .

والنسر : الجارح المشهور وانما شبه الراهب بالنسر لعلو سنه وطول عمره ومما يدل على أنه أراد به ما ذكرناه قول الشاعر :

يا نسر لقمان كم تعيش وكم تسحب ذيل الحياة يا لبد

والشظية : قطعة من الجبل منفردة .

والمرقب والمرقبة : المكان العالي .

(٤٢)

هل قرب قائلك الذى بوئته
ماء يصاب فقال ما من مشرب

معنى « بـوئته » أسكنته ، يقال بوأتـه المنزل تبويئاً واباءة واباوة : اجتمعت واياه ، والمباءة : المنزل . وباء الرجل بصاحبه بواء : اذا قتل به ، وباء بذنبه يبوء بواءاً : اذا اعترف به .

ونفيه أن يكون هنا مـاء بشرب نفي للماء ، لأنه اذا لـم يكن مشرب فلا ماء يشرب .

(٤٣)

الا بغاية فرسخين ومن لنا
بالماء بين نقا وقى سبسب

وقوله « الا بغاية فرسخين » من فصيح الكلام ووجيزه .

وقد مضى تفسير النقا .

والقى : الصحراء الواسعة .

والسبسب : الأرض القفر، والبسبس والجمع سباسب وبسابس، والسباسب: كل عيد للعرب سمي بهذا الاسم ، ومنه قول النابغة الذبياني :

* يحبون بالريحان يوم السباسب *

(٤٤)

فثنى الاعنة نحو وعث فاجتلى
ملساء تبرق كاللجين المذهب

الوعث: المكان اللين الذي لايسلك ، لأن الأخفاف تغيب فيه . الوعث من الرمل : كل لين سهل . وامرأة وعثة الأرداف : لينتها . ويقولون : نعوذ بالله من وعثاء السفر ، يعنون ألمه وتعبه .

ومعنى « اجتلى ملساء » أي نظر الى صخرة ملساء وانجلت لعينه .

ومعنى تبرق : تلمع ، ولم يرض بأن جعل لمعانها مثل لمعان اللجين ، الذي هو الفضة حتى جعله لجيناً مذهباً ، فهو أقوى لبريقه ولمعانه .

(٤٥)

قال اقلبوها انكم ان تقلبوا
تروَوا ولا تروون ان لم تقلب

(ش ١) يقال: انه عليه السلام أمرهم بقلبها وأخبرهم أن الماء تحتها، فاجتمعوا وحاولوا قلبها فلم يقدروا عليه ، فدنا منها فاقتلعها وحده ، فلما ارتووا أعادها .

(ش ٢) الهاء في « اقلبوها » راجعة الى الصخرة الملساء التي تقدم ذكرها.

ومعنى « ان تقلبوا تروَوا » انكم تجدون من الماء ما يرويكم اذا شربتم منه، فحذف هذا كله واختصره بلاغة وفصاحة .

(٤٦)

فاعصوصبوا فى قلبها فتمنعت
منهم تمنع صعبه لم تركب

معنى « اعصوصبوا » اجتمعوا على قلعها وصاروا عصبة واحدة ، ويقولون : اعصوصبت الابل وعصبت : اذا اجتمعت .

والصعبة : أراد بها ما لم يذلله الركوب والرياضة من فرس أوبكر ، فأقام الصفة مقام الموصوف .

وأحسن كل الاحسان في تشبيه تمنع الصخرة على تحركها وقلبها بتمنع الصعبة على راكبها .

(٤٧)

حتى اذا اعيتهم اهدى لها
كفاً متى تـرم المغالب تغلب

معنى أعيتهم : أي عجزوا عن قلعها ، وهـو الكلال . ويجوز أن يكون من قولهم « عي بالامر » اذا ضاق به ولم يجد عنه مخرجاً .

ومعنى « أهوى لها كفاً » مدالها كفاً ، من قولهم : أهويت اليه بالسيف وغيره اهواء ، وأهويت بالشيء اذا أوميت به، وأهويت به : اذا ألقيته في أهوية، وأهويته : ألقيته من الهواء .

وأراد بالمغالب : الرجل الغالب .

(٤٨)

فكأنها كـرة بكف حزور
عبل الذراع دحا بها في ملعب

الهاء في قوله « كأنها » ترجع الى الصخرة .

والكرة معروفة .

والحزور : الغلام المترعرع ، وجمعه حزاور وحزاورة .

والعبل : الغليظ الممتليء .

« ودحا » هاهنا بمعنى رمـى ، يقولون : دحا الفرس يدحو دحواً : اذا رمى بيده رمياً،لايرفع سنبكه عن الأرض ودحا أيضاً:بسط ، ومنه قوله تعالى «والأرض بعد ذلك دحاها » [1] أي بسطها .

---

١) سورة النازعات : ٣٠ .

ولقد أحسن في هذه المبالغة والارتقاء منهـا الى غاية بعد أخرى ، لأنه انما أراد خفة حمل الصخرة عليه ، وتسهيل تصريفها ، وتيسير تقليبها ، قال : فكأنها كرة وهذا كاف فيسرعة تحريكها وتصريفها ، ولم يرض بذلك حتىقال : بكف حزور، ولم يقنع حتى قال أيضاً : عبل الذراع ، ولم يرضه كل ذلك حتىقال : دحابها في ملعب .

(٤٩)

فسقاهم من تحتها متسلسلا
عذباً يزيد على الزلال الاعذب

انما أراد ماء متسلسلا ، فأقام الصفة مقام الماء . ويقال : مـاء سلسل وسلاسل أي سلس في الحلق ، وهو البارد . وكذلك السلسل والسلسبيل .

والزلال : الصافي ، ويقال هو البارد .

(٥٠)

حتى اذا شربوا جميعاً ردها
ومضى فخلت مكانها لم يقرب

ومعنىقوله «فخلت مكانها لم يقرب» أنه أعادها علىحالها الأولى ومكانها بعينه، من غيرتأثير يدل على أنها قلعت ثم أعيدت .

(٥١)

أعنى ابنفاطمة الوصى ومن يقل
فى فضله وفعاله لم يكذب

انما عني ابن فاطمة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأن أمه فاطمة بنت أسد بن

هاشم بن عبد مناف، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي، وروي أنها ولدته عليه السلام في الكعبة، ولا نظير له في هذه الفضيلة [١].

ولفاطمة بنت أسد فضائل وخصائص معروفة يطول ذكرها وشرحها.

وأمير المؤمنين «ع» وصي رسول الله، وقد أجمع الناس على اطلاق هذا الاسم له، ووصفه بهذا الوصف حتى صار علماً مشهوراً ووصفاً مميزاً، وان اختلف في معناه: فذهب قوم الى أنه وصيه في أهله خاصة وهم مخالفوا الشيعة. وذهبت الشيعة الى أنه وصيه بالأطلاق في أهله وأمته. والامر في تسميته بالوصي أشهر من أن يحتج فيه بخبر منقول، وان كانت الأخبار في ذلك متظاهرة متواترة [٢]. وروى الثقفي، عن مجول بن ابراهيم، عن عبد الرحمن الأسود اليشكري، عن محمد ابن ابي بكر، عن عبادة بن عبد الله، عن سلمان الفارسي قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله: من وصيك من أمتك؟ فانه لم يبعث نبي الا وكان له وصي من أمته؟ فقال رسول الله «ص»: لم يتبين لي بعد. فمكثت ماشاء الله لي أن امكث ودخلت المسجد، فناداني رسول الله «ص»، فقال: يا سلمان سألتني عن وصيي من أمتي؟ فهل تدري من كان وصي موسى من امته؟ فقلت: كان وصيه يوشع بن نون فتاه. فقال «ص»: فهل تدري لم كان أوصى اليه؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: أوصى اليه لأنه كان أعلم أمته بعده، ووصيي هو أعلم أمتي بعدي علي بن ابي طالب.

وخبر يوم الدار مشهور، فان النبي جمع بنى عبد المطلب فخطبهم وقال: أيكم يؤازرني على هذا الأمر يكن أخي ووصيي وخليفتي في أهلي ومنجز وعدي وقاضي ديني؟ فأحجم القوم جميعاً الا علياً عليه السلام، فقال له النبي «ص»: أنت

---

١) انظر حديث مولد علي عليه السلام بالكعبة فضائل الخمسة ٢١٤/١.

١) انظر في ذلك فضائل الخمسه ١١٣/٢ فما بعد.

أخي ووزيري وخليفتي في أهلي ؟ تنجز عدتي وتقضي ديني . وما روي في هذا المعنى أكثر من أن يحصى[1].

وأما قوله « في فضله وفعاله لم يكذب » ، فانما أراد المبالغة في وصف فضله بالكثرة والوفور ، فالقائل فيه والمعدد له صادق على كل حال ، لأنه بين تقصير واطالة هو في كليهما صادق من زيادة الفضل على كل حد ينتهي اليه .

(٥٢)

ليست ببالغة عشير عشير ما
قد كان اعطيه مقالة مطنب

روى الثقفي ، عن مجول بن ابراهيم ، عن عبدالرحمن بن الأسود اليشكري عن محمد بن أبي بكر ، عن عبادة بن عبدالله ، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من وصيك من أمتك ، فانه لم يبعث نبي الا وكان له وصي من أمته ؟ فقال : لم يتبين لي بعد . فمكثت ماشاءالله ان أمكث ودخلت المسجد ، فناداني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا سلمان ، سألتني عن وصيي من أمتي ، فهل تدري لما [ذا] أوصي اليه ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم . فقال : أوصي اليه لأنه كان أعلم أمته ، وأعلم أمتي من بعدي علي وهو وصيي . فأي فضلة أعظم من هذه ؟

وخبر يوم الدار مشهور : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمع بني عبد المطلب ثم خطبهم وقال : أيكم يؤازرني على هذا الامر ، ويكون أخي ووصيي وخليفتي في أهلي ، ينجز وعدي ، ويقضي ديني ، فأحجم القوم الا علياً عليه السلام

---

١) تاريخ الطبرى ٢/٣١٩ فما بعد .

فقال له النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم : انت أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي تنجز وعدي وتقضي ديني .

وقد روي في هذا المعنى من هذه الروايات ماهو أكثر من أن يحصى ، وذلك معنى قوله « ومـن يقل في فضله وفعاله لم يكذب » . أي فضله كثير يستغني به من يريد الاطالة في عد مناقبه وفضائله عن كذب فيها ، واستعارة لما ليس بصحيح ليكثر به القول ، فانه ـ وان أطال ـ عاجز أن يأتي على جميع فضائله ومناقبه عليه السلام.

فأمـا « المطنب » فهو المكثر من القول ، والاطناب : الاكثار من القول . والاطنابة : السير الذي على رأس الوتر . والاطنابة : أيضاً المظلة .

(٥٣ - ٥٤)

صهر الرسول وجاره في مسجد
طهر يطهره الرسول مطيب
سيان فيه عليه غير مذمم
ممشاه ان جنباً وان لم يجنب

أما مصاهرة أمير المؤمنين عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فانها من المناقب العظام والفضائل الجسام ، لأن الروايات وردت منظ هرة أن أبابكر خطب فاطمة عليها السلام الى أبيها فرده عنها وقال له : لم أؤمر بذلك ، ثم خطبها عمر فكان له من الجواب مثل ذلك ، فلما خطبها أمير المؤمنين قال « ص » : هي لك.

وروي في أخبار كثيرة مختلفة الألفاظ والطرق أن النبي « ص » قـال لأمير المؤمنين : مازوجتكها ، انما زوجكها الله من السماء .

وفي خبر آخر : ان فاطمة قالت : يا رسول الله زوجتني خفيف الشيء لا مال له . فقال «ص»: أما ترضين يابنيتي أن يكون زوجك أول المسلمين سلماً ، وأفضاهم

حلماً ، وأكثرهم علماً؟ فقالت عليها السلام: بلى رضيت بما رضي‌الله لي ورسوله.

وفي هذه المصاهرة أكبر دليل على طهارة باطن أميرالمؤمنين عليه السلام ، وان ظاهره في الخير والفضل كباطنه، فان من اختاره‌الله صهراً لنبيه « ص » وتخطى اليه الخلق أجمعين، لا يجوز أن يكون الا على الصفة التي ذكرناها ، لأن من يعلم الغيوب لا يختار الا على الباطن دون الظاهر لعلمه بالباطن . وانمـا كان اختيارنا مقصوراً على الظاهر لأنا لانعلم الباطن ولا طريق لنا الى علمه ، ولوعلمنا البواطن ما اخترنا الا عليها . وفي هذا الذي ذكرنا دليل واضح على عصمة أمير المؤمنين عليه السلام وطهارة باطنه ، وموافقة باطنه لظاهره .

وأما ذكر المسجد فانما عنى به مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فـان الله أحل لأمير المؤمنين عليه السلام ما خصه به وصرفه عمن‌سواه ، فروت أم‌سلمة قالت : خرج النبي الى المسجد فنادى بأعلى صوته ثلاثاً : ألا ان هـذا المسجد لايحل‌لجنب ولالحائض الالرسول الله «ص» وأزواجه وعلي وفاطمة بنت محمد .

وبرواية أخرى عـن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأعلى صوته : انه لايحل لأحد من‌هذه الأمة أن يجنب في هذاالمسجد غيري وغيرك .

وهذا معنى الاختصاص ، فـان النبي « ص » أمر بسد جميع أبواب أهله ، ومجانبة النافذة الى المسجد سوى باب أميرالمؤمنين‌عليه السلام، فشق هذا التمييز والتخصيص على من كان بابه مفتوحاً الى المسجد . الأخبار بذلك متظاهرة [1] .

وقد روي عن علي بن‌الحسين عن‌أبيه عليه السلام قال : سألت علياً عليه السلام فقلت: كيف ياأبتاه كان‌أمرك حيث سد رسول‌الله «ص» أبواب‌المسلمين وترك بابك

---

١) انظر مسند الامام احمد ١/٣٣١ .

مفتوحاً تمر في المسجد وأنت جنب؟ قال: قال رسول الله « ص » : ان موسى سأل ربه أن يطهر مسجده لهارون وذريته من بعده ففعل، واني سألت ربي ذلك ففعل .

أما الطيبة فقد تقدم أنها أحد أسماء المدينة ، وذكرنا ما روي من أسمائها .

فأما قوله « مطيب » فيحتمل أن يريد به الطهارة دون الذي يتطيب به، ولهذا يقولون تراب طيب، اذا كان طاهراً يصلح للوضوء. ويحتمل أيضاً أنه يريد بمطيب أي مضمخ بالطيب عبق بأرجه، فأما الكعبة وموضع الصلاة من المسجد فيختص بالتطيب .

وأراد بالبيت الذي أوله « وسيان فيه » انه أباح له أن يمشي في هذا المسجد مع الجنابة وفقدها . ومعنى سيان : أي مثلان .

والجنب : من الجنابة ، يقال: أجنب فلان : أي أصابته جنابة . وجنب فلان في بني فلان : أي نزل فيهم غريباً . وجمع جنب أجناب . والجنيبة : هي الناقة يعطيها الرجل لقوم يمتارون عليها له ، والجمع جنائب . والجناب: هو الرحل أو الفناء ، والجمع أجنبة. وجنب بنو فلان فهم مجنبون : اذا لم يكن في ابلهم لبن. وجنبت الابل بالتخفيف : اذا عطشت .

(٥٥ – ٥٨)

وسرى بمكة حين بات مبيته
ومضى بروعة خائف مترقب

خير البرية هارباً من شرها
بالليل مكتتماً ولم يستصحب

[الا سوى رجلا مخافة انه
خشي الاذاعة منه عند المهرب]

بالوا وبات على الفراش ملفعاً
فيرون ان محمداً لم يذهب

انما أراد بما أشار اليه مبيت أمير المؤمنين عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حين أراد الهجرة الى المدينة ، وان المشركين هموا به وتواعدوا على قصد مبيته والايقاع به، فكره صلى الله عليه وآله أن يخلي فراشه على مراعاة القوم له ، فيعلمون بخروجه فيتبعون أثره . فثبت علي عليه السلام في فراشه،فلما راعاه المشركون رأوا فيه شخصاً ثانياً، فلم يفطنوا بمسيره عليه السلام.

وصفته ليست بأقل من استسلام اسماعيل عليه السلام لأبيه حين رأى ان يذبحه . وهو أعظم ، لأن اسماعيل استسلم الى أب حدب مشفق مأمون ، وما جرت العادة باتلاف الآباء للابناء . وأمير المؤمنين استسلم بمبيته على فراش النبي الى أعداء حنقين مبغضين غير مأمونين، لاسيما وقد فوتهم بمبيته في الفراش غرضهم وحرمهم مقصودهم، وهم على من فعل ذلك أحنق ، كل ذلك في طاعة الله ورسوله.

والروعة : الخوف .

والترقب : الانتظار. ويقول : ومضى خير البرية هارباً من شرها بروعة خائف مترقب .

والتلفع : التلفف . واللفاع : ما تغطيت به من ثوب واستترت به .

(٥٩)

حتى اذا طلع الشميط كأنه
في الليل صفحة خد أدهم مغرب

الشميط : الصبح . وسمي بذلك لاختلاط الضوء بالظلمة ، وكذلك الذئب

الشميط الذي فيه سواد وبياض ورجـل أشمط : بين الشمط ، وامرأة شمطاء . وشماطيط الخيل : جماعات في تفرقة .

وصفحة الخد : جانبه . وانما أراد صفحة مـن خد فرس أدهم ، فاقتصر على ذكر الصفة عن الموصوف .

والفرس المغرب : وهو الذي ابيضت أشفار عينيه .

(٦٠)

ثاروا لاخذ أخي الفراش فصادفت
غير الذي طلبت أكف الخيب

قوله« ثاروا لأخذ أخي الفراش »لأنهم أرادوا أخذ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم يظنونه نائماً في الفراش ، فصادفوا علياً عليه السلام ، فهموا بقتله ، فثار اليهم فضاربهم بالسيف ونجا منهم ولم يقدروا عليه .

وقوله « أخو الفراش » كناية عن صاحب الفراش . وهذه قصة مشهورة وقد ذكرتها الرواة .

(٦١ – ٦٢)

[وتراجعوا لما رأوه وعاينوا
أسد الاله مجالداً في منهب]

فوقاه بادرة الحتوف بنفسه
حذراً عليه من العدو المجلب

البادرة : ما بدر من الشيء وبرز وجاء فـي أوله وظهر . والبادرة : اللحمة

التي تكون بين الكتف والعنق ، وجمعها بوادر [١] ، ويقال لها : البأدلة ، وجمعها بآدل ويقال بأدل بغيرهاه . قال الشاعر :

* ولا رهل لباته وبآدله *

والمجلب ، من قولهم أجلب الرجل : اذا سمعت له صياحاً وجلبة واستعانة ، يستصرخ بقوم ويستعين بهم على حرب . قال الله تعالى : « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » [٢] .

(٦٤)

حتى تغيب عنهم في مدخل
صلى الاله عليه من متغيب

قوله « حتى تغيب » يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله في مدخل : حين دخل الغار واستتر به .

والقصة مشهورة .

---

١) وفي الهامش : بادره مبادرة وبداراً وابتدره وبادر غيره اليه : عاجله .

وبدره الامر واليه : عجل اليه .

واستبق واستبقنا البدرى ،كجمزى : أي مبادرين .

والبادرة : ما يبدر من حدتك في الغضب من قول او فعل . . . والبديهة . قاموس .

٢) سورة الاسراء : ٦٤ .

(٦٤)

وجزاه خير جزاه مرسل امة
ادى رسالته ولـم يتهيب

جزاه : دعا له ، لما كان منه عليه السلام مـن الصبر على تجرع الغصص ، والصبر على مدافعة الأعداء ، والذب عن نبيه عليه السلام .

ويقال:ان المشركين لما فاتهم الظفر بالنبي صلى الله عليه وآله على الفراش، وعرفوا أنه قد فارق مكة ، طلبوه على سائر الطرق وقفوا أثره .

(٦٥)

قالوا اطلبوه فوجهوا من راكب
في مبتغاه وطالب لم يركب

معنى قوله « قالوا اطلبوه » أن المشركين لما فاتهم الظفر بـه على الفراش ، واخفق قصدهم ، واكدى سعيهم ، وعلموا أنـه قد فارقهم وفاتهم ، أمروا بطلبه . وضاق الشعر عن أن يقول : فوجهوا من طالب راكب وطالب لم يركب، فاقتصد على نفي الركوب عن الطالب الثاني ، اشعاراً بانه أراد بالطالب الأول الراكب .

(٦٦)

حتى اذا قصدوا لباب مغارة
الفوا عليه نسيج غزل العنكب

يقال: انهم لما قفوا أثر النبي صلي الله عليه وآله وسلم ، دلهم الأثر الي الغار،

وهي المغارة التي ذكرها في الشعر ، فأرسل الله العناكب فنسجت على باب الغار. فلما هموا أن يلجوا الغار ، قال بعضهم لبعض : لو كان دخل هاهنا أحد لأفسد نسج العنكبوت. فذلك قوله في البيت الذي يأتي« مافي المغار لطالب من مطلب »، فرجعوا وكان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم .

يقال للذكر من العناكب : العنكبوت . وذلك في لغة اهل اليمن .

(٦٧ - ٦٨)

صنع الاله له فقال فريقهم
ما في المغار لطالب من مطلب
ميلوا فصد هم المليك ومن يرد
عنه الدفاع مليكه لم يعطب

انما أراد أن القوم لما رأوا نسيج العنكبوت على باب الغار أشعرهم ذلك بأنه لم يلجه والج ، ولادخل اليه داخل ، فيئسوا من تفتيشه والدخول اليه .

وهذه احدى معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم التي تفوق الاحصاء .

(٦٩)

حتى اذا امن العيون رمت به
خوص الركاب الى مدينة يثرب

معنى « أمن العيون » انقطع عنه التتبع والطلب .

وخوص الركاب : من الخوص في العين ، والعين الخوصاء عندهم : التي ضاق مشقها . ويقال بل هي الغائرة . ويقال : قد خوصت تخوص خوصاً . وبئر خوصاء : اذا غار ماؤها.ونعجة خوصاء : وهي التي اسودت احدى عينيها وابيضت

الأخرى . ويقال : خوص رأسه أي وقع فيه الشيب ، وقيل اذا استوى بياض الشعر وسواده .

الركاب : الابل .

يثرب : من أسماء المدينة على ساكنها السلام ، وقد تقدم ذلك .

(٧٠)

فاحتل دار كرامة فى معشر
آووه فى سعة المحل الارحب

آووه : أنزلوه وأحلوه . يقولون أويت الى الموضع آوى أوياً . وأويت في الرحمة تأوية وأواية ، فانا آوي له .

المحل الأرحب : هو الواسع .

(٧١ - ٧٤)

وله بخيبر اذ دعاه لراية
ردت عليه هناك اكرم منقب

اذ جاء حاملها فاقبل متعبا
يهوى بها العدوى او كالمتعب

يهوى بها وفتى اليهود يشله
كالثور ولى من لواحق اكلب

(ش١) هذه قصة يوم خيبر، مشهورة . وروى ابوسعيدالخدري رحمه‌الله تعالى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسل عمرالى خيبرفانهزم هو ومن معه ، حتي جاء الي رسول الله صلى‌الله عليه وآله وسلم يجبن أصحابه ويجبنونه ، فبلغ

ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل مبلغ ، فبات ليلته مهموماً ، فلما أصبح خرج الى الناس ومعه الراية ، فقال : لأعطين الراية اليوم رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار ، فتعرض لها المهاجرون والانصار ، ثم قال : اين علي ؟ فقالوا : يا رسول الله هوأرمد ، فبعث اليه سلمان وأباذر ، فجاءا به وهو يقاد لا يقدر على فتح عينيه ، وقال : اللهم أذهب عنه الرمد والحر والبرد وانصره على عدوه فانه عبدك يحبك ويحب رسولك ، ثم دفع اليه الراية ، فقال حسان بن ثابت : يا رسول الله أتأذن لي أن أقول فيه شعراً ؟ فأذن له ، فقال :

وكان علي أرمد العين يبتغي	دواء فلما لم يحس مداويا
شفاه رسول الله منه بتفلة	فبورك مرقياً وبورك راقيا
وقال سأعطي الراية اليوم ماضياً	كمياً محباً للرسول مواليا
يحب الهي والرسول يحبه	به يفتح الله الحصون الاوابيا
فأصفى بها دون البرية كلها	علياً وسماه الوزير المؤاخيا

فقال : ان علياً عليه السلام لم يجد بعد ذلك أذى في عينيه ، ولا أذى حر ولا برد .

وفي رواية أخرى : ان الراية أعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر فعاد منهزماً يجبن أصحابه ويجبونه في ذلك اليوم، ثم أعطاها في اليوم الثاني عمر فرجع بها منهزماً يجبن اصحابه ويجبنونه وقد جرح في رجله ، فلما كان في اليوم الثالث دفعها الى علي عليه السلام وقال ما حكيناه في الرواية الاولى .

والذي قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في علي عليه السلام حين سلم الراية اليه يقتضي ظاهره التقديم والتعظيم في الصفات التي وصفه بها على من تقدمه ممن سلمت الراية اليهم أولا .

والمنقب: جمع منقبة ومناقب أيضاً. والمنقبة : طريق الخير والفضل. والمنقب والنقب أيضاً : الطريق الضيق .

والعدوي : عمر بن الخطاب ، لأنه من ولد عدي بن كعب بن لؤي بن غالب.

والهوي في السير : المضي بسرعة .

وأخو اليهود : مرحب لعنه الله .

والشل : الطرد، ورجل شلول ومشل: سواق وسريع .

واللواحق : التوابع المدركات، ويقال للفرس: لاحق الاقراب اذا لحق بطنه بظهره فهو من الضمر. والاقراب : الخواصر .

(ش ٢) أما قصة غزو خيبر فمشهورة مذكورة ، وكان فيها لأمير المؤمنين عليه السلام البلاء العظيم ، والعناء الجسيم .

وروى ابو سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسل عمر الى خيبر فانهزم ومن معه ، وقدم على رسول الله « ص » يجبن أصحابه ، فبلغ ذلك من رسول الله كل مبلغ ، فبات ليلته مهموماً، فلما أصبح خرج الى الناس ومعه الراية، فقال «ص»: لأعطين الراية اليوم رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار. فتعرض لها جميع المهاجرين والأنصار ، فقال: أين علي ؟ فقالوا : هو يا رسول الله أرمد ، فبعث اليه أبا ذر وسلمان ، فجاءا بـه يقاد ولا يقدر على فتح عينيه من الرمد ، فلما دنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تفل في عينيه وقال اللهم أذهب عنه الحر والبرد وانصره على عدوه، فانه عبدك يحبك ويحب رسولك غير مراء . ثم دفع اليه الراية ، فاستأذنه حسان بن ثابت أن يقول فيه شعراً فأذن له، فقـال :

وكان علي أرمد العين يبتغي دواء فلم يحسن هناك مداويا

شفاه رسول الله منه بتفلة فبورك مرقياً وبورك راقيا
وقال سأعطي الراية اليوم صارماً كمياً محباً للرسول مواليا
يحب النبي والرسول يحبه به يفتح الله الحصون الاوابيا
فأصفى بها دون البرية كلها علياً وسماه الوزير المؤاخيا

فيقال : ان أمير المؤمنين عليه السلام لم يجد بعد ذلك أذى حر ولا برد .

وفي رواية أخرى غير هذه : ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطى الراية أولا أبابكر، فانهزم وانهزم الناس معه . ثم بعث من غد عمر ، فرجع منهزماً وقد جرح في رجليه ، فحينئذ دفعها الى أمير المؤمنين عليه السلام وقال ما كتبناه في الرواية الاولى .

وهذه حالة تقتضي غاية التعظيم ونهاية التقديم . وفي الشيعة من جعل مخرج هذا الكلام دالا بظاهره على نفي الصفات المذكورة في أمير المؤمنين عليه السلام عمن تقدمه ، ويقولون : ان بعض الملوك لو أرسل الى غيره رسولا ففرط الرسول في رسالته وحرفها ، فغضب المرسل وأنكر فعله ، ثم قال : لأرسلن رسولا حقيقاً بحسن القيام بأداء رسالتي غير محرف لها ولامفرط فيها ، لكان ظاهر كلامه يقتضي انتفاء هذه الصفات عن الرسول الأول .

أما المنقب : فجمع منقبة ، وهي الفضيلة ، والطريقة الجميلة . ويقولون : فيه مناقب حسان ، الواحدة منقبة ، أي طريق من طرق الخير . والمنقبة أيضاً : الطريق الضيق يكون بين الدارين لايمكن أن يسلك . ويقال : منقب ومنقبة للطريق : اذا كان في موضع غليظ .

ومنقبة الفرس : حيث ينقب البيطار .

وقوله « يهوي بها العدوي » أراد عمر بن الخطاب ، لأن عمر من ولد عدي

ابن كعب بن لؤي بن غالب .

والهوي في السير : المضي فيه .

وفتى البهود : يعني مرحباً .

الشل : الطرد هاهنا ، ورجل شاول : مثل سواق سريع .

اللواحق من الكلاب[١] : يحتمل هاهنا الضوامر ، لأن الفرس يوصف بأنه لاحق اذا لحق بطنه بظهره من شدة الضمر . والوجه الاخر : أن يريد باللواحق: البوالغ المدركات لأوطارها .

(٧٤)

غضب النبى لها فأنبه بها
ودعا اخا ثقة لكهل منجب

معنى أنبه : وبخه وبكته . والهاء في « أنبه » راجعة الى عمر .

وعنى بقوله «أخا ثقة» أمير المؤمنين عليه السلام .

والكهل المنجب : هوأبوه، تقول العرب: أنجب الرجل انجاباً فهو منجب: اذا ولد ولداً نجيباً فاضلا .

(٧٥)

رجل كلا طرفيه من سام وما
حام له باب ولا بابى اب

ويروى أجلى، والأجلى الذي انحسر الشعر عن رأسه . يقولون : أجلح لمن

---

١) كذا ، ولعل الصحيح ان يقول : اللواحق من الفرس .

انحسر الشعر عن مقدم رأسه، فاذا زاد على ثلث الرأس فهوأجله، فاذا بلغ النصف فهو أجلى . ومنه قيل : أجلى عن المكان ، اذا انكشف عنه فهو مجل . فان عم الرأس فهو أصلع (١) .

فأما قوله «كلا طرفيه من سام » الى آخره : فانما يريد أن أمير المؤمنين عليه السلام ما ولده من كلا طرفيه حام ، لأن حاماً والد السودان وساماً والد البيضان .

وأم أمير المؤمنين عليه السلام فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهو أول هاشمي ولد في الاسلام بين هاشميين ، وليس في أمهاته وان بعدن وعلون من هو من ولد حام .

وعرض السيد في قوله هذا بعمر بن الخطاب ، لأن صهاك أمه حبشية ، وطئها عبد العزى بن رباح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب ، فجاءت بنفيل ابن عبدالعزى . هذا في رواية الهيثم بن عدي الطائي وأبي عبيدة معمر بن المثنى وغيره .

وقال قوم آخرون : ان صهاك أم الخطاب بن نفيل ، وخالف آخرون في أم الخطاب وذكروا أنها من فهم بن عيلان .

وأراد السيد فضل [نسب] أمير المؤمنين عليه السلام على نسب من ذكره .

فان قيل: في ولادة حام معرة ومنقصة ، فكيف تطرق هذا على كثير من أئمتكم عليهم السلام فقد ولدتهم الاماء ، من أبي الحسن موسى الى صاحب الزمان «ع»؟

قلنا : ما عير السيد بولادة الاماء ، وانما عير بولادة حام ، وليس كل أمة من ولد حام . وامهات من ذكر من أئمتنا عليهم السلام وان كن اماء ، فلسن من أولاد

---

١) لم نعرف مناسبة التعليقة هذه مع البيت المشروح .

حام . فأم أبي الحسن موسى « ع » بربرية ، وقيل انها أندلسية اسمها حميدة . وأم علي بن موسى « ع » مرسية تسمى الخيزران . وأم أبي جعفرعليه السلام قيل انها مرسية تسمى سكينة ، وقيل بربرية . وأمهات العسكريين « ع » والقائـم عجل الله فرجه ، مولدات لسن من ولد حام .

على أنه لو كان على أصعب الوجوه في أمهات بعض ائمتنا من ولد حام لما كان في ذلك نقص ولاعيب ، لأن السيد فضل أمير المؤمنين عليه السلام على من لم يلده حام ، وما ألحق نقصاً في الذين من ولد حام ، وليس كل فضيلة تتعلق بالدين يكون فقدها نقصاناً فيه . ونحن نعلم أن للحسن والحسين عليهما السلام الفضيلة العظمى ، لأن امهما فاطمة « ع » بنت رسول الله « ص »، وليس هذا لغيرهما من الأئمة . فان كان لا نقص يلحق بفقد هذه الفضيلة [. . .][1].

(٧٦)

من لا يفر ولا يرى في نجدة
الا وصارمه خضيب المضرب

النجدة : هي شدة البأس ، يقال : رجل نجد ونجد ، ورجال انجاد . وقد نجد الرجل من هذا المعنى . واستنجد بي فلان وأنجدته : استغاثني فأغثته . وقد نجد الرجل ينجد : اذا عرق من عمل أو كرب . ونجدت الرجل : اذا غلبته . والنجدة: القتال .

وقول السيد « ولا يرى في نجدة » يليق بالوجوه الثلاثة المذكورة في النجدة ، وأليقها بكلامه النجدة التي هي القتال .

١) كذا ، العبارة غير تامة والموضوع ناقص .

والصارم : السيف القاطع · وانما يكون صارمه خضيب المضرب لكثرة الضرب واسالة النجيع عليه .

(٧٧)

فمشى بها قبل اليهود مصمماً
يرجو الشهادة لا كمشى الانكب

الشهادة: خروج النفس في طاعة الله تعالى أوقربته اليه ، لأنه لايسمى من في معصيته ولا في طاعة معصيته شهيداً .

ووجدت بعض ثقات أهل اللغة يحكي في كتابه أن الشهيد هو الحي ، وأظنه ذهب الى قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون »[1] .

ومعنى يرجو الشهادة : أي الفوز برضوانها وثوابها ، والجزاء على تصبره وحسن احتسابه .

الأنكب : هو المايل المنحرف ، والنكب : هو أن يصيب البعير خلع فيمشي منحرفاً . وقد نكب نكباً فهو أنكب .

ويقولون نكب الرجل : اذا تحرك . ونكب عن الطريق تنكيباً : عدل عنه . ونكب نكوباً : مثله . ورجل ناكب ورجال ناكبون . ونكب الرجل : أصابته نكبة، أي نازلة . نكب : اذا أصيب منكبه . والنكب والنقب : واحد .

وريح نكباء : تقع بين ريحين ، وقد نكبت تنكب نكوباً ، وهي التي بين الصبا والدبور .

---

١) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٧٨)

تهتز فى يمنى يدى متعرض
للموت اروع فى الكريهة محرب

يريد : يمشي بها وهي تهتز ، يعني الراية .

الأروع : مأخوذ من الروع ، وهو الفزع. ويقال : ناقة روعاء : حديدة القلب ورجل أروع : اذا راعك بشجاعته وحسن منظره . وامرأة روعاء : تروع الناس بجمالها .

الكريهة : اسم الحرب .

المحرب : الحسن البلاء في الحرب . المحرب بفتح الميم : المنزل . المحراب بكسر الميم : الغرفة .

(٧٩)

فى فيلق فيه السوابغ والقنا
والبيض تلمع كالحريق الملهب

الفيلق : الداهية ، ومنه قيل للكتيبة « فيلق » .

السوابغ : الدروع ، وانما سميت بذلك لتمامها وطولها . وانما أراد بذلك الدروع السوابغ ، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه .

(٨٠)

والمشرفية فى الاكف كأنها
لمع البروق بعارض متحلب

المشرفية : السيوف . ويقال انها نسبت الى مشرف اسم رجل ، ويقال انها

منسوبة الى قرى من أرض العرب تدنو الى الريف ، وانما أراد : كأن لمعانها لمعان البروق .

العارض : السحاب ، وكل شيء بدا لك فهو عارض .

المتحلب : صفة السحاب الماطر .

(٨١)

وذوو البصاير فوق كل مقلص
نهد المراكل ذى سبيب سلهب

البصاير: جمع بصيرة، وهي الاستبصار واليقين. والبصيرة في غيرهذا الدفعة من الدم . ويقال هو ماكان منه على الأرض دون الجسد . والبصيرة : الترس ، وجمعه بصاير .

والقلص: مأخوذ من التميز في الثياب وغيرها . ووصف الفرس بذلك لتميز لحمه وارتفاعه عن قوائمه .

ونهد المراكل : غليظها ، ويريد بالمراكل القوائم . ويقال : نهد الرجل ينهد نهداً : اذا شخص . وانهدته : انهضته . ويقال للفرس : نهد ، لأنه ينهد في العدو وينهض .

ويقال النهد : الحسن الخلق التام الجسم .

وسمي نهد الجارية نهداً لبروزه وشخوصه عن صدرها .

ويقال : طرح فلان نهده مع القوم اذا أعانهم .

والسبيب والسبيبة : خصل الشعر ، وانما أراد هنا شعر الذنب .

وسلهب : أي طويل .

(٨٢)

حتى اذا دنت الاسنة منهم
ورموا قبالتهم سهام المقنب

المقنب : جماعة الخيل ليست بالقليلة ولا الكثيرة .

(٨٣)

شدوا عليه ليرجلوه فردهم
عنه بأسمر مستقيم الثعلب

ويروى : شدوا عليه لبزحلوه .

الشد: هو القصد والاعتماد، ويقولون شددت عليه لأضربه أي قصدته واعتمدته.

ومعنى يرجلوه : يحطونه عن فرسه ، ويجعلونه راجلا .

ومعنى لبزحلوه : أي ينحونه ، من قولهم زحل اذا تنحى ، ورجل زحل وامرأة زحلة : من التنحى عن الأمر قبيحاً كان أو حسناً .

ومعنى هوى : سقط .

والأسمر هاهنا : الرمح .

وثعلب الرمح : ما دخل منه في السنان . والثعلب أيضاً : مخرج الماء من الدار والحوض .

والثعلب والثعلبان : الذكر من الثعالب . والثعلبية : من عدو الخيل أشد من الخبب . والثعلبية : موضع معروف .

(٨٤ - ٨٦)

ومضى فاقبل مرحب متذمراً
بالسيف يخطر كالهزبر المغضب
فتخالسا مهج النفوس فاقلعا
عن جرى أحمر سائل من مرحب
فهوى بمختلف القنا متجدلا
ودم الجبين بخده المتترب

قوله « متذمراً » يحتمل أمرين :

أحدهما : من معنى الشجاعة ، ويقولون رجل ذمر وقوم أذمار ، وذمر وذمير وهو الشجاع المفكر ، كأنه أقبل متشجعاً مقدماً متهجماً .

والأمر الاخر : مأخوذ من الحث ، يقولون : ذمرته ذمراً اذا حثثته . فكأنه قال: أقبل حاثاً لنفسه .

وقوله « يخطر » مأخوذ من قولهم خطر البعير يخطر : اذا مشى فضرب بذنبه يميناً وشمالا . والخطر : السبق . ورجل له خطر : أي قدر ، والجمع أخطار .

الهزبر : الأسد .

المهجة : النفس .

وفي استدراك قوله « عن جري احمر سائل من مرحب » بلاغة ، لأنه لو أطلق لاحتمل أن يكون الدم السائل من كل واحد منهما .

ومعنى هوى : سقط .

ومختلف القنا : المواضع التي تختلف فيها جهات الطعن .

والمتجدل : الواقع على الارض ، مأخوذ من الجدالة ، وهي الأرض السهلة. وانما وصف الخد بأنه متترب بما علاه ولصق به من تراب .

(٨٧)

أجلى فوارسه واجلى رجله
عن مقعص بدمائه متخضب

معنى أجلى فوارسه وأجلى رجله : أي انكشف الفرسان والرجالة عن مقعص. والمقعص : المقتول. والقعص : القتل . يقال ضربه فأقعصه ، ومات قعصاً : اذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

(٨٨ - ٨٩)

فكان زوره العواكف حوله
من بين خامعة ونسر اهدب
شعث لغامظة دعوا لو ليمة
او ياسرون تخالسوا في منهب

(ش ١) زوره: الذين يزورونه، يريد النسور وما يجري مجراها من الجوارح التي تقع على القتلى .

الخوامع : الضباع لأنها تخمع أي تعرج، الواحدة خامعة .

وصفهم بأنهم عواكف لطول مقامهم عليه يأكلون لحمه .

ووصف النسر بأنه أهدب لتكاثف ريشه وشبوعه .

والأصل في الشعث: النقصان، ويقال رجل أشعث الرأس اذا كان بعيد [العهد] بالدهن .

اللغامظة : جمع لغموظ ، وهو الشره الحريص على الأكل ، ويقال للطفيلي لغموظ .

والياسرون : المقامرون ، مأخوذ من الميسر . والميسر: المقامرة ، والجمع ايسار .

والمنهب : موضع [النهب] .

(ش ٢) أراد بزوره النسور وما سواها من الجوارح التى تقع على القتلى وتتبع مطارحهم وتأكل لحومهم، ووصفها بأنها عواكف لطول مقامها على اعتراق عظامهم وانتهاك جلودهم ، لأن العكوف هو طول المقام .

والخامعة : الضبع لأنها تخمع ، والخمع والخماع : العرج . والخمع : الذئب وجمعه أخماع . وانما سمي اللص خمعاً تشبيهاً بالذئب في مكره ودهائه.

والنسر : جارح معروف ، وانما وصفه بأنه أهدب لسبوغ ريشه ولحوقه بالأرض .

والأصل في الشعث : النقصان ، ورجل أشعث الرأس : اذا كان بعيد العهد بالدهن .

اللغامصة : جمع لغموص ، وهو الشهوان الحريص على الأكل ، ويقال فيه لغموط ولغموظ . وهو أيضاً الطفيلي . وامرأة لغموطة كذلك .

والعلوس بالعين والغين : الأكول الحريص ، ورجل معلس : شديد الأكل .

والياسرون: مأخوذ من « الميسر » وهو القمار، وجمعه: أيسار. وكانوا ييسرون في الجاهلية على الجزور. والياسر: الجزار الذي يلي قمة الجزور. والياسر أيضاً: الذي يرمي القداح .

المنهب : موضع النهب .

(٩٠ - ٩١)

فاسأل فانك سوف تخبر عنهم
وعن ابن فاطمة الاغر الاغلب
وعن ابن عبدالله عمرو قبله
وعن الوليد وعن ابيه الصقعب

(ش ١) : يعني فاطمة بنت أسد .

الأغر: الأبيض الوجه، والغرة: الوجه، معروفة. يوصف بذلك الكريم النجيب .

الأغلب: الغليظ العنق، يوصف به الأسد. ووصف الرجل استعارة، فان الأغلب: الغليظ العنق مع قصر فيها .

وأراد بابن عبدالله : عمرو بن عبد ود بن مضر بن مالك بن حنبل بن عامر ابن لؤي بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن الياس بن مضر، ويقال له « فارس يليل » ، لأنه أقبل في ركب حتى اذا كانوا في يليل ، وهو واد قريب من بدر يدفع اليهم، خرجت عليهم بنو بكر بن عبدمناف ، فعرضت لهم تريد أخذهم، فقال لأصحابه : النجاة فاني سوف أشغلهم عن لحاقكم ، فمضوا ووقف في وجوه بني بكر يحاربهم حتى فات أصحابه ، ودفع القوم عنهم ، فعرف بذلك وسمي « فارس يليل » باسم ذلك المكان [١] .

فلما حضر الأحزاب المدينة أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحفر الخندق وكان قد أشار بحفره سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فلما رأته العرب قالوا: هذه مكيدة فارسية. واسم الموضع الذي حفر فيه الخندق « المذاد » ، فامتنعت العرب أن تعبره ، فلم يجزعه أحد منهم غير عمرو بن عبدود ، وضرار بن الخطاب الفهري

١) انظر تاج العروس ١٧٨/٨ ، معجم البلدان ٤٤١/٥ .

وعكرمة بن أبي جهل ، ونوفل بن عبدالله بن المغيرة ، وفي ذلك يقول الشاعر :

عمرو بـن ود كان أول فارس جزع المذاد وكان فارس يليل

ولما جزع عمرو الخندق [١] دعا الى البراز وقال :

ولقد بححت من الندا ء بجمعهم هل من مبارز ؟
ووقفت اذ جبن الشجا ع بموقف البطل المناجز
اني كذلك لم أزل متسرعاً نحو الهزاهز
ان الشجاعة والسما حة في الفتى خير الغرائز

فأحجم المسلمون عنه ولم يخرج اليه أحـد ، فدعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام وأمره بالخروج اليه ودفع اليه ذا الفقار. ويقال: ان جبرائيل عليه السلام هبط به ، ويقال : بل هبط بجريدة من الجنة فهزها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتحولت في يده سيفاً، فناوله علياً عليه السلام وأمر بالمبارزة، فلما توجه اليه قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : خرج الايمان سائره الى الكفر سائره .

فدعاه علي عليه السلام الى المنازلة وقال: ياعمرو انك كنت عاهدت الله لقريش ألا يدعوك رجل منهم الى خلتين الا أجبت الى احداهما. قال عمرو : أجل . قال: فاني أدعوك الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والى الاسلام . فقال : لا حاجة لي فيما دعوت اليه . قال: فاني أدعوك الى المبارزة والنزال ، وكان عمرو نديماً لأبي طالب ، فقال عمرو : يـا ابن أخي ما أحب أن أقتلك . فقال علي عليه السلام : فأنا أحب أن أقتلك .

فجاء عمرو ونزل عـن فرسه وعرقبه ، ثم أقبل الى علي عليه السلام فتجاولا ، ثم ثارت بينهما غبرة سترتهما عن أعين الناس ، فجزع النبي صلى الله عليه وآلـه

---

١) الارشاد للمفيد ص ٤٦ ، المناقب لابن شهراشوب ١/١٩٦ .

والمسلمون لذلك جزعاً شديداً ، فلم يشعروا الابالتكبير ، فعرفوا أن علياً عليهالسلام قتله . ثم انجلت الغبرة ، فاذا علي على صدره يجتز رأسه ، فكبر المسلمون وهزم الأحزاب بذلك فعرج جبريل وهو يقول : لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي.

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن بن أبي الحسين : ان علياً عليه السلام أقبل وفي يده رأس عمرو حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فدعا له المسلمون ، وقام اليه أبوبكر وعمر فقبلا رأسه .

وروي عن أبي بكر بن عياش أنه قال : ضرب علي ضربة ما كان في الاسلام أعز منها . يعني ضربته لعمرو بن عبدود ، وضربة عبدالرحمن بن ملجم لعنه الله . قال الشاعر :

جبريل نادى في الوغى والنقع ليس بمنجلي
والمسلمون بأسرهم حول النبي المرسل
والخيل تعثربالجماجم والوشيج الذبل
لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي

وقالت أم كلثوم بنت عمرو بن عبد ود ترثي أباها :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكي عليه آخر الأبد
لكن قاتله من لا يعاب بـه وكان يدعى قديماً بيضة البلد

وأما الوليد ـ الذي ذكره في البيت ـ فهو الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . وكان من قصته أنه خرج يوم بدر عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وشيبة بن ربيعة أخوه ، والوليد بن عتبة بن ربيعة يطلبون البراز ، فخرج اليهم عدتهم من الأنصار ، فناسبوهم فلما عرفوهم قالوا : لا حاجة لنا فيكم ، انما نريد اكفاءنا من قريش .

فأمر النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه أن يخرج الى عتبة ، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب أن يخرج الى شيبة بن ربيعة وعلي بن أبي طالب الى الوليد بن عتبة، فناسبوهم لما خرجوا اليهم فعرفوهم وقالوا: أكفاء كرام .

وكان الثلاثة مـن رؤساء قريش وسادات المشركين : فأما حمزة وعلي فقتلا مبارزيهما، وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين، ضرب كل منهما صاحبه ، وأدرك علي شيبة فقتله ، واحتمل عبيدة وقـد انقطعت رجله ، فجاؤا به الى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فمات بعد انصرافهم من بدر بالصفراء ، ودفن بها رضي الله عنه .

وقال أسيد بن أبي اياس بن زنيم بن صحبة بن عبيد بن عدي من الدبل يحرض المشركين من قريش على قتل علي عليه السلام ويغريهم به شعراً :

في كل مجمع غاية أخزاكم — جذع أبر على المذاكي القرح
لله دركم ولما تنكروا — قد ينكر الحر الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي افناكم — ذبحاً وقتلة قعصة لم يذبح
أعطوه خرجاً واتقوا بضريبة — فعل الذليل وبيعة لم تربح
اين الكهول واين كل دعامة — في المعضلات واين زين الأبطح
افناكم ضرباً وطعناً يفتري — بالسيف يعمل حده لم يصفح

وكان لـواء قريش في أحد مع طلحة بـن ابي طلحة فقتله علي عليه السلام ، فقال الحجاج بن علاط السلمي في ذلك :

لله أي مذبب عن حرمة — اعني ابن فاطمة المعم المخولا
جادت يداك له بعاجل طعنة — تركت طليحة للجبين مجدلا
وشددت شدة باسل فكشفتهم — بالحرب اذ يهوون اخول اخولا

وعللت سيفك بالدماء ولم تكن لترده ظمآن حتى ينهلا

وقالت هند بنت عتبة ترثي أباها :

أيا عين جودي بدمع سرب على خير خندف لم ينقلب
تداعى له غدوة رهطه بنو هاشم وبنو المطلب
يذيقونه حد أسيافهم ويعلونه بعدما قد شجب

وكان قتل هؤلاء النفر قبل أن يلتقي الجمعان ، ولما برز هؤلاء الثلاثة عليهم السلام الى الثلاثة المذكورين رفع النبي صلى الله عليه وآله يده الى الله تعالى يتضرع اليه ويسأله ما وعده من النصر ويقول : اللهم ان يظهروا على هذه العصابة يظهر الشرك ولا يتم لك دين . فلما قتلوا الثلاثة [1] نذرت هند لتأكل كبد حمزة عليه السلام .

شارك حمزة أيضاً في قتل عتبة بن ربيعة ، فلذلك ذكره السيد الحميري .

والصقعب : الطويل ، وصفه بذلك وليس هو هاهنا اسم رجل .

(ش ٢) يعني بابن فاطمة أمير المؤمنين عليه السلام ، لأن أمه فاطمة بنت أسد « رض » ، وقد تقدم ذلك .

والأغر : ذو الغرة البيضاء ، ويوصف بذلك الكريم النجيب .

والأغلب : الأول من الغلبة ، وهو أشبه هاهنا من أن يريد به القصير العنق ، لأن الغلباء من الأعناق القصيرة الغليظة.

---

١) في الهامش : الثلاثة الذين قتلوا هم : عتبة ، وولده الوليد ، واخوه شيبة . وأما حمزة فهو قتل في يوم أحد . ولعل الشارح أراد أنه حصل من هند ما ذكر في يوم أحد . والله أعلم .

وأراد بابن عبدالله : عمرو بن عبد ود ، وهوعمروبن عبد ابيقيس بن عبد ود ابن نضر بن مالك بن حنبل بن عامربن لؤي بن غالب بن فهربن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بـن الياس بن مضر ، ويقال له ذو الندى ، وهو فارس بليل ، وكان فارس قريش ، وكان يعد بألف فارس ، حتى اذا كانـوا بيليل عرضت لهم بنو بكر بـن عبد مناة بن كنانة في عدد ، فقال لأصحابه : امضوا فمضوا ، وقـام في وجوه أصحابه حتى منعهم من أن يصلوا اليهم فعرف بذلك . ويليل واد قريب من بدر ، يدفع الى بدر .

فلما حضر الأحزاب الخندق ، أمر النبي بحفـر الخندق ، وكان أشار بذلك سلمان الفارسي . فلما رأته العرب قالت : مكيدة فارسية ، وامتنعت العرب من أن تعبره ، فكان ممن طفره عمروبن عبد ود ، وضرار بن الخطاب الفهري ، وعكرمة ابن ابي جهل ، ونوفل بن عبدالله بن المغيرة . وفي ذلك يقول الشعراء :

عمروبن ودكان أولفارس جزع المذاد وكان فارس يليل

ولما عبر عمرو الخندق ، دعا الى البراز وقال :

ولقد بححت من الندا ء بجمعهم هل من مبارز ؟
ووقفت اذ جبن الشجا ع بموقف البطل المناجز
اني كذلك لـم أزل متسرعاً نحو الهزاهز
ان السماحة والشجا عة في الفتى خير الغرائز

فأحجم المسلمون عنه فلم يخرج اليه احد ، فقال النبي « ص » : أين علي ؟ فجاء اليه، فأمره بالخروج اليه ، ودفع اليه ذا الفقارسيفه، ويقال انه هبط به جبريل عليه السلام ، ويقال ان جبريل هبط بجريدة من الجنة فهزها النبي « ص » فتحولت سيفاً ، فسلمه الى علي عليه السلام وأمره بالبروز الى عمرو بـن ود ، فلما توجه اليـه قال النبي « ص » : خرج الاسلام سائره الي الكفر سائره ، فدعاه علي الي

أن ينازله وقال : ياعمرو انك كنت عاهدت الله لقريش أن لايدعوك رجل الى خلتين الا أخذت باحداهما . قال عمرو : أجل . قال عليه السلام : اني أدعوك الى الله ورسوله والاسلام . فقال : لا حاجة لي بذلك . قال : فاني أدعوك الى المبارزة ، وكان عمرو نديماً لأبي طالب ، فقال : يا بن أخي ما أحب أن أقتلك ، فقال له علي عليه‌السلام : ولكني والله أحب أن أقتلك .

فحمي عمرو فاقتحم عن فرسه وعرقبه ، ثم أقبل الى علي ، فتبارزا وتجاولا ، وثارت عليهما غبرة سترتهما عن العيون ، فجزع النبي « ص » والمسلمون لذلك ، فلم يرع المسلمين الا تكبيرة علي ، فعرف المسلمون أن علياً قتله ، وانجلت الغبرة فاذا علي على صدره يذبحه ، فكبر المسلمون وهزم الله المشركين ، وقال جبرائيل للنبي « ص » : يامحمد هذا المؤاساة ، وعرج الى السماء وهو يقول بصوت يسمع لا سيف الا ذوالفقار ولافتى الا علي .

وروى عمرو بن عبيد عن الحسن بن أبي‌الحسن ان أميرالمؤمنين عليه‌السلام لما قتل عمراً وحمل رأسه وألقاه بين يدي النبي « ص » ، قام أبوبكر وعمر فقبلا رأس أميرالمؤمنين عليه السلام .

وروى أبوبكر بن عياش أنه قال : لقد ضرب علي عليه السلام ضربة ما كان في الاسلام أعزمنها ، يعنى ضربة عمرو بن عبد ود . ولقد ضرب علي ضربة ما كان في الاسلام ضربة أشد منها على الاسلام ، يعني ضربة ابن ملجم لعنه الله .

وقال الشاعر في ذكر هذه القتلة :

جبريل نادى في الوغى   والنقع ليس بمنجلي
والمسلمون بأسرهم   حول النبي المرسل
والخيل تعثر بالجما   جم والوشيج الذبل

لا سيف الا ذو الفقا ر ولا فتى الا علي

وقالت كلثوم بنت عمرو بن عبد ود ترثي أباها :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكي عليه آخر الابد
لكن قاتله من لا يعاب به وكان يدعى قديماً بيضة البلد

وأما الوليد الذي ذكره في البيت ، فهو الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، وكان من قصته أنه خرج في يوم بدر عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وشيبة بن ربيعة أخوه ، والوليد بن عتبة بن ربيعة يطلبون البراز ، فخرج اليهم عدتهم من الأنصار فناسبوهم ، فلما عرفوهم قالوا : لا حاجة بنا اليكم ، انما نريد اكفاءنا من قريش . فأمر النبي «ص» حمزة بن عبدالمطلب فخرج الى عتبة بن ربيعة ، وعبيدة بن الحارث ابن عبد مناف فخرج الى شيبة ، وعلياً الى الوليد ، فناسبوهم فانتسبوا فقالوا : اكفاء كرام ، وكان هؤلاء من سادات قريش ومن رؤساء المشركين. فأما حمزة وعلي فما لبثا عتبة والوليد حتى قتلاهما. وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين ، فضرب عبيدة شيبة ، وضرب شيبة عبيدة فقطع رجله ، وأدرك علي شيبة فأجهز عليه وحملا عبيدة الى النبي « ص » فمات بعد انصرافهم من بدر . وتوفي عبيدة بن الحارث ودفن بالصفراء .

وقال أسيد بن أبي اياس بن زنيم بن صحبة بن عدي الدئلي يحرض المشركين من قريش على قتل علي عليه السلام ويغريهم به :

في كل مجمع غاية اخزاكم جذع ابر على المذاكي القرح
لله دركم ولما تنكروا قد ينكر الحر الكريم فيستحي
هذا ابن فاطمة الذي اوداكم قتلا وقتلة قعصة لم يذبح
اعطوه خرجاً واذنوا بضريبة فعل الذليل وبيعة لم تربح

اين الكهول واين كل دعامة ... في المعضلات واين زين الأبطح
افناكم ضرباً وطعناً يفتري ... بالسيف يعمل حده لم يصفح

وكان لواء المشركين في يوم أحد مع طلحة بن أبي طلحة ، فقتله علي بن أبي طالب « ع » ، فقال الحجاج بن علاط السلمي في ذلك :

لله أي مذبب عن حرمة ... أعني ابن فاطمة المعم المخولا
جادت يداك له بعاجل طعنة ... تركت طليحة للجبين مجدلا
وشددت شدة باسل فكشفتهم ... بالحرب اذ يهوون اخول اخولا
وعللت سيفك بالدماء ولم يكن ... لترده ظمآن حتى ينهلا

وقالت هند بنت عتبة ترثي أباها :

أياعين جودي بدمع سرب ... على خير خندف لم ينقلب
تداعى له رهطه غدوة ... بنو هاشم وبنو المطلب
يذيقونه حد أسيافهم ... تعل به بعدما قد شجب

وكان هؤلاء النفر قبل التقاء الجمعين لما برزوا ثلاثتهم وبرز اليهم حمزة وعلي وعبيدة ، رفع النبي « ص » يده الى الله تعالى يتضرع اليه ويسأله ما وعده من النصر ويقول : اللهم ان تظهر علي هذه العصابة ظهر الشرك ولم يقم لك دين .

ولما قتلوا نذرت هند لتأكل كبد حمزة ان قدرت عليه .

فان قيل : فلم ذكر السيد عتبة بن ربيعة أبا الوليد وانما قتله حمزة ؟

قلنا : الفخر لمن قتله حمزة لأمير المؤمنين « ع » ، لأن الجر والسنخ واحدة (كذا) والرافدة ومساعدة كل واحد منهما لصاحبه تسوغ هذه الاضافة .

فأما الصقعب : فهو الطويل من الرجال .

(٩٢ - ٩٣)

وبني قريظة يوم فرق جمعهم
من هاربين ومالهم من مهرب
وموائلين الى ازل ممنع
راسي القواعد مشمخر حوشب

الموائلون : اللاحقون ، يقال : وألت اليه اذا لجأت اليه ، واسم الموضع : الموئل ، ووأل يئل .

والأزل : هاهنا الذي تزل عنه الأقدام لطوله وكونه أملس وعراً .

والممنع : المتصعب .

والراسي : الثابت القواعد .

والمشمخر : العالي .

والحوشب : العظيم الجنبين ، وهو أيضاً العظيم البطن . والحوشب أيضاً : عظم الرسغ من الفرس ، [و] الحوشب : حشو الحافر ، والجمع من الكل : حواشب .

وانما عنى أن بني قريظة لما حاربهم ، هزمهم وهربوا منه ولجأوا الى حصن كان لهم ، وصفه هذه الصفات .

(٩٤)

رد الخيول عليهم فتحصنوا
من بعد ارعن جحفل متحزب

يقول : ان الله تعالى لما أخزاهم به وفل حدهم ، تحصنوا من بعد أن كانوا

مصحرين في كنيف .

والأرعن : الجيش الكثيف ، شبهه برعن الجبل ، وهو أنف يتقدم الجبل ، والجمع رعان ورعون .

والجحفل : الجيش الكبير العظيم .

والمتحزب : المتجمع ، والحزب : الجماعة ، والجمع أحزاب .

(٩٥)

ان الضباع متى تحس بنبأة
من صوت اشوس تقشعر وتهرب

شبههم بالضباع .

والنبأة : الصوت ، والنبأ الخبر .

والأشوس : الرافع رأسه تكبراً ، والجمع شوس .

وانما أراد به الأسد ، وقد استعاره .

(٩٦)

فدعوا ليمضي حكم احمد فيهم
حكم العزيز على الذليل المذنب

لما حضرهم علي عليه السلام ، حين تحصنوا منه ، قال لهم : لا أمان لكم الا أن تنزلوا على حكم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : ماننزل على حكمه.

(٩٧)

فرضوا بآخر كان اقرب منهم
دارا فمتوا بالجوار الاقرب

(ش١) قوله « فرضوابآخر » لأنهم قالوا لما اشتدبهم الأمر وتطاول حصارهم نحن نرضى بحكم سعد بن معاذ ، لانه كان جاراً لهم ، وظنوا أنه يحكم بمايوافقهم فحكموه ، فحكم فيهم أن يقتل مقاتليهم ، وأن يسبى ذراريهم ، وأن يقسم أموالهم فقال له رسول الله : لقد حكمت بحكم الله ورسوله فيهم . والقصة مشهورة وشرحها يطول .

(ش ٢) المت في النسب : أن تصل نفسك بغيرك ، تقول : متت اليه أمت متاً . والمت والمطل واحد ، الا أن المت يختص بالنسب . والمد : في الحبل وشبهه . والمط : في الخط . والمطل : في المواعيد .

(٩٨ - ١٠١)

قالوا الجوار من الكريم بمنزل
يجرى لديه كنسبة المتنسب

فقضى بما رضى الاله لهم به
بالحرب والقتل الملح المخرب

قتل الكهول وكل امردمنهم
وسبى عقايل بدناً كالربرب

وقضى عقارهم لكل مهاجر
دون الاولى نصروا ولم يتهيب

الملح : من الالحاح ، بمعنى المداومة للشيء والاستمرار عليه . والالحاح

والالحاف : واحد . والمعنى أنه لما استمر عليهم القتل وعمهم جميعهم ، أخلى ديارهم وأجلاهم منها ، فبقيت بعدهم عاطلة دارسة .

والعقايل : جمع عقيلة ، وهي الكريمة من النساء . وعقائل المال : كرائمه .

والبدن : جمع بادنة ، وهي الوافر لحم الجسم . ويقال أيضاً : بدنت المرأة وبدن الرجل تبديناً : أسن وهرم ، ورجل بدن : أي كبير السن .

والبدن : العظم ، وجمعه أبدان .

والبدن أيضاً : الدرع القصيرة ، وجمعها أبدان أيضاً .

والربرب : جماعة البقر ما كان دون العشرة . والصوار ما جاز .

وآخر في قوله « ورضوا بآخر كان أقرب » سعد بن معاذ الأنصاري ، لأن بني قريظة لما حاصرهم النبي صلى الله عليه وآله في حصنهم المدة المذكورة في الكتب وضاق ذرعهم وعرض عليهم رسول الله « ص » أن ينزلوا على حكمه فيهم فأبوا ذلك ورضوا على حكم سعد بن معاذ لأنه كان جاراً لهم لأنهم ظنوا أنه يحكم بمايوافقهم فحكموه، فحكم عليهمأن يقتل مقاتلتهم ويسبيذراريهم وأن يقسم أموالهم .فقال له النبي « ص » : لقد حكمت فيهم بحكم الله منفوق سبعة أرقعة . والقصة مشهورة يطول ذكرها .

(١٠٢ - ١٠٥)

وبخم اذ قال الاله بعزمة
قم يا محمد بالولاية فاخطب

وانصب أبا حسن لقومك انه
هاد وما بلغت ان لم تنصب

فدعاه ثم دعاهم فاقامه
لهم فبين مصدق ومكذب

جعل الولاية بعده لمهذب
ما كان يجعلها لغير مهذب

أما « خم » فهو الموضع الذي يضاف اليه الغدير في قولهم غدير خم ، وهو الذي عناه الكميت مرة بقوله :

ويوم الدوح دوح غدير خم أبان لـه الولاية لو أطيعا

ويجب أن يكون مشتقاً من الخم وهو الكنس ، يقولون خممت أخمه خماً اذا كنسته . والخمامة الكناسة، والمخمة: المكنسة ، ورجل مخموم النفس والقلب: نقيه من الدنس . وكان هذا الوضع لاشية فيه ولا أذى ولاقذى .

يروى أن النبي صلى الله عليه وآله لما عاد من حجة الوداع نزل بغدير خم، وأن قوله تعالى« يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته »[1] نزل في هذا الموضع .

ويروى أن في هذا الموضع نزل قوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً »[2]. وان النبي صلى الله عليه وآله نزل، واليوم شديد متوهج القيظ، فأمر « ص » بما تحت الشجر من الشوك فضم ، ثم قام وقال للناس مقبلا عليهم :

« ألست أولى بكم من أنفسكم » ؟

فلما أجابوه بالاعتراف والاقرار ، اخذ بضبعي أمير المؤمنين عليه السلام

---

١) سورة المائدة : ٦٧ .
٢) سورة المائدة : ٣ .

فرفعهما حتى نظر الناس الى بياض ابط رسول الله « ص » ، ثم قال :

« فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله »[١] .

واستأذن حسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول في ذكر الحال شعراً ، فأذن له ، فقال حسان : يـا معشر مشيخة قريش اسمعوا قولي بشهادة من رسول الله « ص » ، ثم قال :

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخم وأسمع بالرسول مناديا

يقول فمن مولاكم ووليكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

الهك مولانا وانت ولينا ... ولا تجدن منا لأمرك عاصيا

فقال له قم يا علي فانني ... رضيتك من بعدي اماماً وهاديا

وروي أن عمر بن الخطاب قال لأمير المؤمنين عليه السلام في الحال: بخ بخ لك يا علي ، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

وقد بينا في الكتاب « الشافي » خاصة وفي غيره من كتبنا عامة أن هذا الكلام نص عليه بالامامة وايجاب لفرض طاعته ، لأن النبي « ص » قرر أمته بفرض طاعته بما أوجبه له قوله عزوجل « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم »[٢] ، ولا خلاف بين أهل اللغة بأن الأولى هو الأخص الأحق بالشيء الذي قيل وهو أولى به ، فاذا قال صلى الله عليه وآله : (من كنت مولاه فعلي مولاه) ، فقد أتى من لفظة مولى بما يحتمل معنى أولى، وان كان محتملا لغيره من الناصر والحليف والمعتق

---

١) أوفى مصدر يراجع للاطلاع على أسانيد حديث الغدير ومداليل ألفاظه كتاب الغدير في الجزء الاول منه .

٢) سورة الاحزاب : ٦ .

وابن العم وغير ذلك مما قد سطر وذكر ، فـلا بد أن يكون انما أراد من اللفظة المحتملة ـ وهي لفظة مولى ـ معنى الأولى الذي تقدم التصريح به ، لأن من شأن أهل اللسان اذا عطفوا محتملا على صريح لم يجز أن يريدوا بالمحتمل الا معنى الصريح . ألا ترى أن من له عبيد كثيرون اذا أقبل على جماعة قال : ألستم عارفين بعبدي زيد ؟ ثم قال عاطفاً على الكلام : فاشهدوا أن عبدى حر لوجه الله تعالى، لم يجز أن يريد بلفظة عبدي الثانية ، وهي مشتركة بين جماعة عبيده الا العبد الاول الذي تقدم التصريح باسمه ، من أراد غيره كان سفيهاً ملغزاً معمياً .

وبينا بحيث أشرنا اليه مايرد على هذا الكلام من الأسئلة المختلفة، واستقصينا الجواب عنها وأزلنا كل شبهة معترضة فيها ، وليس هذا موضع استيفاء ذلك ، ومن أراد تناوله فمن مواضعه .

وأما قول السيد« اذ قال الاله بعزمة »والعزم لايجوز على الله تعالى ، لأنه اسم لارادة متقدمة على الفعل ، فأرادة التقديم لفعله لاتتقدمه ، لأن تقدمها عيب ، فالوجه فيه أن السيد انما أراد ههنا القطع بالأمر والثبات له والايجاب ، لأنهم يقولون : عزمت عليك أن تفعل كذا و كذا أي ألزمتك وأوجبت عليك . والارادة اذا تناولت فعل الغير لاتسمى عزمة ، وتسمى الواجبات عزائم ، ولايسمون المندوبات بذلك ولهذا قالوا : عزائم السجود في القرآن ، وهي السور التي فيها سجود واجب ، فما أخطأ السيد في ذكر العزمة ولا وضعها في غير موضعها .

فان قيل : فان السيد ذكر في شعره الولاية ، وهي الولاء والمحبة والنصرة ، ولم يذكر الامامة ، وقد كان قادراً على أن يقول : قـم يا محمد بالامامة واخطب . فكيف عدل عن لفظ الامامة الى لفظ الولاية ؟

قلنا : لافرق هنا بين اللفظتين ، وانما أراد بالولايـة الخلافة وتولي الأمـر

الموجب لفرض الطاعة . ألا ترون أن الخليفة اذا أمر أميراً وفوض اليه تدبير أمره قيل : انه قد ولاه ولاية ، من حيث جعل لـه طاعة على أهل ولايته ، وكـل رتبة تقتضي طاعة فهي تسمى ولاية .

وانما اشتق السيد الاسم الذي ذكره من لفظ النبي « ص » وهو « المولى » ولم يعتمد الاشتقاق مـن المعنى ، والمعنى فـي كلا اللفظتين ثابت . وقد صرح بمعنى الامامة دون الموالاة التي هي النصرة في قوله : وانصب ابا حسن لقومك الى آخره ، وهذا اللفظ لايليق الا بالامامة والخلافة دون المحبة والنصرة .

وقولـه « جعل الولاية لمهذب » صريح فـي الامامة ، لأن الامامة هي التي جعلت له بعده ، والمحبة والنصرة حاصلتان في الحال وغير مختصتين بعد الوفاة.

فان قيل : فأي معنى لقوله « فبين مصدق ومكذب » ؟

قلنا : انما أراد أن النبي لما تأهب للكلام ودعـا أمير المؤمنين وأخذ بيده ، تصرفت الظنون واختلفت الأفكار فيما يريـد أن يظهره ، فبين تصديـق وتكذيب وتصعيد وتصويب . وانما أراد أنهم كانـوا كذلك قبل استماع الكلام ووقـوع التصريح المزيل لكل شبهة الدافع لكل ريبة ، ولله دره واجادته في هذا .

(١٠٦ - ١١٠)

[والله أهبط جبرائيل قائلا (كذا)
لرسوله فانظر لذلك واعجب] (١

ما ان يبغلها سواك او امرىء
هو منك اصلا وهو غير مجنب

---

١) هذا البيت ورد في بعض النسخ .

هذى مناقب لاترام متى يرد
ساع تناول بعضها يتذبذب

انى ادين بحب آل محمد
ديناً ومن يحببهم يستوجب

لهم المودة والولاء ومن يرد
بدلا بآل محمد لا يحبب

فقد مضى تفسير المناقب .

فأما التذبذب : فهو الاضطراب والتردد والتحيز ، وذبذب الرجل لسانه وذكره . وانما أراد أن من رام تناول بعض هذه المناقب قصر عنها ولم ينلها .

فأما قوله « انا ندين بحب آل محمد » فمعناه : انا نطيع الله بحبهم ، ونتقرب اليه بذلك .

والدين : العادة ، والديدن : العادة ، والدين : الحساب ، والدين : الذل ، والدين : الطاعة ، والدين : الجزاء ، ويقولون : دين الرجل اذا ملك وقلد .

وانما أراد من تولى آل محمد « ص » يستحق منا الولاء والمودة ، ومن يتدين بغيرهم لا نحبه .

(١١١ - ١١٢)

ومتى يمت يرد الجحيم ولا يرد
حوض الرسول وان يرده يضرب

ضرب المحاذر ان تعر ركابه
بالسوط سالفة البعير الاجرب

الجحيم : اسم من أسماء النار ، وجحمت النار : أوقدتها ، وجحمت النار عظمت .

الجحام: داء يصيب الكلب يكون منه بين عينيه، والجحمتان عند أهل اليمن: العينـان .

العر : الجرب ، وقد عرت الابل تعر فهي عارة .

السالفة : صفحة العنق الى الخد ، والسالف : الذي يتقدم القوم فيستقي الماء وجمعه سلاف ، والسالف : الماضي .

وانما أراد السيد رحمه‌الله أن عدو آل محمد « ص » ومن لم يتولهم ويتحقق بهم يرد الجحيم لأنها منزله ودار مقامه ، واذا ورد حوض رسول‌الله « ص » الذي يشرب منه يوم القيامة ، امارة السلامة والكرامة ودخول الجنة ، صد عنه وضرب كما يضرب المشفق ، من أن تجرب مطيته وركابه ، سالفة البعير الأجرب ، منعاًله عن الاختلاط بها والورود معها فيجربها ويعديها .

(١١٤ - ١١٥)

وكان قلبي حين يذكر احمداً
ووصي احمد نيط من ذي مخلب

بذرى القوادم من جناح مصعد
في الجو او بذرى جناح مصوب

حتى يكاد من النزاع اليهما
يفري الحجاب عن الضلوع الصلب

(ش ١) قوله نيط أي علق، ونياط القلب: معلقه ، وكذلك نياط القوس .

والذرى : جمع ذروة ، وذروة كل شيء : أعلاه، وذرى الرجل : ناحيته .

والقوادم: جمع قادمة . وقوادم الجناح أربع ريشات مقدمة، ويليهن المناكب وهن أربع ريشات ، ويليهن الأباهر وهن أربع ريشات ، ثم الخوافي وهن أربع

فاذا جمعت كن عشربن ريشة نسقاً من أول الجناح الى آخره .

والمصعد : الذي يعلو الى جهة السماء .

والمصوب : الذى يهوى سفلا الى جهة الأرض .

والحجاب : حجاب القلب .

الصلب : الحجارة ، والصلب: الموضع الغليظ، ويقال للظهر صلب وصلب .

(ش ٢) وانما أراد بوصي أحمد « ص » أمير المؤمنين « ع » ، لأنه وصيه على أمته وعلى أهله . وقد دللنا على ذلك من قبل .

ومعنى نيط : أي علق، ونياط القلب : معلقه ، وكذلك نياط القوس ، والنياط حبل مستبطن الصلب ، ونياط الأرض : اتصال بعضها ببعض .

وأراد بذي مخلب : جارحاً ذا مخلب .

والذرى : جمع ذروة ، وذروته : أعلاه . وذرى الرجل : ناحيته .

والقوادم : جمع قادمة ، وقوادم الجناح : أربع ريشات في مقدمته ، وتليهن المناكب وهي أربع ، وتليهن الأباهر وهي أربع أيضاً ، ثم الخوافي وهي أربع ثم الكلاه وهي أربع ، فاذا جمعن كن عشرين ريشة من أول الجناح الى آخره .

والمصعد : هو الذي يصعد علواً الى جهة السماء .

والمصوب : هو الذي يهوي الى جهة الأرض سفلا .

ومعنى هذا الكلام أن قلبي عند ذكرهما ، مسرة بهما واشتياقاً اليهما ، ينزو ويعلم ، ويجيء ويذهب ، ارتياحاً ونزاعاً .

والفري : هو القطع .

والحجاب : يعني به حجاب القلب .

والصلب والصلبة : حجارة المسن ، الواحدة صلبة . والصلب : الظهر .

والصلب : الحسب ، والصلب : الموضع الغليظ المنقاد ، ويقال للظهر : صلب . والصلب مثل النحل والنحل والهدب والهدب .

(١١٦ - ١١٧)

هبة وما يهب الاله لعبده
يزدد ومهما لا يهب لايوهب
يمحو ويثبت ما يشاء وعنده
علم الكتاب وعلم ما لم يكتب

الهبة : معروفة ، وهي العطية على سبيل التفضل ، والقبض شرط في وقوع التمليك فيها. ومعنى «مايهب الاله لعبده يزدد» أنه يتضاعف وينمو ليركته وطهارته.

فان قيل : فأي معنى لقوله « ومهما لايهب » ، ومعلوم أن غيره تعالى قد يهب ويسمى ما يهب موهوباً ؟

قلنا : معنى هذا الكلام أن هبة غيره لاتتم ولايحصل الانتفاع بها الا بعد تقدير هبة الله تعالى، لأن الواهب منا لايتم كونه واهباً الابما وهبه‌الله تعالى له من الاحياء والاقدار والتمكن ، والموهوب له لاينتفع بالهبة الا بما وهبه‌الله تعالى من الحياة والشهوة والقدرة ، والموهوب نفسه لايتم الانتفاع به الابما خلقه الله فيه من أجناس المدركات كالطعوم والأراييح وغيرهما ، فهبته تعالى أصل لكل هبة كما أن نعمة‌الله أصل لكل نعمة .

ووجه آخر : ان الهبة انما يقع التملك بها اما عقلا أو شرعاً بحسب ما حكم الله تعالى به ودل عليه،وما خرج عن تلك الشروط والأحكام لايكون هبة ولايوصف بأنه واهب ، وما لم يتفضل علينا باعلامنا انه هبة لايسمي بذلك ، ولايكون لـه تأثير ولا حكم .

ومعنى « يمحو ويثبت ما يشاء » أنه يغير أحكام الشريعة بحسب ما يعلمه من المصالح لعباده ، فيبيحه مالم يكن مفسدة ، ويحظره اذا تغيرت حاله وصارمفسدة ويوجبه اذا كان مصلحة ، ويسقط وجوبه اذا خرج عن كونه مصلحة . وسمي بذلك محواً واثباتاً من حيث التبديل والتغيير والتطبب والتشبيه بمن كتب شيئاً ثم محاه وأزال رسمه .

ويجوز أيضاً أن يراد بالمحو والاثبات الحقيقة لا التسمية ، لما وردت به الرواية من اثبات ما يكون في اللوح المحفوظ ، فاذا تعبد تعالى بشرع كتبه واذا نسخه محاه .

وأما قوله « وعنده علم الكتاب وعلم مالم يكتب » ، فيحتمل أمرين : أحدهما أن يريد بالكتاب ما كتبه في اللوح المحفوظ ، والوجه الاخر أن يريد بالكتاب القرآن. ولا شبهة في أنه تعالى يعلم مازاد على ذلك كله وما لايتناهى من المعلومات.

* * *

وجدت في نسخة السيد رضي الله عنه ملحقاً ملخصه :

واذا كنا قد قضينا من تفسير هذه القصيدة الوطر ، وبلغنا الغرض ، فالواجب القطع ههنا، وانما لم نفرع التفسير ونتتبعه، ونفصل وجوه الكلام كلها ونقسمها، لأن هذا الخبر غير متناه، ويحوجنا ان قصدناه واستوفيناه الى ذكر جميع أحكام العربية، وجميع اللغة المروية في الكلام وفروعه ، وخاصة في الامامة وما يرجع اليها ويتعلق بها ، وهذا غرض لا تتسع له الطوامير ، ولا تنحصر فيه الأساطير .

وفي الجمل التي ذكرناها كفاية في معرفة مراد الشاعر ، وما لابد من معرفته من معاني كلامه ، وما تعدى ذلك فهي اطالة تمل وتضجر . غير أنا آثرنا أن نختم هذه القصيدة بشيء من أخبار السيد رحمه الله تعالى ، ومحاسنه وفضائله ، لتكمل

الفائدة وتوفر ، ونحن لذلك فاعلون :

اسم السيد اسماعيل ، وكنيته أبوهاشم بن محمد بن يزيد بن وداع الحميرى وأمه من حمير ، تزوج بها أبوه لأنه كان نازلا فيهم ، وأم هذه المرأة أو جدته بنت يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الشاعر المعروف، وليس لابن مفرغ هذا عقب من ولد ذكر، وقد غلط الاصمعي في نسبة السيد الى يزيد بن مفرغ من جهة أبيه بنسبه.

قال الصولي : والسيد لقب به لذكاء كان فيه ، فقيل سيكون سيداً ، فعلق هذا اللقب به . بذلك أخبرنا على سبيل الاجازة أبوعبيدالله محمد بن عمران بن موسى المرزباني عن أشياخه ، واخبرنا المرزباني قال : أخبرنا محمد بن يزيد النحوى قال : حدثني من سأل العباسة بنت السيد بن محمد عن مولد أبيها ، قالت : في سنة خمس ومائة ، ومات في سنة ثلاث وسبعين ومائة .

وأخبرنا أبوعبيدالله المرزباني قال : حدثني أبوعبدالله الحكمي قال :حدثني يموت بن المزرع قال : حدثني محمد بن حميد الشكري قال : سئل أبوعمرو : من اشعر المولدين ؟ قال : السيد وبشار .

وأخبرنا المرزباني قال : أخبرني محمد بن يحيى قال : أخبرنا المغيرة بن بحر قال : أخبرنا الحسين بن الضحاك قال : ذاكرني مروان بن أبي حفصة أمر السيد بعد موت السيد وان أحفظ لشعر بشار والسيد ، فأنشدته قصيدته المذهبة التي منها :

أين التطرب بالولاء وبالهوى ءألى الكواذب من بروق الخلب
أ الى أمية ام الى شيع التي جاءت على الجمل الخدب الشوقب

حتى أتيت على آخرها ، فقال مروان :

ما سمعت قط شعراً أفصح وأغزر معاني وأبعد ما يرجع في الظن وفي اللفظ (كذا) ولا احسن من هذا الشعر .

(الشهاب)

(فى الشيب والشباب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جزيل عطائه وجميل آلائه ، وله الشكر على مامنح من هدايه ونفح من كفايه ، وصلى الله على سيد البشر محمد وآله الغرر وكرم وسلم .

سألت وفقك الله أن أجمع لك من مختار الشعر في الشيب ما تناله القدرة ، وتنتهي اليه الخبرة ، اذ كان الناس قد جمعوا في ذلك الكثير من غث وسمين وكريم وهجين ، فأنا أجيب مسألتك وأنجح طلبتك .

واعلم أن الاغراق في وصف الشيب والاكثار في معانيه واستيفاء القول فيه لا يكاد يوجد في الشعر القديم ، وربما ورد لهم فيه الفقرة فكانت مما لانظير له ، وانما أطنب في أوصافه واستخراج دفائنه والولوج الى شعابه الشعراء المحدثون ، وان كان الاحسان المطبق للمفصل قليلا والجيد من كل شيء قدراً معدوداً ، وللفحلين المبرزين الطائيين ابي تمام وأبي عبادة البحتري في هذا المعنى ما يغبر في الوجوه سبقاً ، لا سيما البحتري فانه مولع بالقول في الشيب لهج به معيد مبدىء لأوصافه، ولاتكاد أكثر قصائده تخلو من المام به وتعرض له ، فقد زاد فيه على كل متقدم لزمانه اكثاراً وتجويداً وتحقيقاً وتدقيقاً، فأني أخرجت له في الشيب مائة وأربعين

بيتاً لكنها مملوءة احساناً وتجويداً .

ووجدت في شعر أخي رضي الله عنـه وأرضاه وكرم مثواه في الشيب شيئاً كثيراً في غاية الجودة والبراعة، ورأيت أيضاً بعد ذكر ماللطائيين ماذكره كله لكثرة الاحسان فيه والغوص الى لطيف المعاني ، وقد أخرجت من ديوانه مائتين ونيفاً وسبعين بيتاً ، من تأملها وجد الحسن فيه غزيراً والتجويد كثيراً .

وأنا أضم الى ذلك وأختمه به ما أخرجه من ديوان شعري في هذا المعنى ، فانه ينيف على الثلاثمائة بيت الى وقتنا هذا ، وهو ذو الحجة من سنة تسع عشرة وأربعمائة ، وربما امتد العمر ووقع نشاط مستقبل لنظم الشعر ، فأنفق فيه من ذكر الشيب ما يزيد في عدد هذا المذكور المسطور .

فأمـا الاحسان والتجويد مع هذا الاكثار الذي قـد زاد على المكثرين في أوصاف الشيب فمما يخرجه الاختبار ويبرزه الاعتبار، ويشهد بتقدم فيه أوتأخر ضم قول الى نظيره ومعنى الى عديله، واطراح التقليد والعصبية وتفضيل مافضله السبك والنقد من غير احتشام لحق يصدع به وباطل يكشف عنه ، ولامحاباة لمتقدم بالزمان على متأخر ، فما المتقدم الا من قدمه احسانه لازمانه وفضله لاأصله ، وقد قلت في بعض ماتظمته :

* والسبق للاحسان لا الأزمان *

وبانضمام ما أخرجته من هذه الدواوين الاربعة يجتمع لك محاسن القول في الشيب والتصرف في فنون أوصافه وضروب معانيه ، حتى لايشذ عنها في هذا الباب شيء يعبأ به .

هذا حكم المعاني، فأما بلاغة العبارة عنها وجلاؤها في المعاريض الواصلة الى القلوب بلاحجاب والانتقال في المعنى الواحد من عبارة الى غيرها مما يزيد عليها براعة وبلاغة أو يساويها أو يقاربها حتى يصير المعنى باختلاف العبارة عنـه وتغير

الهيئات عليه وان كان واحداً كأنه مختلف في نفسه ، فهو وقف على هذه الدواوين مسلم لها مفوض اليها مع الانصاف الذي هو العمدة والعقدة في كل دين ودنيا وأخرى وأولى .

وان شئت أن تختصر لنفسك وتقتصر على أحد هذه الدواوين استغناء به في هذا المعنى عما سواه ولاحتوائه على ما في غيره ، فأنت عند سبرك لها وأنسك بكل واحد منها وعملك بالاشتراك بينها والانفراد والاجتماع والافتراق تعرف على أيها تقتصر وبأيها تستغني عما سواه .

واعلم أن الشيب قد يمدح ويذم على الجملة ، ثم يتنوع مدحه الى فنون ، فيمدح بأن فيه الجلالة والوقار والتجارب والحنكة ، وانه يصرف عن الفواحش ويصد عن القبائح ويعظ من نزل به فيقلل الى الهوى طماحه وفي الغي جماحه ، وان العمر فيه أطول والمهل معه أفسح ، وان لونه أنصع الألوان وأشرقها ، وما جرى مجرى ما ذكرناه ، فالتركب منه كثير .

ومن يذمه بأنه رائد الموت ونذيره ، وأنه يوهن القوة ويضعف المنة ويطمع في صاحبه ، وأن النساء يصددن عنه ويعبن به وينفرن عن جهته .

وربما شكي منه لنزوله في غير زمانه ووفوده قبل ابانه ، وانه بذلك ظالم جائر . وما أشبه ذلك .

ومما يدخل في هذا الشباب واطراء السواد وذكر منافعهما وفوائدهما ومرافقهما ويتعلق بأوصاف الشيب ذكر الخضاب اما بمدح أو بذم ، وفنون مدحه أو ذمه كثيرة ، وذكر ما يقوم مقام الخضاب في ازالة شخص الشيب عن المنظرة من مقراض أو غيره .

وسيجيء من هذه المعاني في ما نورده من الدواوين الأربعة ما ستقف عليه في مواضعه وتعلم حسن مواقعه .

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

قال أبوتمام حبيب بن أوس الطائى وهو ابتداء قصيدة

نسج المشيب له لفاعاً مغدفاً بقفا فقنع مذرويه ونصفا
نظر الزمان اليه قطع دونه نظر الشفيق تحسراً وتلهفا
ماسودحتى ابيض كالكرم الذي لم يأن حتى جيء كيما يقطفا
لما تفوقت الخطوب سوادها ببياضها عبثت بـه فتفوفا
ما كاد يخطر قبل ذا فى فكره فى البدر قبل تمامه أن يكسفا

ووجدت أباالقاسم الامدي يذكر في كتابه المعروف « بالموازنة بين الطائيين» في البيت الأول من هذه الأبيات شيئاً أنـا أذكره وأبين ما فيه ، قال : معنى قوله « نصفا » أي قنع جانبى رأسه حتى يبلغ النصف منه . قال : وقد قيل : انما أراد بقوله « نصف النصيف » وهو قناع لطيف يكون مثل نصف القناع الكبير ، وقد ذكره النابغة ، فقال :

* سقط النصيف ولم ترد اسقاطه *

ثم قال : وذلك لاوجه له بعد ذكر القناع ، وانما اراد أبوتمام ما أراده الآخر بقولـه :

اصبح الشيب في المفارق شاعـا واكتسى الرأس من مشيب قناعا

قال : فالمعنى مكتف بقوله « قنع مذرويه » وقوله « نصفا » أي بلغ نصف رأسـه .

وهذا الذي ذكره الامدي غير صحيح ، لأنه لايجوز أن يريد بقوله « نصفا » أي بلغ نصف رأسه، لأنه قد سماه لفاعاً ، واللفاع ما اشتمل به المتلفع فغطى جميعه

لأنه جعله أيضاً مغدفاً ، والمغدف المسبل السابغ التام ، فهو يصفه بالسبوغ على ما ترى ، فكيف يصفه مع ذلك بأنه بلغ نصف رأسه . والكلام بغير ما ذكره الامدي أشبه .

ويحتمل وجهين :

أحدهما ـ أن يريد بقوله « نصفا » النصف الذي هو الخمار ، والخمار ماستر الوجه ، فكأنه لما ذكر أنه قنع مذرويه ـ وهما جانبا رأسه ـ أراد أن يصفه بالتعدي الى شعر وجهه فقال « نصفا » من النصيف الذي هو الخمار المختص بهذا الموضع ، وليس النصيف على ما ظنه الامدي القناع اللطيف ، بل هو الخمار وقد نص أهل اللغة على ذلك في كتبهم. وبيت النابغة الذي أنشد بعضه شاهدعليه، لأنه قال :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وانما اتقت بيدها بأن سترت وجهها عن النظر اليه ، فأقامت الخمار بهذا الموضع .

والوجه الآخر ـ أن يكون معنى نصفا أنه بلغ الخمسين وما قاربها ، فقديقال في من أسن ولم يبلغ الهرم أنه نصف .

فان قيل : النصف انما يستعمل في النساء دون الرجال .

قلنا : لا مانع يمنع من استعماله فيهما ولو على سبيل الاستعارة في الرجال، فقد يستعير الشعراء ما هو أبعد من ذلك . وعلى هذا الوجه يكون قوله « نصفا » راجعاً الى ذي الشيب والى من كنى عنه بالهاء في قوله « لـه » ، ولايكون راجعاً الى الشيب نفسه .

ورأيت الامدي يسرف في استرذال قوله :

* لم يأن حتى جىء كيما يقطفا *

ولعمري انه لفظ غير مطبوع وفيه أدنى ثقل ، ومثل ذلك يغفر لما لا يزال يتوالى من احسانه ويترادف من تجويده .

ووجدته أيضاً يذمه غاية الذم على البيت الأخير الذي أوله :

* ما كان يخطر قبل ذا في فكره *

ويصفه بغاية الاضطراب والاختلال . وليس الأمر على ماظنه ، اذ البيت جيد، وانما ليس رونق الطبع فيه ظاهراً ، وليس ذلك بعيب .

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

يضحكن من أسف الشباب المدبر يبكين من ضحكات شيب مقمر

ووجدت أبا القاسم الامدي يغلو في ذم هذا البيت، وقال : هذا بيت رديء ما سمعت يضحك من الأسف الا في هذا البيت . قال : وكأنه أراد قول الاخر :

* وشر الشدائد ما يضحك *

فلم يهتد لمثل هذا الصواب . قال : وقوله :

* من ضحكات شيب مقمر *

ليس بالجيد أيضاً، ولو كان ذكر الليل على الاستعارة لحسن أن يقول «مقمر» لأنه كان يجعل سواد الشعر ليلا وبياضه بالمشيب أقماره ، لأن قائلا لو قال « قد أقمر ليل رأسي » كان من أصح الكلام وأحسنه وان لم يذكر الليل أيضاً حتى يقول

« قد اقمر عارضاك » أو « فوداك » لكان حسناً مستقيماً ، وهودون الأول في الحسن وذاك أنه قد علم أنهما كانا مظلمين فاستنارا .

والذي نقوله : ان قول ابى تمام :

* يضحكن من أسف الشباب المدبر *

يحتمل أن يكون المراد بــه النساء اللواتى يرين بكاء عشاقهن وأسفهن على الشباب المدبر يهزأن بهم ويضحكن منهم ، ومثل ذلك يرد في الشعر كثيراً .

فأما قوله :

* يبكين من ضحكات شيب مقمر *

فالأولى أن يحمل علىأن المراد به أنهن يبكين منطلوع الشيب فيمفارقهن وضحكه في رؤوسهن ، لأنا لو حملناه على شيب عشاقهن لكان الذي يبكين منــه هو الذي يهزأن به، وهذا يتنافى . فكأنه وصفهن بأنهن يضحكن ويهزأن من شيء في غيرهن ويبكين منه بعينه اذا خصهن .

فأما حمل الضحك هاهنا على معنى البكاء وغاية الحزن ، فهــو مستبعد وان كان جائزاً . ويكون على هذا التأويل يضحكن ويبكين بمعنى واحد .

فأما عيبه لقوله « شيب مقمر » ففي غير موضعه ، وليس يحتاج الىأن يذكر الليلعلى ماظنه . وكما يقال « أقمرليل رأسك وأقمر عارضاك » على ما استشهد به كذلك يقال « أقمر شيبك » ولايحتاج الى ذكر الليل ، وانما المعنى أنه أضاء بعد الظلام وانتشر فيه البياض بعد السواد .

وليس هذا تتبع من يعرف الشعر حق معرفته ، ولعمري انهذا البيت خــال من طبع وحلاوة ، لكن ليس الى الحد الذي ذكره الامدي .

* * *

وله من جملة قصيدة :

غدا الهم مختطاً بفودي خطة   طريق الردى منها الى الموت مهيع
هو الزور سجفاً والمعاشر يجتوى   وذو الألف يقلى والجديد يرقع
له منظر في العين ابيض ناصع   ولكنه في القلب اسود اسفع
وكنا نرجيه على الكره والرضا   وانف الفتى من وجهه وهو اجدع

والاحسان في هذه الأبيات غير مجحود ولامدفوع .

ومعنى أن الشيب في القلب أسود وان كان في العين ناصعاً ما يورثه من الهم والحزن الذي تظلم به القلوب وتكسف أنوارها .

* * *

وله من جملة قصيدة :

شعلة في المفارق استودعتني   في صميم الفؤاد ثكلا حميما
تستثير الهموم ما اكتن منها   صعداً وهى تستثير الهموما
عرة مرة ألا انما كنت اعزى   ايام كنت بهيما
دقة في الحياة تدعى جلالا   مثل ما سمي اللديغ سليما
حلمتني زعمتم وأراني   قبل هذا التحليم كنت حليما

قال الامدي : وأخذ البحتري قوله « ألا انما كنت اعزى ايام كنت بهيما » فقال :

عجبت لتفويف القذال وانما   تفوفه لو كان غير مفوف

وقد كنا قلنا في مواضع تكلمنا فيها على معاني الشعر والتشبيه بين نظائره أنه ليس ينبغي لأحد أن يقدم على أن يقول : اخذ فلان الشاعر هذا المعنى من فلان

وان كان أحدهما متقدماً والاخرمتأخراً ، لأنهما ربما تواردا من غيرقصد ولاوقوف من أحدهما على ما تقدمه الأخر اليه ، وانما الانصاف أن يقال : هذا المعنى نظير هذا المعنى ويشبهه ويوافقه ، فأما اخذه وسرقه فمما لا سبيل الى العلم به ، لأنهما قد يتواردان على ما ذكرناه ولم يسمع أحدهما بكلام الاخر ، وربما سمعه فنسيه وذهب عنه ثم اتفق له مثله من غيرقصد، ولايقال أيضاً : أخذه وسرقه اذا لم يقصد الى ذلك .

وكم بين بيت أبي تمام وبيت البحتري مأخوذاً منه أو غير مأخوذ في الطبع وصحة النسج وطلاوة اللفظ ، فلبيت أبي تمام الفضل الظاهر الباهر ، ويشبه قوله « وأراني قبل هذا التحليم كنت حليماً » من شعري في الشيب قولي :

وقالوا اتاه الشيب بالحلم والحجى ... فقلت بما يبرى ويعرق من لحمي
وما سرني حلم يفيء الى الردى ... كفاني ما قبل المشيب من الحلم

وستجيء هذه الأبيات في موضعها بمشيئة الله .

* * *

وله من جملة قصيدة :

ألم تر ارآم الظباء كأنما ... رأت بى سيد الرمل والصبح ادرع
لئن جزع الوحشي منها لرؤيتى ... لانسيها من شيب رأسي اجزع

ووجدت ابا القاسم الامدي يفسرذلك ويقول: أراد بسيد الرمل الذئب، وقوله « والصبح أدرع » أي أوله مختلط بسواد الليل ، يريد وقت طلوع الفجر ، وكل مااسود أوله وابيض آخره فهوأدرع ،وشاة درعاء للتى أسود رأسها وعنقها وسائرها أبيض، وانما قال ذلك لأن الظباء تخاف الذئب في ذلك الوقت ، لأن لونه يخفى فيه لغبشته فلا تكاد تراه حتى يخالطها ، وهو الوقت الـذي تنتشرفيه الظباء وتخرج

من كنسها لطلب المرعى .

ونقول : ان الذي ذكره الامدي ممـا يحتمله البيت ، وأجود منه أن يكون قوله « والصبح أدرع » عبارة عن شيبه وخبراً عن بياض بعض شعره وسواد بعض، وأراد أن النساء اللواتي يشبهن الظباء ينفرن مني اذا رأين شيب رأسي كما ينفرن من ذئب الرمل . ثم قال : ولئن كان الوحشي يجزع من رؤيتي فلانسي منها من شيب رأسي أجزع .

وان لم يكن المعنى على ما ذكرناه فلا معنى لقوله : ان الظباء التى هي البهائم تنفر منه كما تنفر من الذئب ، لأنه لا وجه لذلك ولا فائدة فيه ولا سبب ، فالكلام بالمعنى الذي ذكرناه أليق .

فان قال من ينصر تأويل الامدي : أي معنى لقوله «كأنما رأت بي سيد الرمل» لولا انه أراد بالظباء البهائم دون النساء المشبهات بهن ، وكيف تنفر النساء مـن الذئب وانما تنفر منه الظباء على الحقيقة .

قلنا : النساء تنفر من الذئب لامحالة كما تنفر منه الظباء اللواتى هن الغزلان، وما يهابه الرجال وينفرون منه أجدر أن ينفر منه النساء الغرائر .

فان قيل : كيف قال في البيت الثاني :

لئن جزع الوحشي منها لرؤيتي لانسيها من شيب رأسي أجزع

لولا أن الوحشية قد نفرت منه ووقع ذلك وخبر عنه في البيت الاول ؟

قلنا : ليس يقتضي هذا الكلام الثاني أن يكون المراد بذكر الظباء في البيت الأول والظباء على الحقيقة ، لأن من المعلوم أن الظباء الوحشية وكل وحش ينفر من الانس ، وهذا أمر ممهد معلوم لايحتاج الى وقوعه حتى يعلم، فلما قال: ان النساء اللواتي يشبهن الظباء ينفرن مـن شيبي جاز أن يقول بعد ذلك ولئن كانت الظباء

الوحشية تنفر مني فالظباء الأنسية لأجل انكارهن شيبي منهن أنفر .

وبعد ، فلم نفسد تأويل الامدي وننكره ، بل أجزناه وقلنا : ان البيت يحتمل سواه .

* * *

وله من جملة قصيدة :

لعب الشيب بالمفارق بل جد فأبكى تماضراً ولغوبا
خضبت خدها الى لؤلؤ العقد دماً اذ رأت شواتى خضيبا
كل داء يرجى الدواء له الا القطيعين ميتة ومشيبا
يا نسيب الثغام ذنبك أبقى حسناتي عند الحسان ذنوبا
ولئن عبن ما رأين لقد انكرن مستنكراً وعبن معيبا
أو تصدعن عن قلى لكفى بالشيب بيني وبينهن حسيبا
لو رأى الله ان في الشيب فضلا جاورته الابرار في الخلد شيبا

قال الامدي : ومن يتعصب على أبى تمام يقول : انه ناقض في هذه الأبيات لقوله « فأبكى تماضراً ولغوبا » وقوله « خضبت خدها الى لؤلؤ العقد دماً » ثم قوله :

يا نسيب الثغام ذنبك ابقى حسناتي عند الحسان ذنوبا

وقوله « ولئن عبن ما رأين » ، وقالوا : كيف يبكين دماً على مشيبه ثم يعيبه.

قال الامدي : وليس ههنا تناقض ، لأن الشيب انما أبكى أسفاً على شبابه غير الحسان اللواتي عبنه ، واذا تميز من أشفق عليه ممن عابه فلا تناقض .

وأقول : لاحاجة بنا الى تمحله ، والمناقضة زائلة عن ابى تمام على كل حال،

لأنه لاتنافض بين البكى على شبابه ممن بكاه من النساء وتلهف عليه وبين العيب منهن للشيب والانكار له ، بل هذه مطابقة وموافقة ، ولا يبكى على شبابه من النساء الا من رأين الشيب عيباً وذنباً . وقد ذكرنا هذا في كتاب الغرر .

وهذا الذي ذكره ـ وان كان لا يحتاج الى ما تكلفه ـ قد كان ينبغي أن يفطن لمثله ونظيره في التغاير والتميز لما عابه بقوله «يضحكن من اسف الشباب المدبر» فجعل الضحك من شيء والبكى من غيره على ما بيناه ، ولايحمله بعد الفطنة على أن يجعل الضحك بكاء وفي معناه .

* * *

وله من جملة قصيدة :

راحت غواني الحي عنك غوانيا يلبسن نأياً تارة وصدودا
من كل سابغة الشباب اذا بدت تركت عميد القربتين عميدا
أربين بالبرد المطارف بدنا غيداً ألفتهم لداناً غيدا
احلى الرجال من النساء مواقعاً من كان اشبههم بهن خدودا

ووجدت أبا القاسم الامدي يختار في قوله « أربين » الباء دون الياء ، من أرب المكان اذا لزمه وأقام فيه . وأربين بالياء معناه الزيادة، فكأنه يقول على الرواية بالياء انهن ازددن علينا بالمرد واخترنهم علينا كما يقبل الرجل الزيادة في الشيء الذي يعطاه فاضلا عن حقه .

ولعمري ان الرواية بالباء أقرب منها بالياء الى الحق ، وان كان فيها بعض الهجنة على ما أشار اليه الامدي .

وقال الامدي : انه أخذ قوله « أحلى الرجال من النساء مواقعاً » من قول الأعشى :

وأرى الغواني لا يواصلن امرءاً فقد الشباب وقد يصلن الأمردا

ولعمري ان بين البيتين تشابهاً ، الا أن ابا تمام زاد على الأعشى بقوله : «من كان أشبههم بهن خدوداً» ، فعلل ميل النساء الى المرد والأعشى أطلق من غير تعليل.

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

ابدت اسى اذ رأتنى مخلس القصب وآل ما كان من عجب الى عجب

ست وعشرون تدعوني فاتبعها الى المشيب ولم تظلم ولم تحب

فلا يروقك ايماض القتير بـه فان ذاك ابتسام الرأي والأدب

أما قوله « من عجب الى عجب » فمن البلاغة الحسنة والاختصار السديد البارع ، وقوله «فان ذاك ابتسام الرأي والأدب» يريد به أن الرأي والأدب والحلم انما يجتمع ويتكامل في أوان الكبر والشيب دون زمان الشباب . وقد تصف الشعراء أبداً الشيب بأنه تبسم في الشعر لبياضه وضيائه ، الا أن هذه من ابى تمام تسلية عن الشيب وتنبيه على منفعته .

* * *

وله من جملة قصيدة :

شاب رأسي ومارأيت مشيب الرأس الامن فضل شيب الفؤاد

وكذاك القلوب في كل بؤس ونعيم طلائع الأجساد

طال انكاري البياض فان عمرت شيئاً انكرت لون السواد

زارني شخصه بطلعة ضيم عمرت مجلسي من العواد

نال رأسي من ثغرة الهم لما لم ينله من ثغرة الميلاد

ورأيت الامدي يقول : ان قوماً عابوا أبا تمام بقوله « شيب الفؤاد » ، قال : وليس عندي بمعيب ، لأنــه لما كان الجالب للشيب القلب المهموم نسب الشيب اليه على الاستعارة .

قال الامدي : وقد أحسن عندي ولم يسيء .

فيقال له : قد أحسن الرجل بلا شك ولم يسيء وما المعيب الا من عابه، وأما انت أيها الامدي فقد نفيت عنه الخطأ واعتذرت له باعتذار غير صحيح، لأن القلب اذا كان جالباً للشيب كيف يصح أن يقال: قد شاب هو نفسه؟ وانما يقال: انه أشاب ولا يقال شاب .

والعذر الصحيح لأبي تمام: أن الفؤاد لما كان عليه مدار الجسد في قوة وضعف وزيادة ونقص ثم شاب رأسه ، لـم يخل ذلك الشيب من أن يكون من أجل تقادم السن وطول العمر أو من زيادة الهموم والشدائد ، وفي كلا الحالين لابد من تغير حال الفؤاد وتبدد صفاته ، فسمى تغير أحوالـه شيباً استعارة ومجازاً كما كان تغير لون الشعر شيباً .

والبيت الثاني يشهد بما قلناه، لأنه جعل القلوب طلائع الأجساد في كل بؤس ونعيم .

وقال الامدي : قوله « عمرت مجلسي من العواد » لا حقيقة له ، لأنا مـا رأينا ولا سمعنا أحداً جاءه عواد يعودونه من الشيب، ولا أن أحداً أمرضه الشيب ولاعزاه المعزون عن الشباب ، وقد قال ابن حازم الباهلي أو غيره :

ألیس عجيباً بأن الفتى ... يصاب ببعض الذي في يديه
فمن بين باك له موجع ... وبين معز مغذ اليه
ويسلبه الشيب شرخ الشباب ... فليس يعزيه خلق عليه

قال : فأحب أبو تمام ان يخرج عن عادات بني آدم ويكون أمة وحده .

فيقال له: لم لم تفطن لمعنى ابي تمام فذممته، وقد تكلمنا على هذه الوهلة منك في كتابنا المعروف بغرر الفرائد وقلنا : انه لم يرد العيادة الحقيقية التي يغشى فيها العواد مجالس المرضى، وانما تلطف في الاستعارة والتشبيه وأشار الى الغرض اشارة مليحة . والمعنى: ان الشيب لما طرقني كثر عندي المتوجعون لي منه والمتأسفون على شبابي ، اما بقول يظهر منهم أو بما هو معلوم من قصدهم واعتقادهم ،فسماهم عواداً تشبيهاً بعائد المريض الذي من شأنه أن يتوجع لـه من مرضه . ولما كثر المتفجعون له من الشيب حسن أن يقول « عمرت مجلسي من العواد » ، لأن هذه العبارة تدل على الكثرة والزيادة .

وهذا الذي ذكرناه في كتاب الغرر وهو كاف شاف ، ويمكن فيه وجه آخر ، وهو : أن يريد بقوله « عمرت مجلسي مـن العواد » الاخبار عن وجوب عيادته واستحقاقه لذلك بما نزل به ، فجعل ما يجب أن يكون كائناً واقعاً .

وهذا له نظائر كثيرة في القرآن وفي كلام العرب وأشعارهم، قال الله عزوجل « ومن دخله كان آمناً »[1] وانما المعنى أنـه يجب أن يأمن ، فجعل قوة الوجوب واللزوم كأنه حصول ووقوع .

وما يروى عـن النبي صلى الله عليه وآله من قوله « العارية مردودة والأمانة مؤداة والزعيم غارم » من هذا الباب أيضاً ، لأنه جعل الوجوب في هذه المواضع كأنه وقوع ووجوب .

وقد يقول القائل : فعل فـلان كذا من الجميل فكثر مادحوه ، وان لم يمدحه أحد، وفعل كذا من القبيح فكثر ذاموه ، وان لم يذمه بشر. وانما المعنى ما اشرنا اليه.

---

١) سورة آل عمران : ٩٧ .

فأما ثغرة الهم فانما أراد به ناحية الهم ، وكذلك ثغرة الميلاد ، والثغرة في كلامهم هي الفرجة والثلمة ، وهي الثغر ، وهو البلد المجاور لبلد الأعداء البادىء لهم ، فكأن ابـا تمام أراد أن الهموم هي الجالبة لشيبه والتي دخل من قبلها على رأسه الشيب دون جهة الميلاد ، لأنه لم يبلغ من السن ما يقتضي نزول الشيب .

وقال الامدي : كان وجه الكلام أن يقول : من ثغرة الكبر أو من ثغرة السن لا من ثغرة الميلاد .

وهذا منه ليس بصحيح، لأن العبارات الثلاث بمعنى واحد ويقوم بعضها مقام بعض ، لأن الميلاد عبارة عـن السن ، فمن تقادمت سنه تقادم ميلاده ومن قربت سنه وقصرت قصر وقرب زمن ميلاده .

وأنكر أيضاً الامدي قوله « نال رأسي » ، قـال : وكان يجب أن يقول : حل برأسي أو نزل برأسي .

والأمر بخلاف ما ظنه ، لأن الجميع واحد وما نال رأسه فقد حل به ونزل .
ونظيرقوله « نال رأسي من ثغرة الهم » قولي من أبيات في الشيب سيجيء ذكرها باذن الله تعالى :

ولو أنصفتنى الأربعون لنهنهت   من الشيب زوراً جاء من جانب الهم

ونظير قوله « طال انكارى البياض » قول البحتري :

وكان جديدها فيها غريباً   فصار قديمها حق الغريب

وله ـ وقيل انه منحول ـ في ذكر الخضاب :

فان يكن المشيب طرآ علينا   وأودى بالبشاشة والشباب
فـاني لست أدفعـه بشيء   يكون عليه أثقل من خضاب

اردت بأن ذاك وفا عذاب   فينتقم العذاب من العذاب

(مضى ما لأبي تمام حبيب بن اوس الطائى في الشيب)

وقال أبوعبادة الوليد بن عبيد البحترى فى الشيب

من جملة قصيدة :

وكنت ارجى في الشباب شفاعة   وكيف لباغي حاجة بشفيعه

مشيب كبث السر عي بحمله   محدثه اوضاق صدر مذيعه

تلاحق حتى كاد يأتى بطيئه   لحث الليالى قبل آتى سريعه

وهـذا والله أبلغ كلام وأحسنه واحلاه وأسلمه وأجمعه لحسن اللفظ وجودة المعنى ، وما أحسن ما شبه تكاثر الشيب وتلاحقه ببث السرعن ضيق صدرصاحبه واعيائه بحمله وعجزه عـن طيه ، ويشبه بعض الشبه قوله « تلاحق حتى كاد يأتى بطيئه » قولي من أبيات يجيء ذكرها بمشيئة الله تعالى :

سبق احتراسي منأذاه بطيئه   حتى تجللني فكيف عجوله

وفي البيت لمحة بعيدة من بيت البحتري وليس بنظير له على التحقيق .

ومعنى البيت الذي يخصني أدخل في الصحة والتحقيق ، لأنني خبرت بأن بطيء الشيب سبق وغلب احتراسي وحذري منه فكيف عجوله ، ومن سبقه البطيء كيف لا يسبقه السريع . والبحتري قال : ان البطيء كاد أن يسبق السريع ، وهذا على ظاهره لايصح ، لأنه يجعل البطيء هو السريع بل أسرع منه ، لكن المعنى أنه متدارك متواتر فيكاد البطيء له يسبق السريع . وهذا في غاية الملاحة .

* * *

وله أيضاً من جملة قصيدة :

ردى على الصبى ان كنت فاعله ان الصبي ليس من شاني ولا اربى
جاوزت حد الشباب النضر ملتفتاً الى بنات الصبى يركضن فى طلبى
والشيب يهرب من جارى منيته ولانجاء له في ذلك الهرب
والمرء لو كانت الشعرى له وطناً صبت عليه صروف الدهر من صبب

وهذا كلام مصقول مقبول عليه طلاوة غير مدفوعة ولا مجهولة . والشيب يهرب من جارى منيته له نظائر سيجيء التنبيه عليها بمشيئة الله وعونه .

* * *

وله من ابتداء قصيدة :

لابس من شبيبة أم ناض ومليح من شيبة أم راض
واذا ما امتعضت من ولع الشيب برأسى لم يغن ذاك امتعاضى
ليس يرضي عن الزمان مرو فيه الا عن غفلة أو تغاضى
والتوقى من الليالى وان خالفن شيئاً شبيهات المواضى
ناكرت لمتي وناكرت منها سوء هذي الابدال والاعواض
شعرات اقصهن ويرجعن رجوع السهام في الاغراض
وأبت تركى الغديات والاصال حتى خضبت بالمقراض
غير نفع الا التعلل من شخص عدو لم يعده ابغاضى
ورواء المشيب كالنحض في عينى فقل فيه في العيون المراض
طبت نفساً عن الشباب وما سود من صبغ برده الفضفاض
فهل الحادثات يا ابن عويف تاركاتى ولبس هذا البياض

قوله « خضبت بالمقراض » في غاية الملاحة والرشاقة .

ومعنى قوله « رجوع السهام في الأغراض » انه لا يملك رداً لطلوع الشيب في شعره ولا تلافياً لحلوله ، فيجري في ذلك مجرى رجوع السهام الى الغرض في أنه لا يملك مرسل السهم صده عنه ولارده عن اصابته .

ويمكن في ذلك وجه آخر وان كان الأول أشف ، وهو أن يريد بالأغراض المقاتل والمواضع الشريفة من الاعضاء ، فكأنه يشبه رجوع الشيب بعد قصه له وطلوعه في شدة ايلامه وايجاعه باصابة السهام للمقاتل والفرائص .

ويحتمل وجهاً آخر ، وهو أن السهام تنزع من الأغراض ثم ترجع بالرمي اليها أبداً . فأشبهت في ذلك الشيب في قصه ثم طلوعه ورجوعه الى مواضعه .

ونظير قوله « فهل الحادثات يا ابن عويف » البيت قوله من قصيدة أخرى:

يعيب الغانيات علي شيبي ومن لى ان امتع بالمعيب

* * *

وله من قصيدة :

وما أنس لا أنس عهد الشباب وعلوة اذ عيرتني الكبر
كواكب شيب علقن الصبى فقللن من حسنه ماكثر
واني وجدت فلا تكذبن سوادالهوىفيبياضالشعر
ولابد من ترك احدى اثنتين اما الشباب واما العمر

ووجدنا لأبي القاسم الأمدي زلة في البيت الأخير من هذه الابيات قد نبهنا عليها في كتاب الغرر ، ونحن نذكرها هاهنا فان الموضع يليق بذكرها، قال الامدى: على البحتري في قوله « ولابد من ترك احدى اثنتين » معارضة ، وهو أن يقال : ان من مات شاباً وقد فارق الشباب وقد فاته العمر أيضاً فهو تارك لهما ، ومن شاب

فقد فارق الشباب وهو مفارق للعمر لا محالة ، فهو أيضاً تارك لهما جميعاً. وقوله « اما واما » لا يوجب الا أحدهما .

ثم قال : والعذر للبحتري أن من مات شاباً فقد فارق الشباب وحده لأنه لم يعمر فيكون مفارقاً للعمر . ألا ترى أنهم يقولون « عمر فلان » اذا أسن ، وفلان لم يعمر اذا مات شاباً ، ومن شاب وعمر لم يكن مفارقاً للشباب في حال موته ، لأنه قد قطع أيام الشباب وتقدمت مفارقته له ، وانما يكون في حال موته مفارقاً للعمر وحده . فالى هذا ذهب البحتري ، وهو صحيح ، ولم يرد بالعمر المدة القصيرة التي يعمرها الانسان ، وانما اراد بالعمر هاهنا الكبر كما قال زهير :

رأيت المناي خبط عشواء من نصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ولم يرد البحتري ما توهمه الامدي ، وانما أراد أن الانسان بين حالين : اما أن يفارق الشباب بالشيب والعمر بالموت، فمن مات شاباً فانما فارق العمروفارق بفراقه سائر أحوال الحياة من شباب وشيب وغيرهما ، فلم يفارق الشباب وحده بلاواسطة ، وانما فارق العمر الذي فارق بمفارقته الشباب وغيره. وقسمة البحتري تناولت أحد امرين : اما مفارقة الشباب وحده بلا واسطة ولن يكون الا بالشيب أو مفارقة العمر بالموت .

وتقدير كلامه : لابد للحي منا من مشيب أو موت ، لأن الشيب والموت يتعاقبان عليه . وانما أقام البحتري قوله « العمر » مقام قوله « الحياة والبقاء »، وعدل الى لفظة العمر لأجل القافية ، ولو قال : لابد من ترك الشباب أو ترك الحياة لقام مقام قوله العمر .

فأما اعتراضه بمن مات شيخاً وانه قد فارق العمر والشباب جميعاً . فليس بشيء ، لأن هذا ما فارق الا العمر دون الشباب ، لأن الشباب قد تقدمت مفارقته له

وقد خرج بالشيب عن حال الشباب فلم يفارق الا العمر وحده . والبحتري انما وجهت قسمته الى من كانت له الحالتان جميعاً من شباب وحياة ، فقال : لابد أن يفارق الشباب بالشيب أو العمر بالموت . فأي اعتراض بمن هو على أحدى الحالتين دون الأخرى ؟

فأما اعتذار الامدي للبحتري بأن من مات شاباً مافارق العمر وانما فارق الشباب وحده من حيث لم يطل عمره ولم يقل فيه معمر . فغلط فاحش ، لأن اسم العمر يتناول أيام الشباب كما يتناول ما زاد عليها ، ولهذا يقولون في الشاب والصبي لم يطل عمره أو كان عمره قصيراً ، فاسم العمر يتناول الطويل والقصير من الزمان حياة أحدنا . وانما لا يقال في من عاش طرفة عين أن له عمراً ، لأن المتعارف من استعمال هذه اللفظة فيما تستمر الحياة له ضرباً من الاستمرار قصر أو طال .

وليس يجري قولهم عمر ومعمر مجرى قولهم له عمر ، لأن لفظة عمر وما أشبهها تفيد التطاول ولا تكاد تستعمل الا في السن ، لأنها تفيد من حيث التشديد التأكيد والزيادة في العمر ، ولفظة عمر بخلاف ذلك لأنها تستعمل في الطويل والقصير . ونظائر هذا البيت في معناه يجيء ذكرها عند الأنتهاء الى ما خرجته من شعري في الشيب .

* * *

وله من قصيدة :

يعيب الغانيات علي شيبي ومن لي أن أمتع بالمعيب
ووجدي بالشباب وان تقضى حميداً دون وجدي بالمشيب

انما جعل وجده بالشباب أقل من وجده بالمشيب ، لأنه يفارق الشباب بالشيب وصاحب الشيب في قيد الحياة على كل ولا يفارق الشيب الا بالموت ، فالايثار لمقامه أقوى .

* * *

وله من قصيدة :

أعداوة كانت ومن عجب الهوى ان يصطفي فيه العدو حبيبا
ام وصلة صرفت فعادت هجرة ان عاد ريعان الشباب مشيبا
أرأيته من بعد حفل فاحم جون المفارق بالنهار خضيبا
فعجبت من حالين خالف منهما ريب الزمان وما رأيت عجيبا
ان الزمان اذا تتابع خطوه سبق الطلوب وادرك المطلوبا

أراد بقوله « جون المفارق » أي هو أبيض المفارق، ولهذا قال: بالنهار خضيباً.

* * *

وله من قصيدة :

رأت فلنات الشيب فابتسمت لها وقالت نجوم لو طلعن بأسعد
أعاتك ما كان الشباب مقربي اليك فألحى الشيب اذ كان مسعدى
تزيدين هجراً كلما ازددت لوعة طلاباً لان اردى فها انا ذا رد
متى ادرك العيش الذي فات آنفاً اذا كان يومي فيك احسن من غدي

ووجدت الامدي يقول هاهنا بعد استحسانه هذه الأبيات : وهي لعمري في غاية الحلاوة والطلاوة ، وان معنى تبسمت أنها استهزأت . قال : وبهذا جرت عادة النساء أن يضحكن من الشيب ويستهزئن لا أن يبكين كما قال ابو تمام ولم يقنع الا ببكاء الدم .

وهذه عصبية شديدة من الامدي على ابى تمام وغمط لمحاسنه ، والنساء قد يستهزئن تارة بالشيب ويبكين أخرى لحلوله على حسب أحوالهن مع ذي الشيب،

فان كن عنه معرضات وله غير محبات استهزأن بشيبه ، وان كن لـه وامقات وعليه مشفقات يبكين لحلول شيبه ، لفوت تمتعهن بشبابه وتلهفاً على مامضى من زمانه .

فأما قوله « لوطلعن بأسعد » فانما تمنى ذلك وتلهف عليه ، كما قال في موضع آخر :

وتعجبت من لو عتي فتبسمت عن واضحات لو لثمن عذاب

ولم يجعل ذلك شرطاً في انهن عذاب واضحات كما لم يجعل تشبيه الشيب بالنجوم مشروطاً بطلوع السعود ، وانما تمنى ذلك وتلهف عليه ، أولأنه حكى عن محبوبته أنها شبهت الشيب بالنجوم على سبيل التهجين له والازراء عليه ارادة أن تسلب الشيب فضيلة النجوم وانه أشبهها منظراً فما أشبهها فضلا ومنفعة فقالت لو طلعن بأسعد أي طلوع الشيب بضد السعادة، وان كان طلوع النجوم قديكون بالسعد وهذا تدقيق مليح وتصرف قوي .

* * *

وله من قصيدة :

عنت كبدي قسوة منك ما ان تزال تجدد فيها ندوبا
وحملت عندك ذنب المشيب حتى كأني ابتدعت المشيبا
ومن يطلع شرف الأربعين يلاق من الشيب زوراً غريبا

* * *

وله من قصيدة :

وقد دعا ناهياً فأسمعني وخط على الرأس مخلص شعره
شيب ارتنى الأسى اوائله فليت شعري ما ذا ترى آخره

صغر قدري في الغانيات ومـا صغر صبـا تصغيره كبره

* * *

وله من قصيدة :

أيثني الشباب اما تولى منه في الدهر دولة ما تعود
لا أرى العيش والمفارق بيض اسوة العيش والمفارق سود
وأعد الشقى حـدا ولو اعطيت غنما حتى يقـال سعيد
من عدتـه العيون فانصرفت عنه الفتاتاً الـى سواه الخدود

* * *

وله ايضاً :

راعني مـا يروع من وافـد الشيب طروقاً ورابنى ما يريب
شعرات سود اذا حلن بيضاً حال عن وصله المحب الحبيب
مـر بعد الشباب مـا كان يحلو مجتناه مـن عيشنـا ويطيب

* * *

وله أيضاً :

أجدك ما وصل الغواني بمطمع ولا القلب من رق الغوانى بمعتق
وددت بياض السيف يـوم لقيتني مـكان بياض الشيب كان بمفرقي

* * *

وله أيضاً :

عمر الغواني لقد بين من كثب هضيمة في محب غيـر محبوب

اذا مـددن الى اعراضه سببـاً * وقين من كرهه الشبان بالشيب

* * *

وله أيضاً :

خلياه وجـدة اللهو ما دام رداء الشباب غضاً جديـدا

ان ايامه من البيض بيض * ما رأين المفارق السود سودا

* * *

وله أيضاً :

فـدك مني فمـا جوى السقم الا * في ضلوع على جوى الحب تحنى

لو رأت حادث الخضاب لأنت * وأرنت مـن احمرار اليرنـا

كلف البيض بالمعمر قدراً * حين يكلفن والمصغر سنا

يتشاغفن بالغرير المسمى * عن تصاب دون الخليل المكنى

* * *

وله أيضاً :

ترك السواد للابسيه وبيضا * ونضا مـن السنين عنه ما نضا

وشـآه اغيد في تصرف لحظه * مرض اعل به القلوب وامرضا

وكأنه وجـد الصبى وجديـده * ديناً دنا ميقاته ان يقتضى

اسيان اثرى مـن جوى وصبابة * واساف من وصل الحسان وانقضا

الأسيان والأسوان الحزين، ومعنى أساف ذهب ماله، وكذلك انفض. وجعلهما البحتري هاهنا في من ذهب من يده وصل الحسان وميلهن اليه .

* * *

وله أيضاً :

أخي ان الصبى استمر به سير الليالى فانهجت برده
تصد عني الحسان مبعدة اذ انا لا تربــه ولا صدده
شيب على المفرقين بارضه يكثرنى ان ابينــه عدده
تطلب عندي الشباب ظالمة بعيد خمسين حين لا تجده
لا عجب ان نقلت خلتنا فافتقد الوصل منك مفتقده
مــن يتطاول على مطاولة العيش تقعقع من ملــة عمده

وقــد نبهنا في كتاب الغرر على هفوة الامدي في قول البحتري « تقعقع من ملة عمده » ، لأنـه ظن أن معناه أن عظام الكبير المسن يجيء لها صوت اذا قــام وقعد وتسمع لها قعقعة. وما سمعنا بهذا الذي ظنه في وصف ذوي الأسنان والكبر.

والمعنى أظهر من أن يخفى على أحد ، لأنه أراد من عمر وأسن وطاول العيش تعجل رحيله وانتقاله عن الدنيا. وكنى عن ذلك بتقعقع العمد ، لأن ذوي الأطناب والخيام اذا انتقلوا مــن محل الى غيره وقوضوا عمد خيامهم وسارت بها الابــل سمعت لها قعقعة .

ومن أمثال العرب المعروفة « من يتجمع تتقعقع عمده » ، يريدون أن التجمع يعقب التفرق والرحيل الذي تتقعقع معه العمد .

ومعنى قوله « من ملة » يريد من السأم والملال ، دون ماظنه الامدي من أنه تملى العيش .

* * *

وله أيضاً :

أقول للمتى اذ اسرعت بى الى الشيب اخسرى فيه وخيبي
مخالفة بضرب بعد ضرب وما انا واختلافات الضروب
وكان جديدها فيها غريباً فصار قديمها حق الغريب

* * *

وله أيضاً :

هل أنت صارف شبة ان غلست في الوقت أو عجلت عن الميعاد
جاءت مقدمة امام طوالع هذى تراوحني وتلك تغادى
وأخو الغبينة تاجر في لمة يشرى جديد بياضها بسواد
لاتكذبن فما الصبى بمخلف لهواً ولا زمن الصبى بمعاد
وارى الشباب على غضارة حسنه وجماله عدداً من الاعداد

ووجدت الامدي قد نزل في معنى قوله « يشري جديد بياضها بسواد » ، لأنه قال : معنى يشري يبيع ، وأراد أن الغبين من باع جديد بياضه بالسواد ، وأراد بالسواد الخضاب ، فكأنه ذم الخضاب .

والأمر بخلاف ما ذكره ، وماجرى للخضاب ذكر ولاهاهنا موضع للكناية عنه . ومعنى يشري هاهنا يبتاع ، لأن قولهم « شريت » يستعمل في البائع والمبتاع جميعاً . وهذا من الأضداد ، نص أهل اللغة على هذا في كتبهم . فكأنه شهد بالغبن لمن يبتاع الشيب بالشباب ويتعوض عنه به .

وانما ذهب على الامدي أن لفظة « يشري » تقع على الأمرين المضادين ، فتمحل ذكر الخضاب الذي لامعنى له ههنا .

وقال الامدي في قوله « عدداً من الأعداد » أنه أراد عدداً قليلا . وقد أصاب في ذلك ، الا انه ماذكر شاهده ووجهه ، والعرب تقول في الشيء القليل أنه معدود

اذا أرادوا الأخبار عن قلته ، قال الله تعالى « وشروه بثمن بخمس دراهم معدودة »[١] وقال جل اسمه في موضع آخر « واذكروا الله في أيام معدودات »[٢] . واظنهم ذهبوا في وصف القليل بأنه معدود من حيث كان العد والحصر لايقع الأعلى القليل والكثير لكثرته لاينضبط ولاينحصر .

* * *

وله أيضاً :

ما كان شوقي ببدع يوم ذاك ولا   دمعي بأول دمع في الهوى سفحا
ولمة كنت مشغوفاً بجدتها   فما عفا الشيب لي عنها ولا صفحا

هذا والله هو الكلام الحلو المذاق السليم من كل كلفة البرىء من كل غفلة وخلسة

* * *

وله ايضاً :

قالت الشيب أتى قلت اجل   سبق الوقت ضراراً وعجل
ومع الشيب على علاته   مهلة للهو حيناً والغزل
خيلت أن التصابي خرق   بعد خمسين ومن يسمع يخل

* * *

وله ايضاً :

تزيدني الأيام مغبوط عيشة   فينقصني نقص الليالي مرورها
وألحقني بالشيب في عقر داره   مناقل في عرض الشباب اسيرها

---

١) سورة يوسف : ٢٠ .

٢) سورة البقرة : ٢٠٣ .

مضت في سواد الشعر اولى بطالتي فدعني يصاحب وخط شيبي اخيرها

المناقل المراحل، ووجدت الامدي يفسر البيت الأول من هذه القطعة فيقول: اراد أن الأيام زادتني شيئاً من غبطة العيش اجتمعت مع الليالي على انتقاصه وارتجاعه .

وغير هذا التأويل الذي ذكره أولى منه ، وهو أن يكون المراد أن الأيام اذا زادتني غبطة في العيش نقصني ذلك مرورها، ويريد بقوله «نقص الليالى» كما تنقص الأيام من الليالي ، لان الأيام تأخذ الليالي وتنقصها. وهذا التأويل أشبه بالصواب من تأويله .

فان قيل :كما تأخذ الأيام من الليالي كذلك الليالي تأخذ من الأيام وتنقصها.

قلنا : هذا صحيح ،ولو قال قائل في غير هذا الموضع في من نقص وثلم انه منقوص النقص في هذا نقص الليالي من الأيام لجاز ، وانما أضاف النقص في هذا الموضع الى مرور الأيام ، لأنه أضاف الزيادة اليها وشبه نقصها له بنقصها لليـالي .

* * *

وله أيضاً :

كلف يكفكف عبرة مهراقة اسفاً على عهد الشباب ومـا انقضى

عدد تكامل للذهاب مجيئه واذا مجيء الشيب حان فقد مضى

خفض عليك من الهموم فانما يحظى براحة دهره من خفضا

قال الامدي في قوله « وما انقضى » أنه اراد وانقضائه، لأن ما والفعل بمنزلة المصدر ، مثل قولك « سرني ما عمل زيد » أي سرني عمله .

ثـم قال : ويجوز أن يكون أراد بقوله « وما انقضى » أي لم ينقض بعد .

قال : وهذا أجود ، لأنه قال « واذا مضى الشيء حان فقد مضى » ، فدل على أنه في بقية من الشباب .

والوجه الأول الذي ذكره بعيد من الصواب لايجوز أن يكون الشاعر عناه ولا اراده ، وانما خبر أنه متلهف متأسف على عهد الشباب قبل مفارقته وخوفاً من فوته ، فالكلام كله دال على ذلك .

* * *

وله أيضاً :

خلق العيش في المشيب وان كان نضيراً في الشباب جديده
ليت ان الأيام قام عليها من اذا ما انقضى زمان يعيده
ولو أن البقاء يختار فينا كان ما تهدم الليالي تشيده
شيبتني الخطوب الا بقايا من شباب لم يبق الا شريده
لا تنقب عن الصبى فخليق ان طلبناه أن يعز وجوده

* * *

وله أيضاً :

أو اخر العيش أخبار مكدرة وأقرب العيش من لهو أوائله
يحرى الشباب اذا ماتم تكملة والشيء ينفده نقصاً تكامله
ويعقب المرء برءاً من صبابته تجرم العام يمضي ثم قابله
ان فر من عنت الأيام حازمها فالحزم فرك ممن لا تقاتله
وان اراب صديق في الوداد فلم امسيت احذر ما اصبحت آمله

وهذه الأبيات تصلح أن تكون لأبي تمام ، لقربها من طريقته وظهور الصنعة

فيها والتكلف ، وان كانت في حيز الجودة والرصافة والوثاقة .

وقوله « يحرى الشباب » معناه ينقص ، يقال حرى الشيء يحرى حرياً اذا نقص واحراه الزمان ، ويقال للأفعى حارية ، وهي التي كبرت ونقص جسمها ، وذلك أخبث لها .

* * *

وقال أيضاً :

أما الشباب فقد سبقت بقضه ... وحططت رحلك مسرعاً عن نقضه
وافاق مشتاق واقصر عاذل ... ارضاه فيك الشيب اذ لم ترضه
شعر صحبت الدهر حتى جازني ... مسوده الأقصى الى مبيضه
فعلى الصبى الان السلام ولوعة ... تثنى عليه الدمع في مرفضه
وليفن تفاح الخدود فلست من ... تقبيله غزلا ولا من عضه

* * *

وله أيضاً :

وصال سقاني الخبل صرفاً ولم يكن ... ليبلغ ما أدت عقابيله الهجر
وباقى شباب في مشيب مغلب ... عليه اختناء اليوم يكثره الشهر
وليس طليقاً من تروح او غدا ... يسوم التصابي والمشيب له اسر
تطا وحنى العصران في رجويهما ... يسيبني عصر ويعلقنى عصر
متاع من الدنيا استبد بجدتي ... واعظم جرم الدهر أن يمنع الدهر

أما قوله « اختناء اليوم » فالاختناء عندهم هو الأستحياء والانخزال ، واليوم ينخزل من مكاثرة الشهر لقصوره عنه .

وهذه الابيات أيضاً فيها أدنى تكلف، وان كانت جيدة المعاني وثيقةالمباني.

* * *

وله أيضاً :

تفضي الصبى ان لا مـلام لراحـل واغنى المشيب عـن كلام العواذل
وتأبى صروف الدهر سوداشخوصها على البيض ان يحظين منـه بطائل
تحاولن عندي صبوة واخالنى على شغل ممـا يحاولن شاغـل
رمي رزايا صائبات كأنني لما اشتكى منها رمي جنادل

وهذه الأبيات لها ماشاءت من جزالة وفصاحة وملاحة .

* * *

وله أيضاً :

فى الشيب زجر له لو كان ينزجر وبالـغ منـه لولا أنـه حجر
ابيض ما اسود من فوديه وارتجعت جلية الصبح مـا قـد أغفل السحر
وللفتى مهلـة في العيش واسعـة ما لم يمت فى نواحي رأسه الشعر

قال الآمدي : قوله « ارتجعت جلية الصبح ما قد أغفل السحر » قريب من قـوله :

تزيدني الأيام مغبوط عيشة فينقصني نقص الليالى مرورها

ونقول : ان الأمر بخلاف ماظنه ، ولانسبة بين الموضعين ، لأن أحد البيتين تضمن أن الذي يزيده هو الذي ينقصه ، والبيت الاخر تضمن أن الصبح ارتجع بوضوحه وجليته ما اغفله السحر وتركه منالسواد الرقيق اليسير، فالمرتجع غير المعطي هاهنا .

* * *

وله أيضاً :

رب عيش لنا برامة رطب   وليال فيها طوال قصار
قبل أن يقبل المشيب وتبدو   هفوات الشباب فى الأدبار
كل عذر من كل ذنب ولكن   اعوز العذر من بياض العذار
كان حلواً هذا الهوى فأراه   صار مرّاً والسكر قبل الخمار

معنى قوله « طوال قصار » انهن طوال في أنفسهن وان كن قصاراً ببلوغ الأماني فيهن والظفر بالمحبوبات ونيل المطلوبات .

وقوله «كل عذر من كل ذنب » يريد به ان العذر معتاد في الذنوب كلها الا من الشيب .

فان قيل : فقد سمى الشيب ذنباً وجعله من جملة الذنوب ، وليس بذنب على التحقيق .

قلنا : انما سماه ذنباً تجوزاً واستعارة ، لأن النساء يستذنبن به ويؤاخذن بحلوله ونزوله وان لم يكن على الحقيقة ذنباً ، ومن حيث لم يك ذنباً لم يكن عنه اعتذار ولا تنصل .

* * *

وله أيضاً :

عيرتني المشيب وهي برته   في عذاري بالصد والاجتناب
لاتريه عاراً فما هو بالشيب   ولكنه جلاء الشباب
وبياض البازى اصدق حسناً   لو تأملت من سواد الغراب

* * *

وله أيضاً :

ها هو الشيب لائماً فأفيقي   واتركيه ان كان غير مفيق
فلقد كف مـن عناء المعنى   وتلافى من اشتياق المشوق
عذلتنا في عشقها ام عمرو   هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمـة ألـم بها الشيب فريعت مـن ظلمة في شروق
ولعمري لـولا الا قاحى لأبصرت انيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يكمل   ببياض ماكان بالموموق
ومزاج الصهباء بالماء أملا   بصبوح مستحسن وغبوق
اي ليل يبهى بغير نجـوم   أو سماء تندى بغير بروق

قال الامدي : أخذ قوله « أي ليل يبهى بغير نجوم » من قول الشاعر :

اشيب ولم اقض الشباب حقوقه   ولم يمض من عهد الشباب قديم
تفاريق شيب في السواد لوامع   ومـا خير ليل ليس فيـه نجوم

وقد قلنا : انه لاينبغي أن يقال اخذ فلان كذا من فلان ، وانما يقال في البيتين انهما يتشابهان ويتشاكلان وان هذا نظيرذاك ويزادعلى ذلك . ويشبه قول البحتري:

ولعمرى لولا الاقاحى لأبصرت انيق الرياض غير انيق

قول الشاعر :

لا يرعك المشيب يـا ابنـة عبدالله فالشيب حلية ووقار
انما تحسن الرياض اذا ما   ضحكت في خلالها الأنوار

وقدشبهت الشعراء الشيب بالنجوم وبالنور ، وهوطريق مسلوك معهود ،فمن محسن فيالعبارة ومسيء ومستوف ومقصر، وسأنبه على ذلك وعلى ما يحضرني فيه عند الانتهاء الى ما اذكره من شعري بمشيئة الله وعونه .

* * *

وله أيضاً :

فان ست وستون استقلت فقدكرت بطلعتها الخطوب
لقد سر الاعادي في اني برأس العين محزون كئيب
واني اليوم عن وطني شريد بلا جرم ومن مالي حريب
تعاظمت الحوادثحول حظي وشبت دون بغيتي الحروب
على حين استتم الوهن عظمي واعطىفي مااحتكم المشيب

* * *

وله أيضاً :

قنعت على كره وطأطأت ناظري الى رنق مطروق من العيش حشرج
وجلجلت في قولي وكنت متى اقل بمسمعة في مجمع لا الجلج
يظن العدى اني فنيت وانما هي السن في برد من العيش منهج
نضوت الصبى نضوالرداء وساءني مضي اخي امس متى يمض لا يجي

* * *

وله أيضاً :

ومعيري بالدهر يعلم في غد ان الحصاد وراء كل نبات
أبني اني قد نضوت بطالتي فتحسرت وصحوت من سكراتي

نظرت الي الأربعون فأضرجت شيبي وهـزت للحنو قنـاتي
وأرى لدات ابي تتابع كثرهم فمضوا وكر الدهر نحو لداتي
ومـن الأقارب من يسر بميتتي سفهـاً وعز حياتهم بحياتـي

وأحسن كل الاحسان في هذا الكلام العذب الرطب مع متانة وجزالة، ولقوله « فأضرجت شيبي وهزت للحنو قناتي » الحظ الجزيل من فصاحة وملاحة.

(مضى ما للبحتري)

وهذا ما اخرجته لاخي الرضي رضي الله عنه في الشيب

قال رضي الله عنه وهو ابتداء قصيدة :

دوام الهوى في ضمان الشباب ومـا الحب الا زمان التصابي
أحين فشـا الشيب في شعره وكتم أوضاحه بالخضاب
تروعين أوقاته بالصدود وترمين أيامه بالسباب
تخطى المشيب الى رأسه وقـد كان أعلى قبـاب الشباب
كذاك الريـاح اذا استلأمت تقصف أعلى الغصون الرطـاب
مشيب كمـا استل صدر الحسام لـم يرو مـن لبثـه في القراب
نضى فاستباح حمـى الملهيات وراع الغواني بظفر وناب
وألوى بجدة أيامه فأصبح مقـذى لعيـن الكعاب
تستر منـه مجـال السوار اذا ما بدا ومناط النقاب

قوله « لم يرو من لبثه في القراب » استعارة مليحة، وانما أشار الى أن الشيب عجل على سواده في غير حينه وأبانه، لأنه لمـا شبه طلوع الشيب بسله السيف اراد أن يبين مع هذا التشبيه سرعة وفوده في غير وقته، فقال « لم يرو من لبثه في

القراب » تحقيقاً للمعنى الذي ذكرناه .

* * *

وله هو ابتداء قصيدة :

مسيري فـي ليل الشباب ضلال وشيبي ضياء في الورى وجمال
سواد ولكن البياض سيادة وليل ولكن النهار جلال
وما المرء قبل الشيب الا مهند صدي وشيب العارضين صقـال
وليس خضاب الرأس الا تعلة لمن شاب منـه عارض وقـذال

* * *

وله من جملة قصيدة :

ضاع الشباب فقل لي اين أطلبه وازور عن نظاري البيض الرعاديد
وجرد الشيب في فودي ابيضه ياليتـه فـي سواد الشعر مغمود
بيض وسود برأسي لايسلطهـا على الذوائب الا البيض والسود

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

لون الشبيبة أنصل الألوان والشيب جل عمائم الفتيان
نبت بأعلى الرأس يرعاه الردى رعى المطي منابت الغيطان
الشيب احسن غير أن غضارة للمرء في ورق الشباب الانى
وكذا بياض الناظرين وانمـا بسوادها تتأمل العينان

* * *

وله من قصيدة :

تنفس في رأسي بياض كأنه صقال ترامى فى النصول الذوالق
وما جزعي ان حال لون وانما ارى الشيب عضباً قاطعاً حبل عاتقى
فما لى اذم الغادرين وانما شبابى اوفى غادر بى وماذق
تعيرني شيبي كأنى ابتدعته ومن لى ان يبقى بياض المفارق
وان وراء الشيب ما لا اجوزه بعائقة تنسى جميع العوائق
وليس نهار الشيب عندي بمزمع رجوعاً الى ليل الشباب الغرانق

نظير قوله «ومن لي ان يبقى بياض المفارق» قول البحتري « ومن لي ان أمتع بالمعيب » ، وأحسن مسلم بن الوليد في قوله :

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مردود
يمضي الشباب ويأتي بعده خلف والشيب يذهب مفقوداً بمفقود

ومعنى قوله « مفقوداً بمفقود » أي انه يمضي صاحبه معه ويفقد بفقده، وليس كذلك الشباب . ومعنى قوله « وماجزعي ان حال لون » أي ليس في التغير ما أجزع له لكنني أرى الشيب كالسيف الذي يقطع حبل عاتقي . وهذا مع انه تشبيه للون الشيب بلون السيف ، يفيد أن حلول الشيب به في قطع آماله وحسم لذاته وتغيير أحواله يجري مجرى قطع السيف لحبل عاتقه ، وقد أحسن كل الاحسان فى هذه الأبيات ، فما أجود سبكها وأسلم لفظها وأصح معانيها .

* * *

وله من جملة قصيدة :

ولى الشباب وهذا الشيب طارده يفدي الطريدة ذاك الطارد العجل

ما نازل الشيب في رأسي بمرتحل عني وأعلم انى عنه مرتحل
من لم يعظه بياض الشعر ادركه في غرة حتفه المقدور والاجل
من اخطأته سهام الموت قيده طول السنين فلا لهو ولا جذل

* * *

وله وهو اول قصيدة :

اراعى بلوغ الشيب والشيب دائباً وأفنى الليالي والليالي فنائيا
تلون رأسي والرجاء بحاله وفى كل حال لايغب الأمانيا

ومنها :

وعارية الايام عندى شبيبة اساءت لها قبل الأوان التقاضيا
ارى الدهر غصاباً لما ليس حقه فلا عجب ان يسترد العواريا
وما شبت من طول السنين وانما غبار حروب الدهر غطى سواديا
وما انحط اولى الشعر حتى نعيته فبيض هم القلب باقي عذاريا

ويشبه تشبيهه الشيب واضافته ذلك الى حروب الدهر قول ابن المعتز:

صدت شرير وازمعت هجرى وصغت ضمائرها الى الغدر
قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

وقال ابن الرومي :

اطار غبار الشيب فوق مفارقى تلوى سني الراكضات اماميا

ولأبي الجنوب :

قالت أرى شيباً برأسك قلت لا هـذا غبار مـن غبار العسكر

وقصر غاية التقصير عن ابن المعتز وابن الرومي ، لأنهما مع التشبيه للشيب

بالغبار في اللون أضافاه من وقائع الدهر وركض السنين الى سبب لهذا الغبار وموجب ، فعماده على كل حال سبب ، وأبو الجنوب حصل على تشبيه اللون المحض الصرف ، فزيادتهما عليه غير مجهولة .

ولي ما فيه بعض الشبه بما ذكرناه لكنه في وصف الابل ، وهو :

ويهززن عن داعي المراح مفارقاً بلا شمط الا بياض غبار

فهذا البيت تضمن تشبيه بياض الغبار بالشمط، ولهذا حسن استثناؤه من الشمط من حيث اشبهه وان لم يكن من جنسه . وما تقدم لأخي رضي الله عنه ولابن المعتز فيه تشبيه الشيب وبياضه بالغبار ، والمعنى يتقارب ، لأن الشيء اذا أشبه غيره فذلك الغير مشبه له .

وأقسم قسماً برة اني لما نظمت هذا البيت في وصف الابل ما كنت سمعت قبله من أحد في نظم ولا نثر تشبيه الشيب بالغبار ، وانما اتفق على سبيل التوارد لأن تشبيه هذا بذلك أمر مشاهد يجوز أن يقع لمن فكر من غير اتباع منه لغيره، ولهذا أنكر أبداً على من تقدم من العلماء فيقول اخذ فلان من فلان اذا وقفوا على متشابه بين معانيه .

* * *

وله من جملة قصيدة :

عقيب شباب المرء شيب يخصه اذا طال عمراً اوفناء يعمه

طليعة شيب خلفها فيلق الردى برأسي له نقع وبالقلب كلمه

قوله « برأسي له نقع » مثل قوله « غبار حروب الدهر » ، وماذكرناه من نظائره .

ومعنى « شيب يخصه » أي يخص الشباب ، فالهاء كناية عن الشباب .

وقوله « أو فناء يعمه » يعني يعلم المرء ، فالهاء في يعمه كناية عن المرء نفسه .

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

أشوقاً وما زالت لهن قباب — وذكر تصاب والمشيب نقاب
وغير التصابي للكبير تعلة — وغير الغواني للبياض صحاب
ومـا كل أيام المشيب مريرة — ولاكل ايام الشباب عذاب
أؤمل مـالا يبلغ العمر بعضه — كأن الذي بعد المشيب شباب
وطعم لبازي الشيب لاشك مهجتي — اسف على رأسى وطار غراب
لداتك اما شبت واتبعوا الردى — جميعاً وامـا ان رديت وشابوا

هذه الأبيات قوية مستوية مطبوعة الألفاظ بعيدة من التكلف، والبيت الأخير يتضمن قسمة عليها بعض الطعن ، لأنه قد يشيب ولا تموت لداته بأن يشيبوا أيضاً معه أو بعضهم، وكذلك قد يموت هو ويموت بعض لداته ، فليس الواجب أنـه متى شاب مات جميع لداته ولا أنه متى مات شاب جميعهم، والقسمة تقتضي تعاقب كل واحد مـن الأمرين ووجوب أحدهما ، وقـد بينا ان الأمر بخلاف ذلك ، والقسمه الصحيحة هي قولي:

والشيب ان فكرت فيه مورد — لابد يورده الفتى ان عمرا

وقولي :

من عاش لم تجن عليه نوب — شابت نواحي رأسه او هرما

وقولي :

* ومن ضل عن ايدى الردى شاب مفرقا *

* * *

وله من اثناء قصيدة :

ألا أين ذاك الشباب الرطيب ام اين لي بيض اياميه
مشى الدهر بيني وبين النعيم ظلماً وغير من حاليه
نظرت وويل امها نظرة لبيضاء في عارضي باديه
يقولون راعية للشباب فقلت ولكنها ناعيه

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

ما ابيض من لون العوارض افضل وهوى الفتى ذاك البياض الأول
مثلان ذا حرب الملام وذا له سبب يعاون من يلوم ويعذل
أونو الى يفق المشيب فلا ارى الا قواضب للرقاب تسلل
واللمة البيضاء أهون حادث في الدهر لو أن الردى لايعجل
ولقد حملت شبابها ومشيبها فاذا المشيب على الذوائب اثقل

تشبيه بياض الشيب ببياض السيوف يمضى كثيراً في الشعر ويتردد ، فأما الاستثقال بحمل الشيب من أحسن ما قيل فيه قول علي بن جبلة وربما رويت لدعبل بن علي الخزاعي :

ألقى عصاه وأرخى من عمامته وقال ضيف فقلت الشيب قال أجل
فقلت اخطأت دار الحي قال ولم مضت لك الاربعون الوفر ثم نزل
فما شجيت بشيء ما شجيت به كأنما اعتم منه مفرقي بحبل

* * *

وله من جملة قصيدة :

أرى شيبة في العارضين فيلتوى بقلبى حراها جوى وغليل
ومن عجب غضى من الشيب جازعاً وكرى اذا لف الرعيل رعيل

* * *

وله من أثناء قصيدة :

اذا ما الفتى لم يكسه الشيب عفة فما الشيب الا سبة للأشايب

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

ارابك من مشيب ما ارابا وما هذا البياض علي عابا
لئن أبغضت مني شيب راسى فانى مبغض منك الشبابا
يذم البيض من جزع مشيبي ودل البيض اول ما اشابا
وكانت سكرة فصحوت عنها وانجب من ابى ذاك الشرابا

يريد بقوله « فاني مبغض منك الشبابا » انني قد عرفت وانصرفت عن الشغف بالنساء وهواهن فما ابالي بشبابهن ولا كبرهن وهما عندي سيان في الأعراض عنه ، يدلك على ذلك البيت الأخير .

* * *

وله من جملة قصيدة :

وقالوا الشيب زار فقلت أهلا بنور ذوائب الغصن الرطيب

ولـم اك قبل وسمك لي محباً فيبعدني بياضك عن حبيبي
ولا ستر الشباب علي عيباً فأجزع ان تنم على عيوبي
ولم ادمم طلوعك بي لشيء سوى قرب الطلوع الى شعوب

أما تشبيهه الشيب في بياضه بالنور فهو طريق مهيع ويجيء في الشعر كثيراً ، وقد نبهنا في ما مضى من شعر البحتري على شيء منه ، وان كان هذا المعنى أكثر من أن يحصى .

فأما البيت الذي أوله « ولم اك قبل وسمك لي محباً » فيشبهه قول البحتري:

أعاتك ما كان الشباب مقربي اليك فألحى الشيب اذ كان مسعدي

من وجه وان خالفه من آخر ، والوجه الذي كأنهما يشتبهان منه أن المشيب لم يزده بعداً من الغواني وانه على ما كان عليه في حال الشباب . ويختلفان من حيث صرح أخي رحمه الله بأنه ما كان محباً تنزهاً وتصاوناً ، فاستوت فيه حال الشيب والشباب ، والبحتري ذكر أنه كان مبعداً مقصى في الحالين فلم يزده الشيب شيئاً.

وقوله « ولا ستر الشباب علي عيباً » البيت ، في غاية حسن المعنى واللفظ ، وكأنه غريب ، لأني لا أعرف الى الان نظيره .

* * *

وله من جملة قصيدة :

فكيف بالعيش الرطيب بعد ما حط المشيب رحله في شعرى
سواد رأس ام سواد ناظر فانه مذ زار اقذى بصرى
مـا كان أضوأ ذلك الليـل على سواد عطفيه ولما يقمر
عمر الفتي شبابه وانما آونة الشيب انقضاء العمر

نظير قوله رحمه الله « ما كان أضوأ ذلك الليل من شعري » قولي :

صدت وما صدها الا على ياس من أن ترى صبغ فوديها على راسى
احبب اليها بليل لا يضىء لها الا اذا لم تسر فيه بمقباس

والمعنى في بيتى مشبه للمعنى في بيته رحمه الله ، وان كان بينهما من الفرق ما اذا تؤمل عرف ، ولابد من الاشارة الى بعض ما افترقا فيه :

قوله رحمه الله « ماكان أضوأ ذلك الليل علي » البيت ، انما يفيدالاخبارعن ضوئه وان لم يكن مقمراً ، ولايفيد أنه اذاكان مقمراً لايكون مضيئاً، لأنه غيرممتنع أن يكون مضيئاً على الحالين . والبيت الذي لي يفيد أنه لايضىء لهذه المرأة الا اذا لم يكن فيه مقباس ، فأفاد نفي اصابته لها الا مع الظلام وفقد الأنوار كلها . وهذا هو المعنى المقصود الذي يخالف العادة ويقتضي العجب .

وأيضاً فان البيت الذي تضمن أنه لايضىء لهذه الغانية الا اذا لم يكن فيه مقباس ، قد تضمن تحقيقاً شديداً ، لأن هذه الحال تختص بالغانيات اللواتي يكرهن الشيب وينفرن منه . والبيت الاخير يتضمن الاطلاق للخبرعن اضاءة الليل من غير اقمار ، والاطلاق على ظاهره لايصح ، لأن سواد الشعر المشبه بسواد الليل يضىء في أعين كل الناس اذا كان فيه الشيب بلون القمر ، وانما لايضىء في أعين النساء خاصة لنفورهن من الشيب ، فلابد من أن يريد بقوله « ما كان أضوأ ذلك الليل » عند النساء ، وان حذف لضيق الكلام وضرورة الشعر ، فما لاحذف فيه ولفظه مطابق للمعنى المقصود أولى .

* * *

وله من جملة قصيدة :

لا تأخذني بالمشيب فانه تفويف ذي الأيام لاتفويفى

لو أستطيع نضوت عني برده ورميت شمس نهاره بكسوف
كان الشباب دجنة فتمزقت عن ضوء لا حسن ولا مألوف
ولئن تعجل بالنصول فخلفه روحات سوق للمنون عفيف

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

أغدراً يا زمان ويا شباب اصاب بذا لقد عظم المصاب
وما جزعي لأن غرب التصابى وحلق عن مفارقى الغراب
فقبل الشيب اسلفت الغوانى قلى وامالنى عنها اجتناب
عففت عن الحسان فلم يرعنى المشيب ولم ينزقنى الشباب

معنى هذه الأبيات يوافق معنى البيت الذي ذكرناه له رحمه الله ، وهو :

ولم اك قبل وسمك لي محباً فيبعدنى بياضك عن حبيبي

يخالف معنى قول البحتري :

اعاتك ما كان الشباب مقربى اليك فألحى الشيب اذ كان مبعدي

لأن بيت البحتري انما تضمن انه كان في أيام الشباب مقصى بين الغواني محروماً وصالهن ، فلم يزده الشيب شيئاً ولا نقصه . وهذه الأبيات تنطق بأنه عف في شبابه وتنزه عن الغواني أنفة وصيانة ، فلاظلامة له في الشيب وهذه عادته وسجيته .

* * *

وله من جملة قصيدة :

فليت عشرين بت احسبها		باعدن بين الورود والقرب
اني اظما الى المشيب ومن		ينج قليلا من الردى يشب
وان يزر طالع البياض اقل		ياليت ليل الشباب لم يغب

* * *

وله وهي قطعة مفردة :

عجلت يا شيب على مفرقي		وأي عذر لك ان تعجلا
وكيف اقدمت على عارض		ما استغرق الشعر ولا استكملا
كنت ارى العشرين لي جنة		من طارق الشيب اذا اقبلا
فالان سيان ابن ام الصبى		ومن تسدى العمر الأطولا
يا زائراً ما جاء حتى مضى		وعارضاً ما غام حتى انجلى
وما رأى الراؤون من قبلها		زرعاً ذوى من قبل ان ينقلا
ليت بياضاً جاءني آخر		فدى بياض كان لي اولا
وليت صبحاً ساءني ضوءه		زال وأبقى ليله الاليلا
ياذابلا صوح فينانه		قد آن للذابل ان يختلى
حط برأسي يفقاً ابيضاً		كأنما حط به منصلا
هذا ولم اعد مجال الصبي		فكيف من جاوز او اوغلا
من خوفه كنت اهاب السرى		شحاً على وجهي ان يبذلا
فليتني كنت تسربلته		في طلب العز ونيل العلى
فالوادع القاعد يزرى به		من قطع الليل وجاب الفلا
قد كان شعرى ربما يدعي		نزوله بي قبل أن ينزلا
فالان يحميني ببيضائه		ان اكذب القول وان ابطلا
قل لعذولي اليوم عد صامتاً		فقد كفاني الشيب ان اعذلا

طبت به نفساً ومن لم يجد الا الردى اذعن واستقتلا
لم يلق من دوني لها مصرفاً ولم اجد من دونه موئلا

قوله « يا زائراً » والبيت الذي بعده والبيتان اللذان قبلهما من أحسن ما وصف به عجل الشيب ونزوله قبل أوانه .

وأما قوله « ليت بياضاً جاءني آخراً » البيت ، فانما يريد بالبياض الاخر الشيب والبياض الأول حال المرودة وابيضاض العارضين بفقد الشعر منهما .

وقوله « وليت صبحاً ساء ني ضوءه » في غاية الطبع والحلاوة . ومعنى « يختلى » أي يقطع ، وأصله قطع الخلاء الذى هو الحشيش .

وقوله « حط برأسى يققاً أبيضاً » تشبيه للشيب بالسيف في لونه وقطعه .

* * *

وله من جملة قصيدة :

الأن لما اعتم بالشيب مفرقى وجلى الدجى عن لمتى لمعانها
ونجذنى صرف الزمان ووقرت عن الحلم نفسى وانقضى نزوانها
يروم العدى ان تستلان حميتى وقبلهم اعيا علي حرانها

وهذه أبيات لها جزالة وقوة وبلاغة .

* * *

وله من أثناء قصيدة :

الى كم ذا التردد في التصابي وفجر الشيب عندي قد اضاء
فيا مبدى العيوب سقى سواد يكون على مقابحها غطاء

شبابي ان تكن احسنت يوماً فقد ظلم البياض وقد اساء

قد ملح بقوله « وفجر الشيب عندي قدأضاء »، والبيت الثاني جيد المعنى

* * *

وله من أثناء قصيدة :

وهذا وما ابيض السواد فكيف بي اذا الشيب مشى ليلة من عمائمي

وكنت ارى ان الشباب وسيلة لمثلي الى بيض الخدود النواعم

* * *

وله من أثناء قصيدة :

فالان اذ نبذ المشيب شبيبتي نبذ القذى واقام من تأويدى

وفررت عن سن القروح تجارباً وعاعلى قعس السنين عمودى

ولبست في الصغر العلى مستبدلا اطواقها بتمائم المولود

وصفقت في ايدى الخلائف راهناً لهم يدى بوثائق وعقود

وحللت عندهم محل المحتبى ونزلت منهم منزل المودود

فغر العدو يريد ذم فضائلى هيهات ألجم فوك بالجلمود

ولهذه الأبيات من الاطراد والاتساق وجودة السبك وصحة النسج ما تستغنى به عن شهادة لها وتنبيه عليها .

* * *

وله من جملة قصيدة :

ان اشك فعلك في فراق احبتى فلسوء فعلك في عذارى أقبح

ضوء تشعشع في سواد ذوائبى لا استضىء به ولا استصبح

بعت الشباب به على مقة له   بيع العليم بأنـه لا يربح

هذه أبيات محكمة في القلوب تحكيمها في الطبع وسلامة اللفظ وصحة النسج .

* * *

وله من أثناء قصيدة :

قل للعواذل مهلا فالمشيب غدا   يغدو عقالا لذي القلب الذي طمحا
هيهات احوج مع شيبي الى عذل   والشيب اعذل ممن لامني ولحى

* * *

وله من أثناء قصيدة :

قالوا المشيب فعم صباحاً بالنهى   واعقر مراحك للطروق الزائر
لو دام لي ود الاوانس لم ابل   بطلوع شيب وابيضاض غدائر
لكن شيب الرأس ان يك طالعاً   عندى فوصل البيض اول غائر
واهاً على عهد الشباب وطيبه   والغض من ورق الشباب الناضر
واهاً له لو كان غير دجنة   قلصت صبابتها كظل الطائر
خمس وعشرون اهتصرن شبيبتى   وألن عودى للزمان الكاسر
كان الشباب وراء ظل قالص   لأخى الصبى وامام عمر قاصر
وأرى المنايا ان رأت بك شيبة   جعلتك مرمى نبلها المتواتر
تعشو الى ضوء المشيب وتهتدي   وتضل في ليل الشباب الغائر
لو يفتدى ذاك السواد فديته   بسواد عينى بل سواد ضمائرى
أبياض رأس واسوداد مطالب   صبراً على حكم الزمان الجائر

ان اصفحت عنه الخدود فطالما عطفت له بلواحظ ونواظر
ولقد يكون وما له من عاذل فاليوم عاد وما له من عاذر
كان السواد سواد عين حبيبه فغدا البياض بياض طرف الناظر
لو لم يكن في الشيب الا أنه عذر الملول وحجة للغادر

أما قوله « واعقر مراحك للطروق الزائر » فمن مليح اللفظ ورشيقه، لأن الضيف الزائر انما يعقر له الأنعام والشيب اذا زار فانما يعقر له الطرب والمراح والارن والنشاط .

وأما البيت الثالث من هذه الأبيات الذي أوله «لكن شيب الرأس ان يك طالعاً» والثاني الذي اوله « ان أصفحت عنه الخدود » فمعناهما يكثر ويتكرر في الشعر، لان الطريق المسلوك في ذم الشيب هو من حيث ينفر النساء منه ويعرضن عنه ويقطعن حبل وصل صاحبه ، وفي هذا من الشعر ما لا يحصى ، والعبارات عنه مختلفة في اختصار واطالة وضعف وجزالة وطبع وتكلف ، ويمضي فيما اخرجته من شعري هذا المعنى كثيراً بألفاظ مختلفة ومواقع متباينة، وأنت ترى ذلك اذا انتهينا اليه .

وقد أحسن صخر بن حنباء التميمي في قوله :

فان اك بدلت البياض وأنكرت معالمه مني العيون اللوامح
فقد يستجد المرء حالا بحالة وقد يستشن الجفن والنصل جارح
وما شان عرضي من فراق علمته ولا اثرت في الخطوب الفوادح

ولجرير :

بان الشباب وقال الغانيات لقد ولى الشباب وأودى عصرك الخالي
قد كن يفزعن من صرمي ومقليتي فاليوم يهزأن من وصلي وادلالي

ولبعض العرب :

يا جمل ان سل سربال الشباب فما … يبقى جديد مـن الدنيا ولا خلق
صدت امامـة لما جئت زائرهـا … عني بمطروفـة انسانها غرق
وراعها الشيب في رأسي فقلت لها … كذلك يصفر بعد الخضرة الورق

وقال ابن الرومي وجود :

كبرت وفي خمس وستين مكبر … وشبت فاجمـال المها منـك نفر
اذا ما رأتك البيض صدت وربما … غدوت وطرف البيض نحوك اصور
وما ظلمتك الغانيات بصدها … وان كان من احكامها ما يحور
اعر طرفك المرآة وانظر فان نبا … بعينك عنك الشيب فالبيض اعذر
اذا شنئت عيـن الفتى وجـه نفسه … فعين سواه بالشناءة اجدر

فأما قوله في الأبيات التي نحن في الكلام على معناها « قلصت صبابتها كظل الطائر » فانما يريد به سرعة انتقاله وزواله ، لأن ظل الطائر وشيك الزوال متدارك الانتقال .

وأما قوله « وأرى المنايا ان رأت بك شيبة » والبيت الذي بعده وأوله « تعشو الى ضوء المشيب فتهتدي » فانني رأيت هذا المعنى لابن الرومي في قطعة له وما رأيته لأحد قبله ويقوى في الظن أنه سبق اليه ، والأبيات :

كفى بسراج الشيب في الرأس هاديا … الى مـن اضلته المنايا لياليـا
أمن بعد ابـداء المشيب مقاتلي … لرامي المنايـا تحسبيني ناجيـا
غدا الـدهر يرميني فتدنو سهامـه … لشخصي اخلق ان يصبن سواديا
وكان كرامي الليل يرمي ولا يـرى … فلما اضـاء الشيب شخصي رمانيـا

ولقد أحسن في البيت الاخير كل الاحسان ، لأن المعنى الذي قصده تكامل فيه وانتهى الى الغاية عنده وساعده اللفظ وحسن العبارة، فلم يبق عذر في قبول القلوب له وعلوقها به. ومن شأن ابن الرومي أن يورد المعنى ثم يأخذ في شرحه في بيت آخر وايضاحه وتشعيبه وتفريعه ، فربما أخفق وأكدى وربما أصاب فأصمى ، لأن الشعر انما تحمد فيه الاشارة والاختصار والايماء الى الأغراض وحذف فضول القول .

وفي هذه الابيات قد اتفق له لما كرر المعنى واعاده وابداه خلص في البيت الاخير وصفاً وعذب مذاقة ، لأنه في أول البيت قد أشار الى هذا المعنى الموجود في آخرها ، وفي البيت الثاني أيضاً قد اعاد ذلك ، وفي البيت الثالث قد ألم بالمعنى بعض الالمام ، لأنه ذكر أن سهام الدهر تقرب منه وأخلق أن تصيب سواده يعني شخصه ، ولم يذكر العلة في اصابتها له ، وهي اضاءة الشيب لمقاتله وهدايتها الى مراميه كما ذكره في البيتين الأولين ، وطبق المفصل في البيت الرابع ، لانه جعل الدهر في زمان الشباب يرميه بسهامه وهو لا يراه لأن سواد شبابه ساتر له .

ومعنى « كرامي الليل » الرامي في الليل ، فالليل ظرف للرامي وليس بمفعول صحيح . ثم قال « فلما اضاء الشيب شخصي رمانيا » ومعنى رمانيا اصابني، كما قال الشاعر :

ولما رمى شخصي رميت سواده ... ولا بد أن يرمى سواد الذي يرمي

وفي شعري ما يشبه هذا المعنى ، وهو :

ولاح بمفرقي قبس منير ... يدل على مقاتلي المنونا

فأما قوله رحمه الله في الابيات « ولقد يكون وماله من عاذل » فمعناه متكرر في الشعر متردد ، والشباب أبداً يوصف بأن صاحبه معذور مغتفر الجرم وذو الشيب

مؤاخذ بما لم يجنه متجرم عليه .

وقوله في آخر الأبيات « عذر الملول وحجة للغادر » من لطيف القول وسليم النسج .

* * *

وله من أثناء قصيدة :

لهفي لأيام الشباب على ندى أطرافهن وظلهن الابرد
أيام انفض للمراح ذوائبي واروح بين معذل ومفند

ومنها :

وبياض ما بيني وبين احبتي يوم اللقاء من العذار الأسود

* * *

وله من اثناء قصيدة :

ولم يبق لي في الأعين النجل طربة ولا ارب عند الشباب الذي يمضي
صحا اليوم في ظـل الشبيبة مفرقي وابـدل مسود العـذار بمبيض

* * *

وله من جملة قصيدة :

ليالي مـن لي برد الشبـاب مني غصن رطيب المجاني
وقد رحل البيض من لمتي بطفل الأماني بض البنان
أفالان لما اضاء المشيب وامسى الصبى ثانياً من عناني
وقد صقل السيف بعد الصدا وبان لظى النار بعد الدخان

يرد الزمان علي الهوى ويطمع فى هفوة من جناني

أما تشبيه السواد في الشعر بالصدأ وبياض الشيب بالصقال والجلاء فمذهب معروف متداول ، لكن الغريب المليح تشبيه سوادالشباب بالدخان وبياض الشيب ببياض النار .

❋ ❋ ❋

وله في ذم المشيب وهى قطعة مفردة :

خذا اليوم كفى للبياع على النهى فلم يبق للاطراب عين ولا اثر
وقد كنت لا اعطى العواذل طاعة واعذر نفسى في التصابي ولاعذر
نقضت لبانات الصبى وتصرمت فلا نهى للاحي علي ولا أمر
ولا تحسبا انى تصوت بطالتى نزوعاً ولكن صغر اللذة الكبر
ولا امترى ان الشباب هو الغنى وان قل مال والمشيب هو الفقر

❋ ❋ ❋

وله أيضاً في ذم المشيب وهى قطعة مفردة :

ياعذولى قدغضضت جماحى فاذهبا اين شئتما بزمامى
بعد لوثى عمامة الشيب اختال ببردى بطالة وعرام
خفضت نزوة الشباب وحال الهم بين الحشا وبين الغرام
ايها الصبح زل ذميماً فما اظلم يومى من بعد ذاك الظلام
ارمضت شمسك المنيرة فودي فمن لى بظل ذاك الغمام
غالطونى عن المشيب وقالوا لا ترع انه جلاء الحسام
قلت ما امن من على الرأس منه صارم الحد فى يد الأيام

ان ذنبي الى الغواني بشيبي ذنب ذئب الغضا الى الارام
كـن يبكين قبله مـن وداعي فبكاهـن بعده مـن سلامي

ما أحسن هذه الأبيات وأرطب أطرافها وأعذب ائتلافها .

* * *

وله وهي قطعة مفردة :

لجام للمشيب ثنى جماحي وذللني لأيـامي وراضا
اقر بلبسه ولقد اراني اجاحده اباء وامتعاضا
تعوضت الوقار من التصابي اشد على المعوض ما استعاضا
لوى عني الخدود من الغواني وقطع دوني الحدق المراضا
فصار بياضه عندي سواداً وكان سواده عندي بياضا

أراد بالبيت الأخير أن بياض الشيب صار سواداً لقلبه أي هماً وحزناً ، اوأنه سود ما بينه وبين حبائبه واظلم ما كان مشرقاً من ودهن وكان سواده بياضاً بمعنى الضد من هذه الأحوال .

* * *

وله من قصيدة :

شيب ومـا جزت الثلاثين نزل نـزول ضيف ببخيل ذي علـل
يصرف عنه السمع ان ارغى الجمل ولا يقول ان اناخ حي هـل
كأنه لمـا طرا على عجل سواد نبت عمه بياض طـل
يجيء بـالهـم ويمضي بالأجل فأوه ان حل وواهاً ان رحـل
أبـدل مـن الشباب لا بدل سرعان مـا رق الأديـم ونغل

لهذه الأبيات حظ جزيل من قوة وفصاحة، وقد قالت الشعراء في تعجيل الشيب قبل أوانه فأكثرت والمراعى في المعانى المتداولة المتناولة التجويد ، وقد قال ابن الرومي :

أرى بقر الأنس مني تراع اطيش ما كنت عنها سهاما
وأنى تفرع رأسى المشيب ولم اتفرع ثلاثين عاما

قوله « أطيش ما كنت عنها سهاما » قد كرره شغفاً به في قوله أيضاً :

أقول ومرت ظبيتان فصدتا وراعتهما منى مفارق شيب
أطيش ما كانت سهامي عنكما تصدان عنى ان ذا لعجيب

ومن جيد القول في التلهف على الشباب والتأسف على فراقه قول ابن الرومي:

لا تلح من يبكى شبيبته الا اذا لم يبكها بدم
عيب الشبيبة غول سكرتها مقدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها الا زمان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الأرض بالظلم
ولرب شيء لا يبينه وجدانه الا مع العدم

❊ ❊ ❊

وله من قصيدة :

دع للمشيب ذمه ان لـه عندي بدا
اعتق من رق الهوى مـذللا معبـدا
لكن هوى لي ان ارى لون عذارى أسودا
مـرا البياضان عليه شائبـاً وامردا

ما اخلق البرد فلم بـدل لى وجـددا

معنى البيت الأخير مليح جداً ، لأن الاستبدال على العادة انما يكون مع الاخلاق والرثاثة ، ولا معنى لابدال ما لم يخلق وتجديده .

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

ترى نوب الأيام يرجى صعابها ويسأل عن ذي لمة ما أشابها
وهل سبب للمرء من بعد هذه فدأبك يالون الشباب ودابها
شربنا مـن الأيام كأساً مريرة تدار بأيـد لا يرد شرابها

ومنهـا :

خطوب يعن الشيب في كل لمة وينسين ايام الصبى ولعابها

* * *

وله وهي قطعة مفردة :

صدت وما كان لها الصدود وازورعني طرفها والجيد
تقـول لما اخلق الجديد اذا البجال ذلل الوليد

البجال : الشيخ الكبير .

فأين ذاك الخضل الأملود ريان من ماء الصبى يميد
تصحبه اللحظ العذارى الغيد غدا الغزال اليوم وهو سيد
قلت نعم ذاك الذي أريد مضى حبيب قلمـا يـعود
أشد ما أو جعنى الفقيد ايامنا بعد البياض سود

* * *

وله وهي قطعة مفردة :

قال لي عند ملتقى الركب عمرو   قوم العود بعدنا فانصاتا
اين ذاك الصبى وذاك التصابي   سبقا الطالب المجد وفاتا
من قضى عقبة الثلاثين يغدو   راجعاً يطلب الصبى هيهاتا
لم تزل والمشيب غير قريب   ناعياً للشباب حتى ماتا
كنت تبكى الأحيـاء فاستكثر اليوم مـن الدمع واندب الأمواتا

* * *

وله وهي قطعة مفردة :

تشاهقن لما ان رأين بمفرقي   بياضاً كأن الشيب عندي من البدع
وقلن عهدنا فوق عاتق ذاالفتى   رداء من الحوك الرقيق فما صنع
ولم ارعضباً عيب منـه صقاله   وكان حبيباً للقلوب على الطبع
وقالوا غلام زين الشيب رأسه   فبعداً لرأس زانه الشيب والترع
تسلى الغوانيعنه من بعد صبوة   ومابعدالنبت الهشيم من النجع
وكن يخرقن السجوف اذا بدا   فصرن يرقعن الخروق اذا طلع

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

ألهاك عنا ربة البرقع   مر الثلاثين الى الأربع
انت اعنت الشيب في مفرقي   مع الليالى فصلى أو دعى

* * *

وله وهي قطعة مفردة :

أ اميم ان أخاك غض جماحه بيض طردن عن الذوائب سودا
عقب الجديد اذا مررن على الفتى مر القوادح لم يدعن جديدا
قد كان قبلك للحسان طريدة فاليوم راح عن الحسان طريدا
حولن عنه نواظراً مزورة نظر القلى ولوين عنه خدودا
نشد التصابي بعد ما ضاع الصبى عرضاً لعمرك يا اميم بعيدا

* * *

وله وهي قطعة مفردة :

تمل من التصابي قبل تمسى ولا امم صباك ولا قريب
سواد الرأس سلم للتصابي وبين البيض والبيض الحروب
وولاك الشباب على الغواني فبادر قبل يعذلك المشيب

هذا المصراع من البيت الأخير مليح اللفظ .

* * *

وله من جملة قصيدة :

راحت تعجب من شيب ألم به وعاذراً شيبه التهمام والأسف
ولا تزال هموم النفس واردة رسل البياض الى الفودين تختلف
ان الثلاثين والسبع التوين به عن الصبى فهو مزور ومنعطف

قوله « وعاذراً شيبه التهمام والأسف » من أخصر عبارة وأبلغها من هذا المعنى.

* * *

ولـه من اثناء قصيدة :

فيا حادى السنين قف المطايا   فهـن على طريق الأربعينا
واب الرأس بعدك صوحتـه   بـوارح شيبة فغدا حنينا
وكان سواده عند الغواني   يعدن الى مطالعه العيونا
اتاجرها فأربح في التصابى   وبعض القوم يحسبني غبينا
أهان الشيب مـا اعززن منـه   وعز على العقائل أن يهونا
جنون شبيبة ووقار شيب   خذا عنى الصبى ودعـا الجنونا

* * *

ولـه من قصيدة :

وطـارق للشيب حييته   سلام لا الراضى ولا الجاذل
أجرىعلىعودي ثقاف النهى   جري الثقافين على الذابـل
واعرنى عقر مراحى لـه   لادر در الشيب من نازل
فاليوم لا زور ولا طربـة   نـام رقيبى وصحا عاذلى

* * *

ولـه من قصيدة :

ورأت وخط مشيب طـارق   وخط التهمام قلبى فوخط
ما لها تنكر مع هذا الشجى   وقعـات الشيب بالجعد القطط

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

من شافعي وذنوبي عندها الكبر ... ان البياض لذنب ليس يغتفر
رأت بياضك مسوداً مطالعه ... ما فيه للحب لا عين ولا اثر
وأي ذنب للون راق منظره ... اذا أراك خلاف الصبغة النظر
وما عليك ونفسي فيك واحدة ... اذا تلون في ألوانه الشعر
أنساك طول نهار الشيب آخره ... وكل ليل شباب عيبه القصر
ان السواد على لذاته لعمى ... كما البياض على علاته بصر
البيض اوفى وابقى لي مصاحبة ... والسود مستوفزات للنوى غدر
كنت البهيم واعلاق والهوى جدد ... فأخلقتك حجول الشيب والغرر
وليس كل ظلام رام غيهبه ... يسر خابطه ان يطلع القمر

تسلية الغواني النافرات من الشيب الحائدات عن صاحبه بأن حلوله ما أحال عهداً ولاغير وداً طريق مسلوكة وجدد مألوفة ، وسيأتي في شعري من هذا المعنى ما يوقف عليه في موضعه ، ومن جملة قولي :

وما ضرني والعهد غير مبدل ... تبدل شرخي ظالماً بمشيبي

وقولي :

ان كنت بدلت لوناً ... فما تبدلت حبا

وقولي :

ولا لوم يوماً من تغير صبغتي ... اذا لم يكن ذاك التغير في عهدي

وأماقوله رحمه الله « انساك طول نهار الشيب آخره » فمعناه ان الشيب لامتداد ايامه ينسي ذكر عواقبه ومصائره التي هي الموت والفناء .

ومن مليح اللفظ قوله : « وكل ليل شباب عيبه القصر » .

وأما قوله « البيض أوفى وابقى اي مصاحبة » فنظيره قول الشاعر :

والشيب ان يظهر فان وراءه   عمراً يكون خلاله متنفس

ومن شعري قولي :

عمر الشباب قصير لابقاء له   والعمر فى الشيب يااسماء ممدود

* * *

ولهامن قصيدة :

شيع بالقطر الروا   ذاك الشباب الراحل
ما سرنى من بعده   الاعواض والبدائل
ماضر ذي الأيام لو   أن البياض الناصل
كل حبيب ابداً   ايامه قلائل
ظل وكم يبقى على   فوديك ظل زائل
لقد رأى بعارضيك   ما احب العاذل
واسترجعت منك اللحاظ   الخرد العقائل
وأغمدت عنك نصول   الأعين القواتل
فلا الدماليج يقعقعن   ولا الخلاخل
فان وعدن فاعلمن   ان الغريم ماطل
ووعد ذي الشيبة   بالوصل غرور باطل

* * *

وله من قصيدة :

ما لقائي من عدوي كلقائي من مشيبي
موقد ناراً أضاءت فوق فودي عيوبي
وبياض وهو عند البيض من شر ذنوبي

يمكن أن يكون معنى قوله رضي الله عنه « اضاءت فوق فودي عيوبي » انها كانت مستورة بالشباب معرض عن ذكرها والتقريع بها لوسيلة الشباب وفضيلته ، فلما مضى ظهر منها ما كان مستوراً حاله .

ويمكن غير هذا الوجه ، وهو : أنه لم يرد ان عيباً له كان كامناً مستوراً فظهر بل يريد أنه بالمشيب تمحلت له عيوب وتكذبت عليه وأشيعت عنه ، وان ضوء المشيب هو الذي كان السبب فيها .

ويمكن وجه ثالث ، وهو : أن يريد بالعيوب نفس الشيب لا شيئاً سواه ، وانه لما أضاء برأسه وعيب به كان مظهره وناشره في رأسه كأنه مظهر لعيوبه ومعلن لها .

* * *

وله وهو ابتداء قصيدة :

ما للبياض والشعر ما كل بيض بغرر
صفقة غبن في الهوى بيع بهيم بأغر
صغره في اعين البيض بياض وكبر
لولا الشباب ما نهى على المها ولا امر
ما كان اغنى ذلك المفرق عن ضوء القمر
قد كان صبح ليله امر صبح ينتظر

واهاً وهل يغني الفتى بـكاء عين لا اثـر
يـا حبذا ضيفك مـن مفـارق وان غدر
اين غزال داجن رأى البياض فنفر
هيهات رئم الرمل لا يدنو الى ذنب الخمر

من بارع القول ومليحه قوله رحمه الله «ماكل بيض بغرر» ومثل ذلك قولهم ماكل بيضة شحمة، لأن بياض اللون قـد يشترك فيه الممدوح والمذموم والمراد والمكروه.

والبيت الثاني معناه ان من باع الشباب وهو البهيم بالمشيب ـ وهو الأغر ـ فقد غبن. وموضع العجب أن الأغر أفضل وأنفس من البهيم، فكيف انعكس ذلك في الشيب والشباب.

ونظير هذا المعنى من شعري قولي:

ان البهيم من الشباب ألذ لي فلتغذني أوضاحه وحجوله

فأما قوله رحمه الله «صغره في اعين البيض بياض وكبر» فمن العجب أن يصغر الكبر، ونظير هذا البيت قول البحتري:

صغر قدري في الغانيات وما صغر صباً تصغيره كبره

وأما قوله «ما كان أغنى ذلك المفرق» فالليل لايستغني عن القمر بل يفتقر اليه أشد فقر، الا ان المشبه بالليل من الشباب مستغن عن المشبه بالقمر من ضوء المشيب. وهذا المعنى يمضي كثيراً في الشعر، وسيجيء منه في شعري ما أذكره في مواضعه بمشيئة الله.

وقوله رحمه الله «بكاء عين لا اثر» من مطبوع القول ومقبوله.

ولقائل أن يقول في البيت الذي هو :

يا حبذا ضيفك من مفارق وان غدر

أي غدر يليق بالشباب وهو لم يفارق مختاراً بل مضطراً ؟

فالجواب عنه : ان الغدر بالفراق انما يكون متى كان عن غير سبب أوجب المفارقة ومع الايثار للمواصلة والمقام ، فكأن الشباب لما تعجل قبل حينه وأوان فراقه من غير سبب من ذي الشباب أوجب ذلك نسب اليه الغدر توسعاً واستعارة وتشبيهاً .

* * *

وله من قصيدة :

يا قاتل الله ريعان الشباب وما خلى علي من الأشجان والغلل
وروضة من سواد الرأس حالبة كان المشيب اليها رائد الأجل
قالوا الخضاب لود البيض مطمعة قد ضل طالب ود البيض بالحيل

فلقوله رحمه الله « كان المشيب اليها رائد الأجل » من الأحسان والعذوبة ما شاء .

* * *

وله من قصيدة :

اليك فقد قلصت شرتي بعيد البياض قلوص الظلال
وبدلت مما يروق الحسان من منظر ما يروع الغوالي
سواد تعذر زور البياض علوق الضرام برأس الذبال

ومـر على الرأس مـر الغمام قليل المقام سريع الزيال

* * *

وله من قصيدة :

قـل لزور المشيب أهلا انه اخـذ الغي واعطاني الرشد
طارق قـوم عودي بالنهى بعد ما استغمز من طول الأود
وقر اليوم جموحاً رأسه جار مـا جار طويلا وقصد
ظل لمـاع حلاه عـارض بعد ما ابرق حيا ورعد

* * *

وله في ذم الشيب وهي قطعة مفردة :

ليس على الشيب للغواني وان تحملن من قرار
كأنما البيض من لداتـي ضرائر البيض مـن عذاري
ان خيمت هـذه بأرضى تحملت تلك عـن ديـارى
ارين فى رأسي الليـالى شر ضياء لشر نار
تبدى الخفيات مـن عيوبى وتظهر السر مـن عوارى
أعدو بها اليوم للغوانى اعدى من الذئب للضوارى
وكن طربى الى طروقى اذ ليـل رأسى بـلا درارى
فمذ اضاء المشيب فودى تورع الزور عـن مزارى
مثل الخيالات زرن ليلا وزلن مع طالع النهار

أما تشبيه النساء اللواتي يزرن مع سواد الشباب ويهجرن مع بياض المشيب بالخيال الذي يزور ليلا ويهجر نهاراً فمن مليح التشبيه وغريبه .

* * *

وله من قصيدة :

ولم يلبثن غربان الليالي نعيقاً ان اطرن غراب راسى
وما زال الزمان يحيف حتى نزعت له على مضض لباسى
نضا عني السواد بلا مرادي واعطاني البياض بلاالتماسى
اروع بـه الظباء وقدارانى رميلا للغزال الى الكناس
وبغضنى المشيب الى لداتى وهونني البقاء على اناسى
خذوا بأزمتى فلقد اراني قليلا مـا يلين لكم شماسى
أليس الى الثلاثين انتسابي ولم أبلغ الى القلل الرواسى
فمن دل المشيب على عذارى وما جر الذيول الى غراسي

* * *

وله من جملة قصيدة :

وتلفعت ربطة من بياض انا راض منها بما لايرضى
ابرمت لي من صبغة الدهر لا يسرع فيها الا المنايا نقضا
مخبر فاحم ولون مضيء من رأى اليوم فاحماً مبيضا

قوله رحمه الله « لا يسرع فيها الا المنايا نقضاً » يريد بـه أن بياض المشيب لايحول ولا يزول الا بالموت ، وليس كسواد الشباب الذي يزول ببياض المشيب.

* * *

وله من قصيدة :

يا قاتل الله الغواني لقد سقينني الطرق بعيد الحمام

اعرضن عني حين ولى الصبى — واختلج الهم بقايا العرام
وشاعت البيضاء في مفرقي — شعشعة الصبح وراء الظلام
سيان عندي أبدت شيبة — في الفود أو طبق عضب حسام
ألقى بذل الشيب من بعدها — من كنت ألقاه بدل الغلام
ترى جميم الشعر لما ذوى — يراجع العظلم بعد الثغام
كم جدن بالأجياد لي والطلى — فاليوم يبخلن برد السلام

عدل رحمه الله في البيت الذي أوله « ألقى بذل الشيب » عن أن يقابل الذل بالعز الى مقابلته بالدل ، لأن الدل بصورة الذل في الخط والوزن ، وفيه أيضاً معنى العز ، فهو أليق بالمقابلة وأجمع لشروطها . فأما العظلم فهو نبت أسود العصارة ، وقيل انه الوسمة ، والعرب تقول ليل عظلم أي مظلم .

* * *

وله وقد حلق وفرته بمنى ورأى فيها شيئاً من البياض ، وهي قطعة مفردة :

لا يبعدن الله برد شبيبة — ألقيته بمنى ورحت سليبا
شعر صحبت به الشباب غرانقاً — والعيش مخضر الجناب رطيبا
بعد الثلاثين انقراض شبيبة — عجباً اميم لقد رأيت عجيبا
قد كان لي قطط يزين لمتي — ثروى السنان يزين الانبوبا
فاليوم اطلب للهوى متكلفاً — حصراً وألقى الغانيات مريبا
اما بكيت على الشباب فانه — قد كان عهدي بالشباب قريبا
او كان يرجع ذاهب بتفجع — وجوى شققت على الشباب جيوبا
ولئن حننت الى منى من بعدها — فلقد دفنت بها الغداة حبيبا

* * *

وله من جملة قصيدة :

ولقد أكون من الغواني مرة بأعز منزلة الحبيب الأقرب
اقتادهن بفاحم متخايل فيريبنى ويرين لى ويرين بى
واذا دعوت اجبن غير شوامس زفف النياق الى رغاء المصعب
فاليوم يلوين الوجوه صوادفاً صدالصحاح عن الطلي الأجرب
واذا لطفت لهن قال عواذلى ذئب الرداه يريغ ود الربرب
فلئن فجعت بلمة فينانة مات الشباب بها ولما يعقب
فلقد فجعت بكل فرع باذخ من عيص مدركه الأعز الأطيب

ولهذه الأبيات ماشئت من معنى ولفظ . وقوله « يرين لى » أي يوجبن حقي، فأما « يرين بى » فمعناه أنهن يوجبن لغيري الحق من أجلي .

والزفف : ضرب من المشى. والمصعب : الفحل من الابل . والرداه : جمع ردهة وهي النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . و« مات الشباب ولما يعقب » من مليح اللفظ .

وكنا ذكرنا في صدر الكتاب أنا اخرجنا من ديوان أخي رحمه الله مبلغاً عيناه ووقع الينا بعد ذلك من شعره ما زاد على ما ذكرناه من العدد ، والمخرج كله يزيد على الثلاثمائة بيت .

(انقضى ما اخرجته لأخى رضي الله عنه)

وهذا ابتداء ما انتزعته من ديوان شعرى فى الشيب

لي من قصيده أولها « لولم تعاجله النوى لتحيرا » :

جزعت لوخطات المشيب وانما بلغ الشباب مدى الكمال فنورا

والشيب ان فكرت فيه مورد   لا بد يورده الفتى ان عمرا
يبيض بعد سواده الشعر الذي   ان لم يزره الشيب واراه الثرى
زمن الشبيبة لا عدتك تحية   وسقاك منهمر الحيا ما استغزرا
فلطا لما اضحى ردائي ساحباً   في ظلك الوافي وعودي اخضرا
أيام يرمقني الغزال اذا رنا   شغفاً ويطرقني الخيال اذا سرى

معنى «بلغ الشباب مدى الكمال فنورا» انه تكامل وانتهى الى غايته ، والزرع اذا تكامل وبلغ غايته نور .

وفي هذا الموضع زيادة على مايمضي كثيراً في الشعر من تشبيه الشيب بالنور، لأن ذاك انما يفيد تشبيهه به في لونه، وهذا البيت الذي يختص به يريد مع أنه يشبهه في النور ان معنى الشيب مع النور في الظهور والطلوع عند بلوغ الغاية ، وانما اردت تسلية من جزعت من شيبي من النساء بأن الشيب لابد منه عند الانتهاء الى غايته كما لا بد من النور في هذه الحال .

* * *

ولي من ابيات قد ذكرتها فيما خرجته من شعري مثل هذا بعينه ، وهو :

ورأت بياضاً في نواحي لمة   ما كان فيها في الزمان السالف
مثل الثغام تلاحقت انواره   عمداً لتأخذه بنان القاطف

والثغام نور أبيض تشبه العرب به الشيب ، فأما البيتان التاليان للبيت الأول فمعناهما واحد ، لأن من عمر شاب والشعر الأسود رهن يشيب مع البقاء او بالتراب عند الفناء .

وقد تكررت هذه القسمة في كثير من شعري، وانت ترى ذلك في مواضعه ، من جملة ما يشبه ذلك لي :

من عاش لم تجن عليه نوب شابت نواحى رأسه أو هرما

وقولي :

* ومن ضل عن ايدى الردى شاب مفرقا *

وهذه القسمة اصح من قسمة البحتري في قولي :

ولابد من ترك احدى اثنتين اما الشباب واما العمر

لأن تلك القسمة اشتبهت على الامدي حتى تكلم فيها فيما بينا الزلل منه .

فان قيل : كيف تصح قسمتكم بأنه لابد من الشيب مع طول العمر وفي الناس من لايشيب على وجه ولا سبب ؟

والجواب عن ذلك : ان في الناس من يتأخر شيبه ولا بد مع استمرار بقائه من بياض سواد شعره ولو كان فيهم من لايشيب مع البقاء الأطول ، وليس الأمر كذلك لكانت القسمة صحيحة ومحمولة على أنه لا بد مع طول العمر من الشيب أو من ورود زمانه ، فان زمانه اذا وفد وورد فهو كالوارد الوافد وان عاق عنه فى بعض الناس عائق . وهذا السؤال لا يتأتى في قولي «شابت نواحي رأسه أو هرما» لأنني جعلت من عاش بين موت أو هرم .

فان قيل : جزع النساء انما هو من الشيب وانما يسلين عنه بأنه لابد مع العمر من حلوله ، واذا كان منه بد فلا تعزية .

قلنا : انما تجزع النساء من الشيب لما فيه من اضعاف القوة واكلال الجوارح واطفاء السورة ، والكبر والهرم يكون معه ذلك كله ، وان لم يظهر شيب الشعر فقد بان انه لا بد مما يجزع النساء منه .

* * *

ولي من قصيدة اولها « اظنك من جدوى الأحبة قانطاً » :

وغر الثنايا رقتهن بلمتى فواعد نها زوراً من الشيب واخطا
سواد يبريني وان كنت مذنباً ويبسط من عذرى وان كنت غالطا
ويسكنني حب القلوب وطالما ألف على ضمى اكفاً سبائطا

معنى البيت الأول: ان الحسان اللواتي يوصفن بوضوح الثنايا لما رأين اللمة السوداء فغبطن بها واغتبطن منها تعللن بأن واعدنها زمان الشيب الذي يمحو حسنها ويذهب بهجتها ، ومعنى البيت الثاني يجيء كثيراً في الشعر وان الشباب معذور الجناية مغتفر الذنب والشيب بالضد من ذلك ، وسيجيء من شعري متردداً .

* * *

ولي من قصيدة أولها « حييت يا ربع اللوى من مربعى » :

شعر شفيعى في الحسان سواده حتى اذا ما ابيض بى لم يشفع
عوضت قسراً من غداف مفارقى وهى الغبينة بالغراب الأبقع
لون تراه ناصعاً حتى اذا خلف الشباب فليس بالمستنصع

من العجب أن تتغير قبول الشفاعة ونجح الوسيلة بتغير الصبغة ، وهذا معنى يختص بالسبب .

فأما البيت الأخير فغريب المعنى ، لأن لون البياض أنصع الألوان وأشرفها وأحسنها ، هذا في الجملة ، واذاكان البياض بدلا من الشباب كان مستقبحاً مستهجناً منفوراً عنه متباعداً منه . وهذا من عجائب لون الشيب ومن لطيف مانبه عليه واشير اليه .

وتشبيه الشعر الذي أبيض بعضه وباقيه أسود بالغراب الأبقع من غريب التشبيه،

لأن الشعراء قدشبهت الشباب بالغراب والغداف وأكثرت من ذلك ، وما ورد تشبيه الشيب الممتزج بالغراب الأبقع .

فان قيل: اذا شبهوا الشباب بالغراب والغداف قبح هذا التشبيه تشبيه المختلط بالغراب الأبقع . قلنا : هو كذلك ، الا أن هذا لا يدفع استغراب هذا التشبيه وانه غير متداول مبتذل .

وممن سبق الى هذا المعنى أبو حية النميري في قوله :

زمان علي غراب غداف فطيره الشيب عني فطارا

ووجدت لبعض الأعراب ممن لا أعلم تقدمه لزمان ابى حية أو تأخره :

وكأنما الشيب الملم بلمتى باز اطار من الشباب غرابا

ونظير بيت الأعرابى قول ابى دلف :

أرى بازي المشيب أطار عني غراباً حب ذلك من غراب

ومثله لابن المعتز :

وأرسل الشيب في رأسي ومفرقه بزاته البيض في غرباني السود

ونظير قول ابي حية ليزيد بن الطثرية :

وأصبح رأسى كالصخيرة أشرفت عليها عقاب ثم طار غرابها

* * *

ولي أيضاً :

صدت وما صدها الا على ياس من ان ترى صبغ فوديها على راسى

احب اليها بليل لايضيء لهـا الا اذا لـم تسر فيه بمقباس
والشيب داء لربات الحجال اذا رأينه وهـو داء مـاله آسى
يا قربهن ورأسى فاحم رجل وبعدهن وشيبي ناصع عاسى
ماذا يريك مـن بيضاء طالعة جاءت بحلمي وزانت بين جلاسى
وما تبدلت الا خير مـا بدل عوضت بالشيب انواراً بأنقاس

معنى البيت الأول انها لم تصد عنه الا بعد يأسها من شبابه ويقينها بفوته . والبيت الثاني من غريب الصنعة لطيف اللفظ ، لأن الليل من شأنه ان يضيء بالانوار والمصابيح والنجوم ، الا الشباب المشبه لليل فانه يضيء لمبصره ويحسن في عينه اذا كان خالياً من ضوء المشيب ونوره ويظلم اذا طلعت أنوار المشيب واضواؤه فيه ، وهذا عكس المعهود .

والعبارة عن فقد معاينة الشيب فيه بأنها لم تسر فيه بمقباس ، لاتجهل بلاغتها وحلاوتها ، والنقس المداد وعلى الظاهر والمعهود ، والأنوار أفضل وأفخر مـن الأنقاس .

* * *

ولي من قصيدة أولها « عل البخيلة ان تجود لعاشق » :

صدت وقد نظرت سواد قرونها عنى وقد نظرت بياض مفارقى
وتعجبت من جنح ليل مظلـم أنى رمى فيـه الزمان بشارق
وسواد رأس كان ربع احبـة رجع المشيب به طلول معاشق
يـا هند ان أنكرت لون ذوائبي فكما عهدت خلائقى وطرائقى
ووراء ما شنئته عينك خلـة مـا شئت من خلق يسرك رائق
أوميض شيب ام وميض بواتر قطعن عند الغانيات علائقى

وكأن طلعة شيبة في مفرق — عند الغواني ضربة مـن فالق
ومعيري شيب العذار ومـا درى — ان الشباب مطية للفاسق
ويقول لو غيرت منـه لونه — هيهـات ابدل مؤمنـاً بمنافق
والشيب املا للصدور وان نبت — عن لونه في الوجه عين الرامق
واذا ليالي الأربعين تكاملت — للمرء فهو الى الردى من حالق

أردت انها لما رأت سواد شعرها وبياض شعريظهرلها تضاد مابيننا وتباعده فصدت وأعرضت. وتشبيه الشعر الأسود بالليل والشيببالنجوم والشهب قدذكرنا أنه يتردد في الشعر .

ومعنى البيت الثالث : ان الشباب كان للانس به كالربع المسكون الذيتحله الأحبة ، ولما علاه الشيب صار كالطلول ، وهى الرسوم التى لا تسكن ولاتحل .

وفي البيتين الرابع والخامس تسلية لمن صد مـن النساء عن الشيب ، لأن الحلائق معـه والطرائق كما عهدت وألفت وانه لـم ينقص جلداً ولا غير وداً ولا حل عقداً ، وليس يعزى عنه بأبلغ من هذا القول .

ولما كان الشيب قاطعاً علائق الغوانى وباناً لحبالهن حسن التشكل فى بياضه وومضه هل هو لشيب أم لسيوف بواتر قطعت علائق الحب ووصائله ؟

وانما أضفت فى البيت السابع الى الغواني انزال حلول الشيب فى الرأس منزلة حلول الضربة الفالقة له، لأن هذا حكم موقوف على الغواني والنساء لأنهن الجازعات من الشيب دون الرجال . وانما عادل النساء بين شيب الرأس والضربة الفالقة له ، لأنه عندهن بعد الشيبلامنفعة فيه ولا متعة به كما لامنفعة بالرأس الفيلق.

ووصفت الشباب في البيت الثامن بأنه مطية الفاسق من حيث الاستعانة به على بلوغ الأغراض ونيـل الأوطار ، فجرى مجرى المطية التى توصل الى بعيد

الوطر . وهـذا أحسن من قول ابى نواس « كأن الشباب مطية الجهـل » ، وفى الناس من يرويه « مظنة » بالظاء المعجمة والنون. وانماتقدم عليه لأن الجهل يرجع الى الاعتقادبالقلب وليس للشباب معونة على ذلك، اللهم الا أن يريدبالجهل الأفعال القبيحة التي يدعو اليها الجهل ، فقد يسمى ما يدعو اليه الجهل الذى هو الاعتقاد من الأفعال جهلا على سبيل المجاز والاستعارة .

وهذا ما أراد ابو نواس لامحالة ، والترجيح باق ، لأنه استعمل لفظة «الجهل» فى غير موضعهـا ، ولأن ليس كل من فعل قبيحاً فعن جهـل يقبحه ، بل اكثر من يرتكب القبيح يرتكبه مع العلم بقبحه ، فوصف الشباب بـأنه مطية للفاسق أصح معنى وأبلغ لفظاً .

فأما وصف الخضاب بأنه منافق والشباب بأنه مؤمن ، فمن غريب الوصف وبديعه، ولاأعرف نظيره. لأن المؤمن ظاهره وباطنه سواء، والشيب اذالم يخضب كذلك ، والمنافق يخالف ظاهره باطنه ، والشعر المخضوب كذلك .

وأحسن ابن الرومي فى قوله يصف الخضاب بأنه لاطائل فيه :

اذاكنت تمحو صبغة الله قادراً فأنت على ما يصنع الناس اقدر

* * *

ولي من قصيدة أولها « الا أرقت لضوء برق أومضا » :

ولقد اتاني الشيب في عصر الصبى حتى لبست بـه شبابـاً ايضا
لـم ينتقص مني اوان نزولـه بأساً اطال على العداة واعرضا
فكأنمـا كنت امرءاً مستبـدلا اثوابـه كره السواد فبيضـا

أردت أن الشيب لما طرق قبل كبر السن والهرم كان ما يرى من بياض شعره

كأنه شباب، لأنه في زمان الشباب وأن صير مظلماً لونه، وهذا عكس قول البحتري:

وشبيبة فيها النهى فاذا بدت لذوى التوسم فهى شيب اسود

فشباب أبيض عكس شيب أسود .

ومعنى البيتين الأخيرين تردد كثيراً في الشعر ، لأن عذر كل من اعتذر للشيب انما هو بأنه ما فل حده ولا أوهن قوته ولا غير حزمه ، وقد قال الشاعر :

لم ينتقص مني المشيب قلامة الان حين بدا اكب واكيس

وما تعوض عنه من لون الشباب بلون المشيب بمن استبدل ثوباً أسود بأبيض، من بارع التشبيه ونادره ، لأن تبديل الثياب المختلفة الألوان لا تغير جلداً ولا توهن عضداً ، واذا وصف بمثل ذلك من تغير لون شعره فهو الغاية فى المعنى المقصود.

ونظير هذا المعنى بعينه من شعري مما سيجيء ذكره :

فلا تنكري لوناً تبدلت غيره كمستبدل بعد الرداء رداء

* * *

ولي أيضاً :

أما الشباب فقد مضت أيامه واستل من كفى الغداة زمامه

وتنكرت آياته وتغيرت جاراته وتقوضت آطامه

ولقد درى من فى الشباب حياته ان المشيب اذا علاه حمامه

* * *

ولي أيضاً :

ألا حبذا زمن الحاجري واذا أنا فى الورق الناضر

اجرر ذيل الصبى جامحاً بلا آمر وبلا زاجر
الى ان بدا الشيب فى مفرقى فكانت اوائله آخرى

المراد بالورق الناضر هاهنا الشباب ، وانما يوصف بذلك لغضاضته وبهجته ورونقه .

ومعنى « بلا آمر وبلا زاجر » انه لفرط جماحه وشدة تتابعه لا يؤمر ولاينهى، لليأس من اقلاعه وانصرافه .

ويحتمل وجهاً آخر ، وهو : أن يكون من حيث عصى العذال وخالف النصحاء كأنه غير مأمور ولامنهي ولا مزجور ، وان كان ممن أمر لفظاً ونهي .

وأما « فكانت أوائله آخري » فمن الاختصارات البليغة .

ومعنى أخري: نهاية عمري وغاية مدتي. ويقال أيضاً: ان يريد انه آخر سروري ولذتي وانتفاعي بالعيش ومتعتى ، ويجوز أن يكونا جميعاً مرادين ، فاللفظ يسير والمعنى كثير كما تراه .

* * *

ولي من قصيدة أولها « رضينا من عداتك بالمطال » :

وبيض راعهن البيض منى فقطعن العلائق من حبالى
جعلن الذنب لي حتى كأني جنيت أنا المشيب على جمالي
وليس الشيب من جهتى فألحى ولا رد الشبيبة فى احتيالى

معنى البيت الثاني والثالث يتردد كثيراً في الشعر وفي شعري خاصة ، وهو حجة لمن عيب بالشيب واضحة ، لأن المؤاخذة لا تكون الا بالذنوب ولا صنع لذي الشيب في حلوله به ، وقد يتبرأ من الذم به تارة بأنه من غير فعله ولا اختياره

وأنه من الدهر ومن الأيام ، أو من الهموم والأحزان ، أومن صد الحبائب وهجر الصواحب . وسترى ذلك في مواضعه فهو كثير .

* * *

ولي من قصيدة أولها « بقاء ولكن لو أتى لا اذمه » :

خطوت مدى العشرين أهزأ با لصبى   فلما نأى عني تضاعف همه
فياليت ما ابقى الشباب وجازه   سريعاً على علاته لا يؤمه
وليت ثرائى من شباب تعجلت   بشاشته عنى تأبد عدمه
مشيب اطار النوم عنى اقله   فكيف به ان شاع في الرأس عظمه

أردت انني كنت محتقراً لزمان الصبى مستهيناً به حتى عدمته فحزنت له ، والشيء لا يظهر فضله الا مع الفقد والبعد .

وأردت بما أبقى الشباب من بقاياه وعقابيله . ويحتمل أن يراد بما أبقاه وخلفه عندي من الشيب ، فكأنني أشفقت من لحوق الباقي بالماضي فى الذهاب منى والتقضي عنى .

فأما التألم من قليل الشيب فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

طرقت عيون الغانيات وربما   أمالت الي الطرف كل مميل
وما شبت الا شيبة غير أنه   قليل قذاة العين غير قليل

وهذا من بارع المعنى واللفظ ، ولولم يكن لابن الرومي في الشيب الا هذا البيت الواحد لكفاه .

وقد أعاد ابن الرومي هذا المعنى بعينه في قوله :

اصبحت أعين الغواني عدتنى   ولعهدي بها الي تميل

طرقتهن شيبة وقـذاة العين لا يستقل منـه القليل

وبين هذا وبين قوله « قليل قذاة العين غير قليل » في الفصاحة والبلاغة كما بين سماء وأرض وكل وبعض .

* * *

ولي من قصيدة أولها « ما الحب الاموئل المتعلل » :

أمـا وقد صبغ المشيب ذوائبي للناظرين فـلات حين تغزلي
وازال من خطر المشيب توجعي علمي بـأن ليس الشباب بمعقل
فلئن جزعت فكل شيء مجزعي ولئـن أمنت فشيمة المسترسل

معنى البيت الثاني أن الشباب لايؤمن من خطر الموت ولايحصن منهجومه فقد لحق بالشيب في تطرق الاخطار اليه، فما معنى التوجع منه والتألم من خطره .

وقد نطق البيت الثالث بأنني ان كنت جازعاً فيجب أن اجزع من كل حال لتطرق الاخطار عليها ، وان اطرحت الجزع ولزمت الاستسلام فهي شيمة المسترسل الذي يطيب عيشه وتستمر لذته .

* * *

ولي ابيات مفردة في الشيب ، وهي :

أشيب ولما تمض خمسون حجة ولا قاربتني ان هذا مـن الظلم
ولو أنصفتني الأربعون لنهنهت من الشيب زوراً جاء من جانب الهم
قرعت لـه سني ولو استطيعه قرعت له مالم ترالعين من عظمي
يقولون لا تجزع من الشيب ضلة وأسهمه ايـاي دونهم تصمي
وقالوا اتاه الشيب بالحلم والحجى فقلت بما يبرى ويعرق من لحمي

وما سرنى حلم يفىء الى الردى كفانى ما قبل المشيب من الحلم
اذا كان مـا يعطينى الحلم سالباً حياتى فقل لي كيف ينفعني حزمى
وقد جربت نفسى القذاة وقـاره فماشد من وهني ولاسد من ثلمى
واني مذ اضحى عذارى قراره فعاد بلا سقم واجفى بلا جرم
وسيان بعد الشيب عند حبائبى وقفن عليه اووقفن على رسم
وقد كنت ممن يشهد الحرب مرة ويرمى بأطراف الرماح كما يرمى
الى ان علا هذا المشيب مفارقى فلم يدعنى الأقوام الا الى السلم

هذه الأبيات كثيرة المعاني في وصف الشيب جيدة النسج .

ومعنى « من جانب الهم » أي من ناحيته لامن ناحية علو السن .

وقد ذكرنا هذا البيت مع نظيره من شعر ابى تمام ، ويجىء مثله فى الشعر وشعري خاصة كثيراً .

ومعنى البيت الثالث : انني قرعت سنى هماً وحزناً ، ولـو استطعت لقرعت من عظمي ما هو خاف غير ظاهر للعين . وهذا تأكيد لصولة الهم وسورة الحزن .

ومعنى البيت الرابع : أن المعزى لي عن الشيب بنجوة عن سهامه وبعد من ايلامه ، فلانسبة بيننا .

ومعنى البيت الخامس: أن الشيب وان أعطى حلماً فقدعرق لحماً، فهذا بذاك.

والبيت السادس : تضمن أنـه لا منفعة بحلم يفضى الى الموت ، لأن الحلم وغيره من أدوات الفضل انما يراد للحياة زينة لها وفخراً فيها، ولاخير فيما أفضى الى ابطال الحياة ، وهي الأصل في المنافع .

وقد ذكرنا هذين البيتين مع نظيرهما من شعر ابى تمام .

وأما قولي « أعاد بلاسقم » فمعناه أن من توجع لي من الشيب وتألم من حلوله

بي كأنه عائد لي ، لأنه يظهر من الجزع والتألم مايظهره العائـد. ولا شبهة في أن الشيب ليس بسقم على الحقيقة فيعاد صاحبه .

وأما قولي « وأجفى بلا جرم » فيتردد في الشعر كثيراً ، وانما يفضل موضع فيه على آخر لحلاوة العبارة وطلاوتها واختصارها وحسن موقعها .

وتشبيه وقوف النساء على الشيب بوقوفهن على الرسم الدارس المحيل واقع ، لأن الرسم لامنفعة في التعريج اليه والوقوف عليه ولافائدة فيه ولامتعة به، وكذلك الشيب عند النساء . ولاشبهة في أن ذا الشيب يستضعف جلده فلايدعى الى الحرب وانما يدعى للسلم والموادعة . وهذا من جهات ذم الشيب .

* * *

ولي في الشيب ، وهي قطعة مفردة :

شعـر ناصع ووجـه كئيب ان هـذا من الزمـان عجيب
يـا بياض المشيب لونك لـو أنصفت رائيك حالـك غربيب
صد مـن غير أن يمل وما انكر شيئاً سواك عني الحبيب
يـا مضيئاً في العين تسود منه كل يـوم جوانح وقلـوب
ليس لي مذ حللت يا شيب في رأسي كرهاً عند الغواني نصيب
ولخير مـن لونـك اليقق المشرق عندي وعندهـن الشحوب
رحـن يدعونني معيباً وينبـذن عهودي وانت تلـك العيوب

اردت أن نصوع الشعر واشراقه يضاد اكتئاب الوجـه وقطوبه فكيف اتفقا ، وهذا يحقق أن النصوع والاشراق محمود في كل شيء الا في لون الشيب .

ومعنى « ان لونك حالك غربيب لـو أنصفت » لأنه جـالب للهم والحزن ،

والسواد بذلك أحق من البياض . ويحقق ذلك البيت الرابع .

وانما جعلت الشيب رقيباً على الغانيات ، لأنه يحشمهن من وصلي ويبعدهن عن قربى . وهذا معنى الرقيب .

* * *

ولي من قصيدة أولها « ربعت لتنعاب الغراب الهاتف » :

ورأت بياضاً في نواحي لمة ... ما كان فيها في الزمان السالف
مثل الثغام تلاحقت انواره ... عمداً لتأخذه بنان القاطف
ولقد تقول ومن اساها قولها ... ما كان هذا في حساب العائف
اين الشباب واين ما يمشى به ... فى البيض بين مساعد ومساعف
ما فيك يا شمط العذار لرامق ... عبق الجوانح بالهوى من شاعف
فليخل قلبك من احاديث الهوى ... وليخل غمضك من مطيف الطائف

أردت بقولي « عمداً لتأخذه بنان القاطف » انه قد انتهى بطلوع النور فيه الى غايته واستقطف للبنان. وهذه اشارة الى أن الشيب يكون آخر العمر وانقطاع أمده.

* * *

ولي من قصيدة أولها « أ اغفل والدهر لا يغفل » :

ولما بدا شمط العارضين ... لمن كان من قبله يعذل
تناهوا وقالوا لسان المشيب ... لحسن جوارحنا اعزل
فقلت لهم انما يعذل ... المشيب على الغي من يقبل
امن بعد أن مضت الأربعون ... سراعاً كسرب القطا يجفل
ولم يبق فيك لشرخ الشباب ... مآب يرجى ولا موئل

تطامح نحو طويل الحياة ويوشك أن ما مضى اطول

معنى « انما يعذل المشيب من يقبل » أي ينتفع بعذله من يقبل ، وجعلت من لم ينتفع بالعذل كأنه غير معذول ، كما قال الله تعالى « انما انت منذر من يخشاها »[1] وقوله جل وعز « انما تنذر من اتبع الذكر »[2] .

* * *

ولي من قصيدة أولها « أمنك سرى طيف وقد كاد لا يسرى » :

وبيض لواهن المشيب عن الهوى فأنزرن من وصلى واوسعن من هجري
وألزمنني ذنب المشيب كأنما جنته يداي عامداً لا يد الدهر
أمن شعرات حلن بيضاً بمفرقي ظننتن ضعفى او اسيتن من عمري
لحاكن ربي انما الشيب فسحة لما فات فى شرخ الشبيبة من امر
سقى الله أيام الشبيبة ريها ورعياً لعصر بان عنى من عصر
ليالى لا يعدو جمالى منيتى ولم تردد الحسناء نهبي ولا امري
وليل شبابي غارب النجم فاحم ترى العين تسرى فيه دهراً بلافجر
واذ أنا في حب القلوب محكم وافئدة البيض الكواعب في اسرى

الاعتذار من الشيب بأنه من جناية الدهر ولاعذر لذي الشيب فيه ، يجيء كثيراً في الشعر ، وستراه من شعري في عدة مواضع بعبارات تختلف في ضيق وسعة واختصار واطالة وتتفق في عذوبة ورطوبة .

ومعنى الشيب فسحة أن المرء يستدرك فيزمان الشيب مافاته فيزمان الشباب من صيانة وديانة ، ويتلافى ما لعله فرط فيه وضيع .

---

١) سورة النازعات : ٤٥ .

٢) سورة يس : ١١ .

وأردت بقولي « لا يعدو جمالي منيتي » انني اذا تمنيت لم يتجاوز مناي ما أنا عليه من الجمال والكمال . وهذا يدل على كمال الجمال وبلوغه الغاية .

ومعنى « ليل شبابي غارب النجم » أي لاشيب فيه ومثله ترى العين تسري فيه دهراً بلا فجر . وحظ هذا البيت من اختصار وبلاغة غير مجهول .

* * *

ولي من قصيدة أولها « قد هوبناه ناقضاً للعهود » :

قلن لما رأين وخطاً من الشيب برأسي اعيا على مجهودي
كسنا بارق تعرض وهنــاً في حواشي بعد الليالى السود
أبياض مجدد من سواد كان قدمـاً لامرحباً بالجديد
يالحاكن مــن رماكن بالحسن لتنهرننا بغير جنود
ليس بيضى منى فأجزى عليهن صدوداً وليس منكن سودى
قل ما ضركن من شعرات كن يوماً على الوقار شهودى

معنى « أعيا على مجهودي » أي ضقت ذرعاً بدفعه .

والبيت الثاني في الغاية من وصف الشيب بالجفاء وعدم الشمول والظهور، ويجري في التوقى من غاية الى أخرى مجرى قول الراعي :

كدخان مرتحل بأعلى تلعة غرثان ضرم عرفجاً مبلولا

ومعنى « لامرحباً بالجديد » استثقال المشيب وان كان جديداً ، ومن شأن كل جديد أن تسر النفوس به في الغالب الا المشيب .

ومعنى « ليس بيضى مني » ما يتكرر من أنه لاصنع لي في الشيب فأؤاخذبه .

ومعنى «وليس منكن سودي» أي ليس شبابي من جهتكن فتسرفن في التلهف

على فوته والتأسف على فراقه .

فأما « كن يوماً على الوقار شهودي » فيشهد لنفسه بالبراعة .

* * *

ولي وقد سئلت نقض قول جرير :

تقول العاذلات علاك شيب أهذا الشيب يمنعني مراحى
وما مرح الفتى تزور عنه خدود البيض بالحدق الملاح
ويصبح بين اعراض مبين بلا سبب وهجران صراح
وقالوا لا جناح فقلت كلا مشيبي وحده فيكم جناحى
أليس الشيب يدنى من مماتى ويطمع من قلاتى في رواحى
مشيب شن فى شعر سليم كشن العر في الابل الصحاح
كأنى بعد زورته مهيض ادف على الوطيف بلا جناح
او العانى تورط في الأعادى من عليه مطلع السراح
سقى الله الشباب الغض راحاً عتيقاً او زلالاً مثل راحى
ليالى ليس لى خلق معيب فلا جسدى يذم ولا مزاحى
واذ أنا من بطالات التصابي ونشوات الغواني غير صاح
واذ أسماعهن الي ميل يصخن الى اختياري واقتراحى

انما اردت كيف يمرح من يعرض عنه من النساء حسانهن وجفونه وقطعنه ، وأي متعة في العيش لمن كان بهذه الصفة .

وقولي في البيت الثاني « بلا سبب » هو في موضع الحشو ، لكنه حقق المعنى المقصود وتممه ، ولا يكادون يسمون من كان بهذا الموقع حشواً .

ومعنى « ويطمع من قلاتي في رواحى » أي في مماتي وانصرافي عن الدنيا ،

يقال راح الرجل اذا مات .

والعر : الجرب . ومن حسن التشبيه اجراء الشيب في حلوله بالشعر الأسود مجرى الجرب في وقوعه بالابل الصحاح ، لأنه وان لم يماثله من جهة اللون فهو في معنــاه يشاكله ، لأن العر اذا أصاب الابل بوعدت مــن الصحاح منها وهجرت خوف العدوى ، ومن شاب شعره مجفو بين النساء مقاطع مباعد . والأبيات كما ترى مبصورة الأغراض سليمة الألفاظ .

* * *

ولي من قصيدة أولها « هل أنت من وصب الصبابة ناصري » :

مالي وللبيض الكواعب هجن لي　　بلوى الثوية ذكرة من ذاكر
شيبنني وذممن شيب مفارقي　　خذها اليك قضية من جائر
لا مرحباً بالشيب أظلم باطني　　لما تجللني وأشرق ظاهري
شعر ابى لي في الحسان اصاخة　　يوم العتاب الى قبول معاذري
مثل الشجاة ملظة في مبلع　　او كالقذاة مقيمة في الناظر
لا ذنب لي قبل المشيب واننى　　لمؤاخذ من بعده بجرائر

لاشبهة في أن أجور الناس من فعل شيئاً ثم ذمه وعابه .

ومعنى « أشرق ظاهري واظلم باطني » قد مر تفسير مثله .

والبيت الأخير معناه : ان ذنوب الشباب مغفورة وان وقعت وذو الشيب يؤاخذ بما جناه ومالم يجنه تجرماً عليه .

* * *

ولي من قصيدة أولها « يا طيف ألا زرتنا بسواد » :

ومخضب الأطراف صد بوجهه لما رأى شيبي مكان سوادى
والغانيات لذي الشباب حبائب واذا المشيب دنا فهن اعادى
شعر تبدل لونه فتبدلت فيه القلوب شناءة بوداد
لم تجنه الا الهموم بمفرقى ويخال جاء به مدى ميلادى

ما تحتاج هذه الأبيات الى منبه على سباطتها وعذوبة ألفاظها وان ماء القبول فيها مندفق مترقرق .

* * *

ولي من قصيدة أولها « يا راكباً وصل الوجيف زميله » :

من مانع عنى وقدشحط الصبى شيباً على الفودين آن نزوله
وافى هوي السلك خر نظامه والشعب سال على الديار مسيله
سبق احتراسى من اذاه بضيئه لما تجللنى فكيف عجوله
ما ضره لما اراد زيارة لو كان بالأيذان جاء رسوله
لا مرحباً ببياض رأسى زائراً اعيا علي حلوله ورحيله
من كان يرقب صحة من مدنف فالشيب داء لا يبل عليله
نصل الشباب الى المشيب وانما صبغ المشيب الى الفناء نصوله
ان البهيم من الشباب ألذ لي فلتعدنى اوضاحه وحجوله
اعجب به صبحاً يرد ظلامة وشهاب داجية يحب افوله
قالوا المشيب نباهة واود أن يبقى علي من الشباب خموله
والفضل في الشعر البياض وليته لم يشجني بفراقه مفضوله

الفودان جانبا الرأس . والبيت الثاني الذي أوله « وافى هوي السلك » أبلغ

من قول البحتري مشيب كبت السوعى بحمله محدثه ، لأن البحتري لـم يخرج نزول الشيب من أن يكون مستنداً الى ايثار مؤثره وان توفرت دواعيه ، والبيت الذي لي يزيد على ذلك بالاضافة على ما يقع وجوباً ، اما بالطبع على قول من اثبته أو على جهة الوجوب ، فهو أشد استيفاء للمعنى .

ولا بد من تقدير ما يضاف الى الشعب مما يليق به لأنه معطوف على السلك والسلك يليق بالهوى ولايليق ذلك بالشعب ، فيجب أن يقدر فعل يليق به مثل سبل الشعب أوما اشبهه .

وقد ذكرت ما يشبه بعض الشبه في البيت الثالث من هذه الأبيات عند ذكرما أخرجته للبحتري .

فأما البيت الرابع فمعناه : ان الشيب هجم بغتة وفجأة ، فما ضره أو قدم لـه نذيراً يشعر بوفوده وقرب وروده ، فيكون حمله أخف وخطبه أهون .

ومعنى « أعيـا علي حلوله ورحيله » انني لا أطيق دفع نزوله اذا نزل كما لا أطيق دفع رحيله اذا رحل وفارق بالموت والفناء وكأنني مقهور عليه في جميع أحواله . وجعلت نصول الشيب الى الفناء كمـا كان نصول الشباب الى الشيب ، وكما كان الفناء عاقبة الشيب كان الشيب عاقبة الشباب وغايته .

وما عدا هذا من الأبيات واضح المعنى ، يسبق الفهم اليه من غير تأمل .

* * *

ولي من قصيدة أولها « أمالك من مشيب ما امالا » :

وكان الدهر ألبسنى سواداً أروق بـه الغزالة والغزالا
نعمت بصبغه زمنـاً قصيراً فلمـا حالت الأعوام حـالا

* * *

ولي من قصيدة أولها « ارقت للبرق بالعلياء يضطرم » :

وعيرتني مشيب الرأس خرعبة ورب شيب بدا لـم يجنه الهرم
لاتتشكى كلوماً لـم تصبك فما يشكوأذى الشيب الاالقدرواللهم
شيب كماشب في جنح الدجى قبس او انجلت عن تباشير الضحى ظلم
ماكنت قبل مشيب بات يظلمنى لظالم ابد الايام أنظلم

الخرعبة من النساء : الناعمة ، ويقاربه في المعنى الخرعوبة ، لأن الخراعيب الأغصان الرطبة السبطة .

ومعنى « ورب شيب بدا لم يجنه الهرم » لاتعيري بما لا تعلمين أنه عن هرم وضعف ونفاد عمر ، فان الشيب ربما كان عن غير كبر ولا هرم ، وهذه محاسبة صحيحة .

ومعنى البيت الثـاني : ان الشيب ان كان عيباً أوداء فهو بغيرك لا بـك ، فلا تتشكى منه .

والبيت الثالث قوي في حسن العبارة عن وضوح الشيب وظهوره .

والبيت الرابع يتضمن غاية التمدح ، لأنه كان يظلم من يظلمه ويقهره الا الشيب فانه عريز منيع الجانب . وله نظائر في شعري منها وسيجىء :

ولوجنته يد ماكنت طائعها لكن جناه على فودي غيريد

* * *

ولي من قصيدة أولها « أترى يؤوب لنا الابيرق والمنى للمرة شغل » .

وتعجبت جمل لشيب مفارقى وتشيب جمل

ورأت بياضاً مارأته بدا هناك سواه قبل

كذبالة رفعت على الهضبات للسارين ضلوا

لاتنكريه وبت غيرك فهو للجهلات غـل

أي المفارق لا يزار بذا البياض ولا يحل

معنى البيت الاول : لا تعيبي ما انت شريكة فيه وصائرة اليه ، وورد بأخصر لـفظ .

وعليه سؤال ، وهو أن يقال : قد لا تشيب جمل بأن تموت ، فالشيب ليس بواجب لها .

قلنا : المراد انك اذا عمرت عمري وبلغت سني فلابد من شيبك ، لأنها عيرت وتعجبت من الشيب مع السن وهي شريكة في ذلك لا محالة .

والبيت الثاني في اشتهار الشيب ووضوحه بديع بليغ .

والعبارة بأنه « للجهلات غل » من حيث انه قبض عن الشهوات وصرف عن المنكرات ، من أبلغ عبارة .

والبيت الثالث تفسير الأول وتأكيد له ، ومثل وتشيب جمل قولي :

وعيرتني شيباً ستكسين مثلـه ومن ضل عن أيدى الردى شاب مفرقا

* * *

ولي من قصيدة أولها « نولينا منت الغداة قليلا » :

جزعت للمشيب جانبة الشيب وقالت بئس النزيل نزيلا

ورأت لمـة كان عليها صارماً من مشيبها مسلولا

راعها لونه ولـم تر لولا عنت الغانيات منه مهولا

عاينت لونه والحوادث ينكرن طلوعاً لم ترج منه افولا
لا تذميه فالمشيب على طول بقــاء الفتى يكون دليلا
ان لون الشباب حال اذا امتد زمان انى لها أن تحولا
لوتخيرت والسوادردائي ما اردت البياض منه بديلا
وحسام الشباب غير صقيل هو اشهى الي منه صقيلا
قد طلبنا فما وجدنا عن الشيب محيصاً يجيرنا او مميلا

لمعنى البيت الأول نظائر كثيرة في الشعر وفي شعري خاصة سترى في مواضعها ، ولتشبيه الشيب في لونه بالسيف نظائر كثيرة في شعري خاصة وغيره عامة . وهذا البيت يفيد تشبيه الشيب بالسيف لوناً وقطعاً لحبال المودة وارهاباً لمن حل به وجرد في ذوائبه .

ومعنى « طلوعاً لم ترج منه أفولا » أن لون الشيب كما لا يحول ولا يزول كلون الشباب فهو ملازم لانقضاء العمر .

ومعنى البيت الخامس : ان المشيب لايظهر في الأغلب الأكثر الا مع امتداد العمر وطول البقاء فكيف يعاب ويذم ، وهوشاهد بطول البقاء . وهذا تمحل وتعلل في الاعتذار للشيب ، لأن قائلا لو قال : كما شهد بطول بقــاء متقدم ، فهو شاهد ودليل على قصر ما بقي من العمر ، ولأن صاحبه اقرب الى الفناء من صاحب الشباب لما كان جوابه ، الا أن هذا القول ألطف ماتمحل واستخرج في التسلية عن الشيب والتجلد على مصاحبته .

* * *

ولي من قصيدة :

عرفت الديار كسحق البرود كـأن لـم تكن لانيس ديارا

وقالوا وقد بدلت حادثات زماني ليل شبابي نهارا
اتاه المشيب بذاك الوقار فقلت لهم ما اردت الوقارا
فيالت دهراً اعار السواد اذا كان يرجعه ما اعارا
وليت بياضاً اراد الرحيل عقيب الزيارة ما كان زارا

انما أردت : لاخير في وقار يؤيس من الحياة ويدني الى المنية ويسلب القوة ويورث الضعف ، وطالما استعفى الشعراء من وقار الشيب وأبهته وتجاوزوا ذلك الى كراهية المخاطبة بما يقتضي علو السن وتصرم زمان الحداثة ، قال مضرس ابن ربعي الأسدي :

لحى الله وصل الغانيات فاننا نراهن لمحاً لا ينال وخلبا
اذا ما دعين بالكنى لا يريننا صديقاً ولم يقربن من كان اشيبا

ومثله للأخطل :

واذا دعوتك يا أخي فانه ادنى اليك مودة ووصالا
واذا دعوتك عمهن عن نشب يزيدك عندهن خبالا

وللبحتري ما له بهذا بعض الشبه :

يتبرجن للغرير المسمى من تصاب دون الخليل المكنى

ونظير ذلك كله قول ابن الرومي :

أصبحت شيخاً له سمت وأبهة يدعونني البيض عما تارة وابا
وتلك حالة اجلال وتكرمة وددت اني معتاض بها لقبا

* * *

وله أيضاً :

راع المها شيبي وفيه امانها ... من أن تصيد رميهن سهامي
وعففني لما ادعين عمومتى ... ومن النساء معقة الأعمام

ولبعضهم وهو ضعيف اللفظ :

قالت وقد راعها مشيبي ... كنت ابن عم فصرت عما
فقلت هذا وانت أيضاً ... قد كنت بنتاً فصرت اما

ولابن المعتز ما له بعض النظر بهذا المعنى يصف دليل قوم في مفازة وانهم عند خوف العطش يكنونه اجلالا له وطلباً لمرضاته واذا بلغوا الماء دعوه باسمه استغناء عنه ، وهو قوله :

ثم استنارهم دليل فارط ... يسمو لبغيته بعينى اجدل
يدعى بكنيته لاول ظمئها ... يوماً ويدعى باسمه في المنهل

* * *

ولي من قصيدة أولها « تلك الديار برامتين همود » :

وغرائر أنكرن شيب ذوائبى ... والبيض منى عندهن السود
انكرن داء ليس فيه حيلة ... وذممن مفضى ليس عنه محيد
يهوى الشباب وان تقادم عهده ... ويمل هذا الشيب وهو جديد
لايبعدن عهد الشباب ومن جوى ... ادعو له بالقرب وهو بعيد
ايام ارمى باللحاظ وارتمى ... واصاد في شرك الهوى واصيد

معنى «والبيض مني عندهن السود» ان الذي ابيض من شعري مسود في فؤادي . والبيت الثالث قوي اللفظ والعبارة ، لأن من شأن من تتطاول صحبته أن يمل والشباب تستمر محبته مع استمرار صحبته ، ومن شأن الجديد أن لا يكون مملولا

والشيب يمل جديداً ، فقد انتقضت العادة المألوفة في غير الشباب والشيب بهما وفيهما .

* * *

ولي من قصيدة أولها « لو كنت في مثل حالي لم ترد عذلي » :

صدت اسيماء والحراس قد هجعوا والصد ان لم يكن خوفاً فعن ملل
ورابها من بياض الشيب منظرة كانت اذى وقذى في الأعين النجل
يـا ضرة الشمس الا أنهـا فضلت بأن شمس الضحى زالت ولم تزل
قومى انظرى ثم لومى فيه أو فذرى الى عذار بضوء الشيب مشتعل
حنيتـه وجعلت الـذنب ظالمة لمـا تصرم من أيـامي الأول
تقول لي ودموع العين واكفة خريدة كرهت فقد الشبيبة لـي
برد الشباب ببرد الشيب تجعله مستبدلا بئسما عوضت من بـدل
شمر ثيابك من لهو ومن اشر وعد دارك عـن وجد وعـن غزل

لما قلت « ياضرة الشمس » وكان في هذا تشبيه لها بالشمس ونظير لها بها ، لم أرض بذلك حتى فضلتها على الشمس، بأن الشمس تزول وتحول وهذه لاتزول.

وأما البيت الخامس فقد مضت له نظائر في شعري وسيمضي مثلها، وقد استوفى هذا البيت المعنى ولم يترك منه بقية تستدرك في غيره .

والخريدة من النساء : الخفرة المصونة ، وجمعها خرائد ، يقولون خرد من الشمس اذا استرعنها . والخريدة أيضاً : اللؤلؤة التي لم تثقب ، والمعنى في كل ذلك يتقارب .

* * *

ولي من قصيدة أولها « أعلى العهد منزل بالجناب » :

ان نعماً وكان قلبى في ما ألفتـه موكلا بالتصـابى
سألتنى عن الهوى في ليال ضاع فيهن من يدي شبابي
فمتى ما اجبتها بسوى ذكـر مشيبى فذاك غير جوابى
صـار منى مثل الثغامة ما كان زماناً محلولكاً كالغراب
ليس يبقى شيء على عهده الأول في كر هذه الأحقاب
من عذيرى من المشيب وقد صار بعيد الشباب من اثوابى

معنى قولى « فمتى ما اجبتها » البيت : اننى ان اجبتها وقد سألتني عما عهدته مني من الهوى والتصابى بأن المشيب في ذهاب ذلك عنى ونفاده منى غير معيب، فما اجبت بالجواب الصحيح الصادق . وهذا تحقيق كما تراه ، لأن الشيب أثـر في هواه الذي كان معهوداً منه .

فأما الثغام فهو نور شديد البياض تشبه العرب به الشيب .

وأما البيت الأخير فمعناه : انه لا دواء لوصب المشيب ولا شفاء منه ، لأنـه لا دواء الا ما يذوقه الساقي ، فاذا لم يكن فيه شفاء ولا دواء للشيب فلا دواء له ولا علاج .

* * *

ولي من قصيدة أولها « هل هاج شوقك صوت الطائر الغرد » :

من عاذري في الغواني غب منتشر من المشيب كنوار الضحى بدد
وافى ولـم يبغ منى ان أهيب بـه وحـل منى كرهاً حيث لـم ارد
ولو جنته يد مـا كنت طائعها لكن جناه على فودي غير يد

لم أرض بأن جعلته نوراً حتى أضفته الى الضحى ليكون أظهر له وأشهر .

وللبيت الثاني حظ من البلاغة، ولا أعرف له على جهته نظيراً، فكأنني قلت:

انه لو جناه علي ـ اعنى الشيب ـ غير الله تعالى الذي لا يغالب ولا يمانع لما اطعته ولا أنقدت له . وهذه غاية التعزز والافتخار .

فان قيل : كيف سمى ما يفعله الله تعالى بأنه جناية ، وهذه اللفظة لاتستعمل في المتعارف الا في ما كان قبيحاً .

قلنا : سميناه بهذا الاسم استعارة وتجوزاً ليطابق ويجانس قولى « ولو جنته يد ماكنت طائعها » ، وله نظائر كثيرة في القرآن والشعر ، قال الله تعالى « وجزاء سيئه سيئة مثلها » [١] و« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » [٢].

* * *

ولي في التسلية عن الشيب والاعتذار بحلوله ، وهي قطعة مفردة :

أماوي ان كان الشباب الذي انقضت ... لياليه عني شاب منك صفاء
فما الذنب لي في فاحم حال لونه ... بياضاً وقد حال الظلام ضياء
وما ان عهدنا زائلا حان فقده ... وان كان موقوفاً ازال اخاء
ولو كان في ما يحدث الدهر حيلة ... ابيت على هذا المشيب اباء
فلا تنكري لوناً تبدلت غيره ... كمستبدل بعد الرداء رداء
فاني على العهد الذي تعهدينه ... حفاظاً لما استحفظتنى ووفاء
مشيب كفتق الليل في مد لهمة ... اتاك يقيناً أو ازال مراء
كأن الليالي عنه لما رمينني ... جلون صداء أو كشفن غطاء
فلا تجعلي ما كان منك من الأذى ... عقاباً لما لم آته وجزاء
وعدى بياض الرأس بعد سواده ... صباحاً اتى لم اجنه ومساء

١) سورة الشورى : ٤٠ .
٢) سورة البقرة : ١٩٤ .

ولا تطلبى شيئاً يكون طلابـه   وقد ضـل عنه رائدوه عنـاء
فانك ان نـاديت غب تلهف   شباباً وقـد ولى اضعت نـداء

قد تضمنت هذه الأبيات من الاعتذار بحلول الشيب والتسلية عنه والتنزيه لمن حل به من تبعته وتمثيله بكل ما لا حيلة في حؤوله عن صبغته وتغيره عن صفته ما لايكاد يجتمع فى مكان واحد .

فأما الطلاوة والحلاوة فمحكم فيها العدو والحاسد فضلا عن المنصف والناقد، ولا حاجة بها الـى تفسير لمعانيها وايضاح لفوائدها ، فليس يفسر الا بما عبارتها عنه أوضح وأصح .

ولك أيها الناقد الخبير فـي البيت الذى عجزه « اتـاك يقيناً او ازال مراء » والبيت الذي يليه مسرح طويل في الاستحسان ان كنت منصفاً فبلسانك وان كنت ظالماً غامطاً فبقلبك .

ومعنى « أبيت على هذا المشيب اباء » أي كنت آبى عليه الا بالذي يمنع جانبى منه ويؤمننى ريبه وشره ، ويجري ذلك مجرى قوله تعالى «فانه يتوب الى الله متاباً» (١) اي عظيماً مقبولا .

ومعنى « كمستبدل بعد الرداء رداء» أي انه لم يغير منى جلداً ولا أوهن قوة ولا اكسبنى ضعفاً وعجزاً ، فجرى مجرى من تبدل رداء بغيره في أن أحواله في نفسه ما تبدلت ولا تغيرت .

* * *

ولي وهى قطعة مفردة :

---

١) سورة الفرقان : ٧١ .

عجبت لشيب في عذارى طالعاً   عليك وما شيب امرىء بعجيب
ورابك سود حلن بيضاً وربما   يكون حؤول الأمر غير مريب
وما ضرنى والعهد غير مبدل   تبدل شرخى ظالماً بمشيبى
وما كنت اخشى ان تكون جناية المشيب براسى فى حساب ذنوبى
ولا عيب لي الا المشيب وحبذا   اذا لم يكن شيئاً سواه عيوبى

معنى « ولا عيب لي الا المشيب » ليس بمعنى أن المشيب عيب، لكن المراد لاعيب لي عند من عابني بالمشيب الا هو ، ثم صرحت بأنني راض بأن لا يكون لي عيب سواه ، لأنه في نفسه أولا ليس بعيب ، فكأنني قلت انني راض بأنه لا عيب لي . وأيضاً فاذا كان لا عيب لي عند من اعتنني وعابني ما ليس بعيب سوى المشيب، فقد رضيت بذلك، وان يكون غاية ما يعتني به المعنتون انما هو الشيب من غير ثان له ولا مضموم اليه .

* * *

ولي وهـي قطعة مفردة محيطة بأوصاف المشيب المختلفة وقلما تجتمع هذه الأوصاف في موضع واحد :

هل الشيب الا غصة في الحيازم   وداء لربات الخدور النواعم
يحدن اذا ابصرنه عن سبيله   صدود النشاوى عن خبيث المطاعم
تعممته بعد الشبيبة ساخطـاً   فكان بياض الشيب شر عمائمى
وقنعت منه بالمخوف كأننى   تقنعت مـن طاقاتـه بالاراقم
وهيبنى منه كما هاب عائج   على الغاب هبات الليوث الضراغم
وهددنى فى كل يوم وليلة   سنا ومضه بالقارعات الحواطم
كفانى عذالي على طربة الصبى   وقام بلوم عفته من لوائمى

وقلص عنى باع كل لذاذة وقصر دونى خطو كل مخالم
فوالله ما ادرى أصكت مفارقى بفهر مشيب ام بفهر مراجم
ولما سقانيه الزمان شربته كما اوجر المأسور مر العلاقم
حنتنى منه الحانيات كأننى اذا ظلت يوماً قائماً غير قائم
واصبحت تستبطا منونى ويدعى وما صدقوها فى اختلال العزائم
فلا انا مدعو ليوم تفاكه ولا انا مرجو ليوم تخاصم
فلا تطلبا منى لقاء محارب فما انا الا فى ثياب مسالم
ولا يدفعنى عنكما غشم غاشم فانى فى ايدى المشيب الغواشم
فلو كنت آسو منكما الكلم مارأت عيونكما عندي كلوم الكوالم
وانى اميم بالشيب فخليا ولا تبغيا عندى علاج الامائم
مشيب كخرق الصبح عال بياضه مجروء الليالى الحالكات العواتم
وتطلع في ليل الشباب نجومه طلوع الدرارى من خلال الغمائم
كأنى منه كلما رمت نهضة الى اللهو مقبوض الخطى بالأداهم
تساندنى الأيدى وقد كنت برهة غنياً بنفسى عن دعام الدعائم
وقد كنت اباء على كل جاذب فلما علانى الشيب لانت شكائمي
واخشع فى الخطب الحقير ضراعة وقد كنت دفاعاً صدور العظائم
وكانت تغير الاغبياء نضارتى فأصبحت ندمان الغيور المعارم
ولما عرانى ظلمه فحملته انست على عمد بحمل المظالم
فلا ينغضن راس الى العز بعد ما تجلله منه مذل الجماجم
فياصبغة حملتها غير راغب ويا صبغة بدلتها غير سائم
ويا زائرى من غير أن استزيره كما زير حيزوم الفتى باللهاذم
اقم لا ترم عنى وان لم تكن هوى فكم ذا سخطنا فقد غير ملائم

فمن مبدلي مــن صبحه بظلامه ... ومن عائضى من بيضه بالسواهم
ومــن حامل عنى الغداة غرامه ... وقد كنت نهاضاً بثقل المغارم
فيابيض بيض الرأس هل لي عودة ... الى السود من اغيار كن الفواحم
تنازحن بالبيض الطوالع شرداً ... كما شرد الأصباح احلام نائم
ويا فجر رأسي هل الى ليل لمتى ... سبيل وكرات المواضى القدائم
ليالي افدى بالنفوس وارتدى ... من البيض اسعافاً ببيض المعاصم
فان كان فقداني الشبيبة لازماً ... فحزنى عليها الدهر ضربة لازم
وان لم يكن نوحي بشاف وادمعى ... فدمع الحياكاف ونوح الحمائم

الحيازم جمع حيزوم وهو الصدر، وانما خصصت النشاوي لأن النشوان نافر النفس شديد العزوف عن كل شيء ، واذا كان عن خبيث المطاعم فهو أنفر وأشد صدوداً .

وشبهت طاقات الشيب بالأراقم، لا في اللون لكن في الخوف منها والرهبة لها والحذار من بطشها .

والحواطم : الكواسر ، جمع حاطمة، وانما سمي حطيم مكة بذلك لانحطام الناس عليه ، والمخالم المحبوب المخلص . وخلم الرجل مخلصه ، ومنه قول أبي نواس :

* فان كنت لا خلماً ولا أنت زوجه *

وانما كان الشيب ثياب مسالم لأنه يؤذن بالضعف والنكول و الخور ، ومن كان كذلك طلب الموادعة والمسالمة .

والأميم الشجبج في أم رأسه ، ومثله المأموم ، والأمة الشجة التى تبلغ ام الرأس . والأدهم : القيود .

ومعنى البيت الذي أوله « وكانت تغير الأغبياء نضارتي » أي انني كنت لحسن شبابي أغير الغبى الذي لافطنة عنده ولاتيقظ منه، فلما شبت واخلق رونقي وغاضت نضارتي صار ينادمني الغيور ، لأمنه مني وثقته بأنه لا طماح من النساء الي ولا تعريج منهن علي . ولم أرض بالغيور حتى قلت « المعارم » من العرام ، والعرامة التى هي النزق وسرعة البطش .

والمراد بالبيت الذي أوله « فياصبغة حملتها غير راغب » أنني حملت صبغة الشيب غير راغب فيها ولاطالب لها وسلبت صبغة الشباب وبدلت منها من غير ملل مني لها . وهذه غاية في التألم والشكوى ، وأي شيء أثقل من انزال ما لا يطلب ولافيه مرغب وسلب ما هو موافق غير مملول ولامكروه .

ومعنى البيت الذي أوله « أقم لا ترم عني وان لم تكن هوى » وان كنت غير موافق ولا محبوب مكروه الفراق مرغوب في مطاولتك ومصاحبتك ، وهذا على ظاهر الأمر كأنه عجيب ، والسبب فيه أن الشيب وان كان مكروه الحلول مشكو النزول فان فراقه لايكون الا بالموت والفناء، فمطاولته على هذا محبوبة مأمولة وفراقه مكروه مذموم . ولا مناقضة في ذلك ، لأن المكروه غير المحبوب والممدوح غير المذموم، وأما المكروه والمذموم فهو تجدد الشيب وحدوثه وطرده الشباب وتبعيده وأما المحبوب الممدوح فهو مطاولة الشيب واستمرار مصاحبته ودوام ايامه ، فهو وان لم يكن نزوله هوى فمقامه ودوامه هوى .

فان قيل : ما في حدوث الشيب وتجدده من الضرر الاما في استمراره ومطاولته ، بل المطاولة أشد ضرراً ، لأن المذموم من الشيب انه يضعف القوة ويوهي المنة ويؤذن بتصرم العمر وهذا يتأكد باستمراره ومطاولته، وان النساء ينفرن منه ويصددن عنه وهذا هو في حدوثه وبقائه معاً .

قلنا : لا شك في أن ضرر ابتداء الشيب هو قائم في استمراره ودوامه ، الا انا

نؤثر على مافيه من ضرره مقامه ونهوى دوامه ونكره فراقه لما في فراقه من الضرر الأعظم وقطع كل المنافع . وقد نختار بعض الأمور المضرة المؤلمة دفعاً لما هو أضر منها ، كمن يمشي على الشوك دافعاً بذلك على شدة ضرره ما هو أعظم منه من المضار وكشاب الدواء المر دافعاً بذلك العلل العظيمة عن جسمه ، وكقاطع بعض اعضائه فادياً بذلك السراية الى نفسه .

* * *

ولي من قصيدة أولها « مازرت الا خداعاً أيها الساري » :

لاتنكري نزوات الشيب آونة ... فى فاحم صيغ للابصار من قار

قد كنت اعذر نفسى قبل زورته ... فالان ضاقت على اللذات اعذاري

من منصفى من بديدات كما ابتدأت ... فى عرفج الدو نار ايما نار

لوامع لم تكن للغيث جاذبة ... او انجم لم تنر للمدلج الساري

يغضضن عنهن ابصار الحسان كما ... يغضضن عن ناخس فيها وعوارى

لا مرحباً ببياض لم يكن وضحاً ... لغرة الصبح أو لمعاً لنوار

أما تشبيه ابتداء الشيب وتبدده فى الشعر بابتداء النار في العرفج قبل انتشارها فيه فهي تضيء منه مواضع دون أخرى ، فمن واقع التشبيه وغريبه . وانما قلنا نار ، استكباراً لها واستعظاماً واختصاراً شديداً لشكوى تلك الحال وتعديد مافيها من المضار .

فأما البيت الدي أوله « لوامع لم تكن للغيث جاذبة » فان تشبيه لمع بياض المشيب في خلال الشباب بلمع البروق في الغمام ، لما اعتمد في البيت ووجب في صنعة الشعر ، وتحقيق معناه : أن ينفى على هذا الشبه بالبروق فيقال انها لم تكن للغيث جاذبة ، وكذلك لما شبه الشيب في هذا البيت بالنجوم وجب أن ينفى عنه

منافع النجوم ومرافقها ، فيقال : انها لم تنر للمدلج الساري .

والبيت الأخير الذى أوله « لا مرحباً ببياض » في معنى هذا البيت الذي تكلمنا عليه ، لأنــه ذم لبياض الشيب لما لم يكن بياضاً لذي منفعة كغرة الصبح ولمع النور . وهذا تصرف في المعاني وتحكم فيها .

* * *

ولي من قصيدة أولها « عتاب لدهر لا يمل عتابى » :

واذ لم ارغ عند الغواني تغزلا	فمثـل مشيبي بينهن شبـابي
ولو كنت يوماً بالخضاب موكلا	خضبت لمن يخفى عليه خضابى
فان تعطني أولى الخضاب شبيبة	فان لـه أخرى بغير شبـاب
وأين من الاصباح صبغه	وأيـن من البازى لـون غراب
واي انتفاع لـي بلون شبيبـة	ولون اهاب الشيب لـون اهابى
وقد قلصت خطوى الليالى وثمرت	بروحاتها مـن جيئتى وذهـابى
وكم ظفر الأقوام في البيض كالدمى	بفـوق المنى منهن لا بشبـاب
فها الشيب منى عارياً غير مكتس	ونصلا على رأسى بغير قـراب

معنى البيت الأول انني اذا كنت لا أطلب الغزل عند الغواني ولا الحظوة منهن فلا فرق بيني وبين مشيبي وشبابى ، لأن الشيب انما يحزن ويكرب من سلبه مودة الغواني وحطه عن رتبته بينهن وزوى عنه خدودهن .

ومعنى البيت الثاني النهي عن الخضاب من حيث كان غير خاف ، لأنه اذا كان لاينبغي أن يخضب الا لمن يخفى عليه خضابه ولم يك خافياً فلا معنى لتكلف الخضاب الذي لايخفى .

ومعنى البيت الثالث معروف ، وقد قيل :

وقالوا الخضاب شباب جديد فقلت النصول مشيب جديد

وقال محمود الوراق :

ان النصول اذا بدا فكأنه شيب جديد

وفي البيت الرابع تفضيل لون الشيب على لون الخضاب .

فأما البيت الذي أوله « وأي انتفاع لي بلون شبيبة » فمعناه كيف أدلس بياض شعري بتسويده ولون جلدي بتشنجه وتغضنه لا يليق بالشباب وانما يليق بالشيب، فانما دلست ما هو منفضح ولبست ما هو منكشف . وكان عندي اني منفرد بهذا المعنى حتى وجدت لابن الرومي :

رأيت خضاب المرء عند مشيبه حداداً على شرخ الشبيبة يلبس
والا فما يغزو امرؤ بخضابه أيطمع ان يخفى شباب مدلس
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضب وكل ثلاث صبحه يتنفس
وهبه يوارى شيبه ابن ماؤه واين اديم للشبيبة املس

ووجدت ابن الرومي يتصرف في هذا المعنى ويعكسه حتى جعل من لاغضارة لجلده من ذوي السواد يظن به الكبر وان سواده خضاب لاشباب ، فقال :

اذا دام للمرء السواد ولم تدم غضارته ظن السواد خضابا
فكيف يظن الشيخ ان خضابه يظن سواداً أو يخال شبابا

وفلسفة هذا الرجل في شعره وتطلبه لطيف المعاني مع اعراض عن فصيح العبارة وغريبها وان كانت مذمومة مستبردة في الأغلب الاكثر ، ربما أثارت دفيناً أو أخرجت علقاً ثميناً .

ونظير قول ابن الرومي « رأيت خضاب المرء عند مشيبه حداداً » قول الأفوه الكوفي :

فان تسألينى ما الخضاب فانني لبست على فقد الشباب حدادا

ومثله لأبى سهل النوبختى :

لم أخضب الشيب للغواني ابغي بـه عندها ودادا
لكن خضابى على شبابى لبست مـن بعده حـدادا

ولابن الرومي في ذم الخضاب :

يا ايها الرجل المسود شيبه كيما يعد به من الشبان
اقصر فلو سودت كل حمامة بيضاء ما عدت من الغربان

وله في هذا المعنى :

فزعت الى الخضاب فلم تجدد بـه خلقاً ولا احييت ميتـا
خضبت الشيب حين بـدا فهلا حلقت العارضين اذ التحيتـا
لترجـع مردة كانت فبـانت كما تسويد شيبتك ارتجيتا

وله مثله :

خضبت الشيب حين بدا لتدعى فتى حدثـاً ضلالا ما ارتجيتا
ألا حاولت أن تدعى غـلاماً بحلق العارضين اذ التحيتـا
ابت آثـار دهرك ان تعفى بكفك شئت ذلك ام ابيتا
فدع عنك الخضاب ولا ترده فأجدى منه قولـك لو وليتا

وهذه الأبيات ـ وان كان لمعناها بعض الصحة ـ فألفاظها مباينة لأسلوب الشعر العربى ، وحظ اللفظ في الشعر أقوى من حظ المعنى .

وله أيضاً مثله :

كما لو أردنا أن نحيل شبابنا مشيباً ولم يأن المشيب تعذرا
كذلك تعيينا احالة شيبنا شباباً اذا ثوب الشباب تحسرا
أبى الله تدبير ابن آدم نفاء وألا يكون العبد الا مدبرا
ولاصبغ الاصبغ من صبغ الدجى دجوجية والصبح انور ازهرا

فأما قولي في البيت الأخير من الأبيات الثانية « فها الشيب مني عارياً غير مكتس » فانما أردت بعد ذم الخضاب وبيان أنه لا طائل في تكلفه أن شيبي عار من الخضاب وانه على هيئته وخلقته وجعلت الخضاب تارة له كسوة وأخرى قراباً لما جعلت الشيب نصلا ، فهو يشبه النصل لوناً وصقالا .

* * *

ولي من قصيدة اولها « ماذا جنته ليلة التعريف » :

وتعجبت للشيب وهو جناية لدلال غائية وصد صدوف
واحاطت الحسناء بى تبعاته فكأنما تفويفه تفويفى
هو منزل بدلته من غيره وهو الفتى في المنزل المألوف
لاتنكريه فهو أبعد لبسة عن قذف قاذفة وقرف قروف

* * *

ولى من قطعة :

وتطلب مني الحب والشيب لبستى واين الهوى ممن له الشعر ابيضا
فقلت لها قد كنت بالحب مولعاً ولكنه لما انقضت شرتى انقضى

* * *

ولى وهو ابتداء قصيدة :

سجالك ان الليل ليل عذاري — مضى عائضاً منه بضوء نهار
فمن لي عن الفجر المغلس بالدجى — وعن يفق لم ارض عنه بقار
وكنت حذرت الشيب حتى لبسته — وقل على المحتوم نفع حذار
لهيب مشيب في الفؤاد مثاله — جوى وأوار من جوى وأوار
عشية امحى من عداد اولي الهوى — ولا تألف الحسناء عقوة داري
وشق مزاري بعد ان كنت برهة — اذا زير ربعي لايشق مزاري
تحب وتهوى كل يوم فكاهتي — ويبتاع بالدر النفيس جواري
وليس هوى الا علي معاجه — وفي قبضتي البيض الدمى واساري
فها انا ملقى كالقذاة تناط بي — جرائر لم يجعلن تحت خياري
اقيل عثاراً كل يوم وليلة — الهوى من لا يقبل عثاري

أما قولي « لهيب مشيب في الفؤاد مثاله » فمعناه أن الشيب المنتشر في الشعر المشبه لضوئه بلهب النار في القلب مثال له لتلهب الحزن والغم ، واشتعالهما في القلب من اجل نزول الشيب وحلوله .

والجوى هاهنا هو الحزن الباطن ، والاوار لهيب النار ، فكأن هذا الذي في القلب من الجوى والأوار متولد من أوار الشيب وتلهبه في الشعر .

فان قيل : أليس أهل اللغة يقولون ان الجوى هو الهوى الباطن ، فكيف جعلتموه حزناً وهماً ؟

قلنا : لا يسمون الهوى الباطن جوى الا اذا صحبه لدع وجوى وهم، وذلك معروف .

فان قيل : فهبوا ان الأمر على ما قلتموه في ما يكون في القلب كيف جعلتم الشيب جوى وجمعتم بينه وبين الاوار ، وهو يشبه أوار النار بلونه ، ولا نسبة بينه

وبين الجوى .

قلنا : اذا كان سبب جوى القلب الذي هو الحزن به والغم على حلوله جاز أن يسمى باسمه ، فقد سموا السبب باسم مسببه والمسبب باسم سببه ، وتخطوا ذلك الى ما هو أبعد منه كثيراً ، والاستعارات واسعة فسيحة .

وفي قولي « الفجر المغلس » معنى لطيف ، لأنني أشرت الى أن الشيب عجل عن وقته المعهود له ، فلهذا شبهته بالفجر الطالع في الغلس قبل أوان طلوعه المألوف .

* * *

ولي من قصيدة أولها « لمن ضرم أعلى البقاع تعلقا » :

وعيرنني شيباً سيكسبن مثله ... ومن ضل عن ايدي الردى شاب مفرقا
وهل تارك للمرء يوماً شبابه ... صباح وامساء ومنأى وملتقى

* * *

ولي من قصيدة أولها « ما قربوا الالبين نوقا » :

ذهب الشباب وكم مضى من فائت ... لايستطيع له الغداة لحوقا
ما كان الا العيش قضى فانقضى ... بالرغم او ماء الحياة اريقا
فلو انني خيرت يوماً خلة ... ماكنت الا للشباب صديقا
ولقد ذكرت على تقادم عهده ... عيشاً لنا بالأنعمين انيقا
ازمان كان بهـا ردائي ساحبـاً ... اشراً وغصني بالشباب وريقا
واذا تراءى في عيون ظبائهم ... كنت الفتى المرموق والموموقا

* * *

ولي من قصيدة أولها « مثلا عنى المنازل لم بلينا » :

فيا شعرات رأس كن سودا　　　وحلن بمـا جناه الدهر جونا
مشيبك بالسنين ومن هموم　　　وليتك قد تركت مع السنينا
كرهت الأربعين وقد تدانت　　　فمن ذا لى برد الاربعينا
ولاح بمفرقى قبس منير　　　يدل على مقاتلى المنونا

الجون من الألفاظ المشتركة بين الأبيض والأسود ، واردت بالجون ههنا البيض في مقابلة السود .

ومعنى « وليتك قد تركت مع السنينا » أي ليت الهموم والأحزان والأسباب المشيبة للشعر لم تطرقك وتركت مع مر السنبن وتأثيرها فيك، فكأنني تمنيت الأربعين السنين على شيب رأسي معين ، وانما يكره الأربعين من لم يبلغها لأنها أقرب الى الموت وأدنى الى الهرم مـن السن الذي تقدمها فاذا جاوزها وأربى عليها تمناها لانها أقرب من الشباب وأبعد من الهرم والموت من السن التى هو فيها .

وقد ذكرت فيما مضى نظير البيت الذي أوله « ولاح بمفرقي قبس منير » .

* * *

ولي من قصيدة أولها « ان على رمل العقيق خيما » :

عجبت ياظمياء مـن شيب غدا　　　منتشراً في مفرق مبتسما
لو كان لي حكم يطاع امره　　　حميت منـه لمتى واللمما
تهوين عـن بيض برأسي سوده　　　وعن صباح في العذار الظلما
وقلت ظلمـاً كالثغام لونه　　　ولون مـا تبغين يحكى الفحما
صبغ الدجى ابعد عـن فاحشة　　　ولـم يزل صبغ الدجى متهما

من عاش لـم تجن عليه نوب شابت نواحي رأسه او هرمـا

ان قيل : كيف تكون ظالمة بتشبيه الشيب بالثغام وهو أشبه شيء به ؟

قلنا : لم تظلم لأجل التشبيه الذي هو صحيح واقع ، ولكن لأنها ذمت بذلك الشيب وهجنته وأزرت عليه ، ولهذا عورضت بأن لون ما تهواه من الشباب يشبه الفحم الذي الثغام على كل حال أفضل منه .

فأمـا الذي أوله « صبغ الدجى أبعد عن فاحشة » فعزيز المعنى ، لأن النهار نفسه ومـا يشبه بالنهار من الشيب أبعد من الفواحش والقبائح ، أمـا النهار فانه يظهرها ولا يسترها والشيب يعظ ويزجرعن ركوبها، وصاحبه في الاكثر عندالناس منزه عنها . وصبغ الدجى الذي هو الليل نفسه ومايشبه به من الشباب أدنى القبائح، لأن الليل يستر القبيح ويخفيه والشباب يدعو الى اقتراف القبيح ويعلق على صاحبه منه مالا يعلق على ذي الشيبة .

ونظير « صبغ الدجى أبعد عن فاحشة » قولي :

لا تنكريه فهو أبعـد لبسة عن قذت قاذفة وقرف قروف

ونظير قولي « ولم يزل صبغ الدجى متهما » قولي :

ومعيرى شيب العذار ومادرى أن الشباب مطية للفاسق

* * *

ولي من قصيدة أولها « ليس للقليب في السلو نصيب » :

ولقد قلت للمليحة والرأس بصبغ المشيب ظلماً خضيب

لاتريه مجانباً للتصابى ليس بدعاً صبابة ومشيب

* * *

ولي من قصيدة أولها « بلغنا ليلة السهب » :

ولما رأت الحسناء في رأسى كالشهب
وبيضاً كالظبى البيض وما يصلحن للضرب
وحادت عن مقر كان فيه بقر السرب
تجنبت بلا جرم وعوقبت بلا ذنب
وعاتبت ولكن قلما ينفعني عتبى

انما قلت : « وما يصلحن للضرب » لئلا يفهم من تشبيهي للطاقات البيض الشيب بالظبى البيض التماثل من كل جهة ، فاستثنيت أنهن لايصلحن للضرب كما تصلح السيوف لذلك ، واذا كان المقصد ذم الشيب ثم شبه من بعض الوجوه بماله فضل في نفسه ، فمن الواجب أن يستثنى مالا يشبه فيه من الفضيلة ليخلص القول للذم. وهذا اذا تؤمل كان له موقع لطيف من البلاغة . ولعمري ان الشعر موضوع على الاختصار والحذف والاشارة .

ولو قلت « وبيضاً كالظبى البيض » لما فهم الا التشبيه في اللون دون غيره سنة اذا أمكن التحقيق واستيفاء الأغراض من غير أن يلحق الكلام هجنة فهو أولى.

* * *

ولي من قطعة :

ليس المشيب بذنب فلا تعديه ذنبا
غصبت شرخ شبابى بالليل والصبح غصبا
وشب شيب عذاري كما اشتهى الدهر شبا
ان كنت بدلت لوناً فما تبدلت حبا
او كنت بوعدت جسماً فما تباعدت قلبا

وكلما شاب رأسي نما غرامي وشبا

* * *

ولي من قصيدة أولها « كنت من أسماء ماكان علن » :

راعك يـا أسماء مني بارق أضاء مـا بين العذار والذقن
لاتنفري منـه ولا تستنكرى فهو صباح طالمـا كان دجن
ثاو نأى اذ رحل الدهر بـه واي ثـاو في الليالي ماظعن
ان كان احيا الحلم فيناو الحجى فـانه غال المراح والأرن
كم كع مملوء الاهاب من صبى عن العلى واحتلها الهم اليفن

لست أرى تهجين هذه الأبيات بوصف ربما قصرعن مدى حقها ، فكم مرسوم بالعدول عن حقه وممدوح بالاعراض عن مدحه .

فأما كع فمعناه عجز ، يقولون : كع عن كذا اذا نكل عنه وعجز . والاهاب: الجلد . واليفن : الشيخ الهرم الضعيف .

* * *

ولي من قطعة مفردة :

صدت أسيماء عن شيبي فقلت لها لا تنفري فبيـاض الشيب معهود
عمر الشباب قصير لا بقاء لـه والعمر في الشيب يا اسماء ممدود
قالت طردت عن اللذات قاطبة فقلت انى عن الفحشاء مطرود
ماصدني شيب رأسي عن تقى وعلى لكنني عن قذى الأخلاق مصدود
لولا بياض الضحى مانيل مفتقد ما لم ينل مطلب يبغى ومقصود
ما عادل الصبح ليل لاضياء به ولا استوت في الليالي البيض والسود

المعهود: المألوف لا ينفر منه . والشيب معتادفي من كبروأسن وانماينفرمما خالف العادة .

والبيت الثاني نظير قول الشاعر :

والشيب انيظهر فان وراءه عمراً يكون خلاله متنفس

لأن العمر في البياض أطول منه في السواد .

وعلى البيت الثالث سؤال : كيف يكون الشيب طارداً عن الفحشاء خاصة ومن شأنه أن يصد عن كل لذة ومتعة حسنة كانت أوقبيحة .

والجواب: انني أردت انه يصدني عن الفحشاء بوعظه وزجره لاباعجازه ومنعه واني قادر متمكن من مباح اللذات ، والبيت الرابع يقوى هذا المعنى .

والبيت الخامس والسادس من حسن ما فضل به البياض الذي هو لون المشيب على السواد .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

نبت عينا أمامة عن مشيبى وعدت شيب رأسى من ذنوبي
وقالت لو سترت الشيب عنى فكم اخفى التستر من عيوبى
فقلت لها اجل صريح ودى واخلاصى عن الشعر الخضيب
ومالك يا امام مع الليالى اذا طاولن بد من مشيب
وما تدليس شيب الرأس الا كتدليس الوداد على الحبيب
فلا تلحى عليه فذاك داء عياء ضل عن حيل الطبيب
وان بعيد شيبك وهو آت نظير بياض مفرقى القريب

وان تأبى فقومي ميزى لي نصيبك فيـه يوماً مـن نصيبي

معنى البيت الثاني انني خالص المودة صريح المحبة ، فلا أدنس ذلك بتزوير الشعر بالخضاب وتشبيهه بالشباب . وقد أفصحت عن هذا البيت الذي أوله « وما تدليس شب الرأس » .

وابن الرومي جعل من حضب للغواني معاقباً بغشهن في وده ، فقال :

قل للمسود حين شيب هكذا غش الغواني في الهوى اياكا
كذب الغواني في سواد عذاره وكذبنه في ودهـن كذاكا

ومعنى البيت الذى أوله « وان بعيد شيبك وهو آت » اننـا سواء في الشيب وانما هو واقع بي ومتوقع فيك ، وكل آت قريب .

والبيت الثالث معناه : انك ان اثبت أننـا في اشكال وامثال فعرفيني الفرق بيني وبينك فيه ، وأي أمان لك مما نزل بى وحل عندي . وهذا من لطيف التسلية عـن الشيب والاحتيال في دفع احزانه وهمومه والاحتجاج على مـن عابه من النساء وذمه وقبحه .

* * *

ولي من قطعة مفردة :

أمـن شعر في الرأس بدل لونه تبدلت وداً يـا اسيماء عن ودى
فان يك هذا الهجر منك او القلى فليس بياض الرأس يا اسم من عندى
تصدين عمداً والهوى انت كله وما كان شيبي لو تأملت من عمدى
وليس لمـن جازته ستون حجة من الشيب ان لم يرده الموت من بد
ولا لوم يوماً مـن تغير صبغة اذا لم يكن ذاك التغير في عهدى

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

يقولون لي لم أنت للشيب كاره فقلت طريق الموت عند مشيبي
قربت الردى لما تجلل مفرقي وكنت بعيداً منـه غير قريب
وكنت رطيب الغصن قبل حلوله وغصني مذ شيبت غير رطيب
ولم يك الا عن مشيب ذوائبي جفـاء خليلي وازورار حبيبي
وماكنت ذاعيب فقد صرت بعده تخط بأيدي الغانيات عيوبي
فليس بكائي للشباب وانـما بكائي على عمري مضى ونحيبي

البيت الذي أوله « وماكنت ذا عيب » يحتمل أن يكون المراد بـه انني بعد المشيب بلا عيب على الحقيقة كماكنت غير أن الغانيات يتجر من علي بعدالشيب فيضفن الي عيوباً ليست في. ويحتمل أن يراد أيضاً أن عيوبي كانت مستورة مغفورة في ظل الشباب ، فلما قلص عني وانحسر أظهرت واعلنت ، لأن الشافع في زال والعاذر لي حال . ويمضي هذا المعنى كثيراً .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة قلتها في ذم الشيب :

بياضك يـا لون المشيب سواد وسقمك سقم لا يكاد يعاد
وقدصرت مكروهاًعلى الشيب بعدما عمرت وما عند المشيب اراد
فلي مـن قلوب الغانيات ملالة ولي من صلاح الغانيات فساد
وما لي نصيب بينهن وليس لي اذا هن زودن الأحبة زاد
وما الشيب الاتوأم الموت للفتى وعيش امرىء بعدالمشيب جهاد

* * *

ولي فى الاعتذار عن الشيب والتسلية عنه ، وهي قطعة مفردة :

تقول لي انمـا الستون مقطعة ... بين الرجال ووصل الخرد الغيد
وما استوى يفن ولت نضارتـه ... في الغانيات بغصن ناضر العود
فقلت ما الشيب الا لبسة لبست ... مـا اثرت لى فى بخل ولا جود
ولا وفاء ولا غدر ولا كلف ... ولا ملال ولا انجاز موعود
ان الحفاظ وبيضى فيـه لامعة ... خيرمن الغدر لوجربت في سودى

واذا كنا قد استوفينا غرضنا الذي قصدناه فالواجب قطع الكتاب ههنا فقدطال وربما امل الطويل .

ولعل معنتاً يطعن فيمااوردناه في أثناء كلامنا من نظائر الشعر بأنا ما استوفيناه ولا استقصيناه ويذكر نظائر لم نذكرها أويعيب بعدولنا عما عدلنا حمله عن ذكر نظائره .

والجواب عن ذلك : ان كتابنا هذا ما وضعناه لذكر النظائر ، وانمـا كان الغرض فيه ما تضمنته خطبة الكتاب وقد استوفى ، وما مضى من ذكر نظائر فانه اتفق عرضاً، ولو قصدنا هذا الفن لاستوفيناه بحسب ما يحضرنا وينتهي اليه علمنا، فان نظائر الشعر لاتحصى كثرة ، ومن تعاطى ذكرها واعتمده فما عليه الا الاجتهاد وايراد ما يناله حفظه أو يده وتصفحه .

والله تعالى المأمول المرجو للسداد والرشاد ، هادياً الى سننهما ودالا على محجتهمـا ، وهوحسبنا الله ونعم الوكيل . وصلواته على محمد وآله الطاهرين، والحمد لله وحده .

الزيادة فى كتاب الشيب والشباب

* * *

قدكنا أشرنا الى أنه متى اتفق في جملة ما ننظمه بعد عمل هذا الكتاب شيء يتضمن وصف الشيب ضممناه اليه وألحقناه به ، ونحن لذلك فاعلون :

* * *

ولي قصيدة أولها « توق ديار الحي فهي المقاتل » :

وأين الهوى مني وقد شحط الصبى   وفارق فودي الشباب المزايل
وقد قلصت عني ذيول شبيبتى   وفي الرأس شيب كالثغامة شامل
ولي من دموعي غدوة وعشية   لبين الشباب الغض طل ووابل
وكيف يزيل الشيب اويرجع الصبى   وجيب قلوب او دموع هو امل

* * *

ولي وهي قطعة مفردة وفيها ذم الشيب :

قد كان لي غلس لا فجر يمزجه   فالان فجرى بلاشيء من الغلس

قالوا تسلى فشيبات الصبى قبس فقلت ذاك ولكن شر ما قبس
وزارني لم ارد منه زيارته شيب ولم يثن اعواني ولا حرسي
يضيء بعد سواد في مطالعه لفاغر من ردى الأيام مفترس
طوى قناتي واغتالت اظافره تحضي ورد الى تقويمه شوسي
وصد عني قلوب البيض نافرة وساقني اليوم من نطق الى خرس
ان كان شيبي بقاء قبله دنس فقد رضيت بذاك الملبس الدنس
وغالطوني وقالوا الشيب مطهرة وما السواد به شيء من النجس
والعمر في الشيب ممتد كما زعموا لكنه لم يدع شيئاً سوى النفس

معنى البيت الأول انه كان مشبه بالغلس وهو الشباب لايمزجه شيء من المشبه بالفجر وهو الشيب ، فانعكس ذلك وصار بياضي بغير سواد .

ومعنى البيت الثاني : أنهم اذا أسلوا عن المشيب وعزوا عن مضرته بأنه يشبه بالقبس الذي المنفعة به ظاهرة، فمن أحسن جواب عن هذه التسلية أن يصدقوا في شبهه به هيئة وصبغة ومخالفته له في الفائدة والعائدة ، وقرب شيء يوافقه ظاهراً ويخالفه باطناً . والقبس أيضاً الذي شبه الشيب به قد يستضر به في حال كما ينتفع به في أخرى . وقولي « ولكن شرما قبس » كاف في الجواب .

وانما قلت « ذاك » ولم اقل ذاكم والخطاب لجماعة استقلالا لفظة الجمع في هذا الموضع واستخفاف خطاب الواحد .

وقد يجوز أن يقل المخاطب بالجواب على بعض من خاطبه دون بعض ، أما لتقدمه ووجاهته أو لفضل علمه وفرط فطنته. وفي الكلام الفصيح لهذا نظائر كثيرة يطول ذكرها، فان استحسن أواستخف راو أن يقول ذاكم مكان ذاك فليروه كذلك، فلا فرق بين الأمرين .

وأما البيت الثالث فمعناه ان الأعوان والحراس من شأنهم أن يدفعوا زيارة من تكره زيارته وتجتوى مقاربته ، والشيب من بين الزائرين الوافدين لايغنى في دفعه ومنعه أعوان ولا حراس .

ومعنى البيت الرابع نظير قولي وقد تقدم :

ولاح بمفرقي قبس منير يدل على مقاتلي المنونا

وقول أخي رضي الله عنه وقد تقدم أيضاً :

تعشو الى ضوء المشيب فتهتدى وتضل فى ليل الشباب الغابر

وقول ابن الرومى :

* فلما اضاء الشيب شخصى رمانيا *

ومعنى قولي في البيت الخامس «طوى قناتي» انه حنى قامتي ، فان الكبر يفعل ذلك .

والبحض : اللحم ، ولا شبهة في أن الكبر يعترق اللحم من الجسد .

فأما الشوس فهو رفع الرأس تكبراً وتجبراً ، يقال رجل أشوس ورجال شوس ، فأردت أن الشيب يمنع من التكبر ويقعد عن التجبر ويورث الخشوع والاستكانة والخضوع .

وقولي في البيت السادس « وساقني اليوم من نطق الى خرس » يجوز أن يكون المراد به انني أكل عن الحجة وأعجز عن استيفاء الخطاب لضعف الكبر وعجز الهرم ، فكأنني خرست بعد نطق .

ويجوز أن يراد به أيضاً انني أمسك عن الكلام وأسكت عن الجواب مع قدرة عليهما باسترذال كلامي واستضعاف خطابى ، فان الكبر لايؤتمر له ولا يصغى اليه .

والبيت السابع مكشوف المعنى ، وكذلك الثامن .

فأما البيت الأخير فأن غاية ما يمدح به الشيب ويفضل له ان يقال : ان العمر فيه ممتد يزيد على العمر في الشباب ، فكأنني سلمت هذا الذي تدعى به الفضيلة والمزية وقلت : اذا كان المشيب لم يدع شيئاً سوى النفس الدال على وجود الحياة مجردة من كل انتفاع والتذاذ وبلوغ ارب ووطر ، فأي فائدة في طول عمر بلامنفعة ولا لذة ولا متعة ، وانما يراد تطاول العمر لزيادة الانتفاع وطول الاستمتاع .

* * *

ولي فى مثل ذلك وهى قطعة مفردة :

لا تنظري اليوم يا سلمى الي فما	أبق المشيب بوجهي نضرة البشر
جنى علي فقولى كيف اصنع فى	جان اذا كان يجنى غير معتذر
عرا فأعرى من الاقطار قاطبة	قهراً وألبسنى ما ليس من وطرى
وقد حذرت ولكن رب مقترب	لم انج منه وان حاذرت بالحذر
فان شكوت الى قوم مساكنهم	ظل السلامة ردونى الى القدر
كونى كماشئت فى طول وفى قصر	فليس ايام شيب الرأس من عمرى
فقل لمن ظل يسلى عن مصيبته	لاسلوة لى عن سمعى وعن بصرى
شر العقوبة يا سلمى على رجل	عقوبة من صروف الدهر فى الشعر
ان كان طال له عمر فشيبه	فكل طول عداه الفضل كالقصر
يلين منه ويرخى من معاجمه	كرهاً ولو كان منحوتاً من الحجر
فان تكن وخطات الشيب فى شعرى	بيضاً فكم من بياض ليس للغرر
ما كل اشراقة للصبح فى غلس	وليس كل ضياء من سنا القمر

معنى قولي « وكل طول عداه الفضل كالقصر » أن طول الزمان انما يحمد

ويطلب اذا جلب نفعاً وأثمر فائدة ، واذاكان بالضد من ذلك فهو كالقصير من الزمان في عدم الانتقاع بطوله .

ومعنى « فكم من بياض ليس للغرر » أي لا تعزوني عن المشيب ببياض لونه واشراقه فليس كل بياض محموداً وان كان بياض الغرر ممدوحاً .

ومعنى البيت الثاني هو هذا بعينه ومؤكداً للأول وموضحاً عنه .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

قالت مشيبك فجر والشباب اذا ... زرناك ظلمة ليل فيه مستتر

فقلت من كان هجرى الدهر عادته ... ما ان له بضياء الشيب معتذر

لا تسخطيه بهذا الشيب مصدوق ... على عيوب بضد الشيب تستتر

ترين مني وضوء الشيب يفضحني ... ما زاغ عنه ورأسي اسود نضر

معنى البيت الأول كأنه غريب . والجواب عن اعتذار المتمحل للهجر صحيح، لأن من كان لا يلم بزيارة ولا يهم بلقاء سواء عليه ضياء أظهره أو سواد ستره .

والبتان الأخيران بليغان في المعنى المقصود بهما .

وتقريب الشيب من قلوب من يطلب العيوب ويؤثر الظهور على الغيوب بأنه يظهر مكتومها ويبرز مستورها ، من ألطف المكايد وأغمضها .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

نضوت ثياب اللهو عنى فقلصت ... وشيبني قبل المشيب هموم

وقدكنت فى ظل الشباب بنعمة ... وأي نعيم للرجال يدوم

وقد علم الأقوام ان لم يغالطوا بأن صحيحاً في المشيب سقيم
وان غنيـا فى الهوى ونزيله المشيب فقير الراحتين عـديم

معنى قولى « وشيبنى قبل المشيب هموم » قبل أوان المشيب وابانه والوقت الذي جرت العادة بنزوله فيه ، ولا يجوز حمل الكلام الا على ذلـك في حكم الضرورة ، لأن ما شيب من الهموم فالمشيب لا محالة معه ، فكيف يكون قبله لولا الحذف الذي أشرنا اليه .

* * *

ولي قطعة وهي مفردة :

صـد عنى وأعرضا اذ رأى الرأس ابيضا
ونضا عنى الغضاضة واللهو ما نضا
واسترد الزمـان منى ما كان اقرضا
ورمـانى بشيب رأسى ظلماً واغرضـا
واستحال الطبيب لى مـن سقامي فأمرضا
ومحـب عهدتـه صار بالشيب مبغضا
كان يرضى ولم يدع شيب رأسى له رضى
قـال لي مفصحاً وما كان الا معرضـا
اين شرخ الشباب قلت خباء تقوضا
أو منام وافى الصباح الينا وقد مضى

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

صد عني كارهاً قربى وقد كان حبيبا
ورأى في الفاحم الجعد من الرأس مشيبا
كشهاب غابت الشهب ويأبى أن يغيبا
أو كنـار تخمد النار ويزداد لهيبـا
كنت عرياناً بلا عيب فأهدى لي العيوبا
قلت مـا اذنبت بالشيب اليكم فأتوبـا
هو داء حل جسمي لم اجـد منه طبيبا
لـم تجد ذنباً ولكنك لفقت ذنوبـا

يحتمل البيت الخامس الذي أوله « كنت عرياناً بلاعيب » وجوهاً من التأويل:

أولها ـ ان يراد : أنني كنت بلا عيب فصار لي من الشيب نفسه عيب ، لأن النساء يعبن به وينفرن منه .

وثانيها ـ ان يكون المراد : ان الشباب كان ساتراً لعيوب كانت فيّ مغفورة لي لأجله ، فلما نزل الشيب اذيعت في وبقيت علي .

وثالثها ـ أنه لم يكن في عيب فلما نزل الشيب تمحلت لي عيوب وعلقت علي ونسبت الي ، فان ذا الشيب ابداً معيب بين النساء متجرم عليه .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

لا تطلبي مني الشباب فما عندي شباب والشيب قد وفدا
اين شبابي وقـد انفت على الستين سناً وجزتها عـددا
فمن بغى عندي البشاشة واللهو وبعض النشاط ما وجدا

وقد مضى من يدى وفارقني ما لا اراه براجع ابدا

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

صدت وما كان الذي صدها الا طلوع الشعر الاشهب
زار وكم من زائر للفتى حل بواديه ولم يطلب
ركبته كرهاً ومن ذا الذي اركبه الدهر فلم يركب
كأنه نار لباغي القرى اضرمها القوم على مرقب
او كوكب لاح على افقه او بارق يلمع فى غيهب
لحمى وقد اصبحت جاراً له زادى ودمعى وحده مشربى
وانني فيه ومن اجله معاقب القلب ولم اذنب
وليس لى حظ وان كنت من اهل الهوى في قنص الربرب
وما رأينا قبله زائراً جاء الينا ثم لم يذهب

معنى البيت الذي أوله «لحمى وقد أصبحت جاراً له» ان صاحب الشيب اذا كان على الأكثر ينتقص لحمه ويهزل جسمه ويعترق الشيب اعضاءه ، فكان ذا الشيب يتزود لحمه فهو يفنى على الأيام .

ويحتمل وجهاً آخر ، وهو : ان لذي الشيب حسرة على شبابه وحزناً على حلول مشيبه ، فيعض كفه وأنامله كما يفعل المغيظ المهموم ، وجعل ذلك الغيظ تزوداً واقتياتاً على سبيل المجاز .

والبيت الأخير معناه : ان من شأن كل زائر لغيره أن يجوز انصرافه عنه ومفارقته له وذلك المزورحي باق ، الا الشيب فانه اذا زار لم يذهب الا بذهاب الحياة وفقدها .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

لاتسألني عن المشيب فمذ ... جلل رأسى كرهاً جفاني الغرام
ليس للهو والصبابة واللذات في اربع المشيب مقام
ما جنى الشيب فى المفارق الا ... عنت الغانيات والايام
هو نقص عند الحسان كما ... ان شباباً مكان شيب تمام
وسقام وما استوت لك في ... نيل امانيك صحة وسقام
ومتى رمت عرجة عنه قالت ... لي التجاريب رمت ما لايرام

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

تقول لي ومآقيها مطفحة ... من ذا ابان على صبغ الدجى قبسا
من ذا الذي غل من فوديك لونهما ... وسل حسنك فى ما سل او خلسا
مالي اراك ونور البدر منكسف ... فى وجنتيك وخط فيهما طمسا
كأنما أنت ربع طل ساكنه ... ومنزل عطل من اهله درسا
ما ضر شيئاً وقد وافى بمنظرة ... تقذى النواظر لو ابطا او احتبسا
أما علمت بأنا معشر جزع ... نقلى الصباح ونهوى دونه الغلسا
فقلت ما كنت من شيء يصيب به ... ربى وان ساء منى القلب محترسا
وما الشبيبة الا لبسة نزعت ... بدلت منها فلا تستنكرى اللبسا
وفي كل الذي تهوين من جلد ... فما ابالى أقام الشيب ام جلسا
لاتطلبي اللهو منى والمشيب على ... رأسى فان قعود اللهو قد شمسا
ولا ترومى الذي عودت من ملق ... وكل ما لان قبلي الغداة قسا

ولي من قطعة مفردة :

* * *

قلت لمسود لـه شعره هل لك في المبيض من شعرى
خذه وان لـم ترضه صاحباً مع الذي بقى مـن عمرى
فقال لي يـا بعد مـا بيننا وتازح امرك مـن امرى
عمرت ستين ونيفها ونيفت سنـي على عشر
ليس لداء بك مـن حيلة فاجرع مـلاء اكؤس الصبر

ان قيل : كيف تسمح نفس صاحب الشيب بأن يسأل في نقله عنه مع سلب ما بقي من عمره وانما يكره الشيب لأنه نذير الموت وبشير بمفارقة الحياة ؟

فالجواب : ان أحد ما يكره له الشيب مـا ذكرني السؤال والأكثر الاظهر في سبب كراهية المشيب نفور الغواني منـه وصدودهن عنه وتعييرهن بـه ، وان صاحبه فاقد اللذات ضعيف الشهوات متكدر الحياة ، ومن كان بهذه الصفة تمنى أن يفارقه الشيب بمقارقة الحياة ليستريح من أدوائه التى لاعلاج منها ولادواء لها.

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

لوت وجهها عن شيب رأسي وانما لوت عن بياض زاهر لونه غضا
ولو انصفت ما اعرضت عن شبيهها ولا ابدلته مـن محبته بغضـا

نفور الانسان لايكون عما يماثله ويجانسه بل عما يضاده ويخالفه، والبيض من النساء يوافق لونهن لون المشيب ، فكيف نفرن عنه وبعدن منه مع المشاكلة لولا انعكاس العادة في الشيب .

* * *

ولي من جملة قطعة مفردة :

ورابك مني قبل أن تتبيني بأن ليس لي أمر عليه مشيب
وعاقبتني ظلماً وكم من معاقب وليس لـه عند الحسان ذنـوب
وليس عجيباً شيب رأسي وانما صدودك عن ذاك المشيب عجيب
هبيـه نهاراً بعد ليل وروضة تضاحك فيها النور وهي قطوب
ولاتطلبي شرخ الشباب وقدمضى فذلك شيء مـا أراه يؤوب

أما وصف مالم يظهر زهره ونواره مـن الروض بالقطوب فمن واقع التشبيه وغريبه ، لأنه اذا شبه مـا أزهر منه ونور بالضاحك جاز أن يسمى مـا استمر على اخضراره واسوداده بأنه قاطب ، لفقد النور المشبه بالضحك منه .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

تلوم وقد لاحت طوالع شيبتي ومـا كنت منها قبل ذاك مفندا
فحسبك مـن لومي والا فبعضه فما ابيض الا بعض ما كان اسودا
ولاتلزميني اليوم عيباً بصبغـة ستكسينها اما بقيت لها غدا
ولو خلدت لي حالة مع تولع الليالي بأحوالي لكنت المخلدا
ولو لم أشب او تنتقصني مدة لكنت على الأيام نسراً وفرقدا
وان المشيب فدية من حفيرة ابيت بها صفراً من الناس مفردا
أوسد بالصفاح لا من كرامة واني غنى وسطها ان اوسدا
فلا تنفري يا نفس يوماً من فما انت الا في طريق الى الردى

البيت الثاني لطيف المعنى، لأن من لام وفند وعنف على شيب لاصنع للشائب

في نزوله ولا حيلة له في دفع حلوله يجب أن يستوقف عن لومه ان انصف ، فان ابى الا الظلم فلا أقل من أن يقتصر على بعض اللوام ولا ينتهي الى غايته ، لأن الشعر الـذي عنف ببياضه انما ابيض بعضه ولم يسر ذلك الى كله ، فسبب اللوم اذا لم ينته الى الغاية فاللوم لايجب أن ينتهي اليها .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

تضاحكت لما رأيت المشيب ولم ارفى ذاك ما يضحك
وما زال دفع مشيب العذار لا يستطاع ولا يملك
وقال لى الدهر لما بقيت اما المشيب او المهلك
فقولى وانت تعيبينني لأى طريقيهما اسلك

اللطف ما هون به نزول الشيب ، وأقواه شبهة انه فداء المنية وبدل من الهلكة وقد تقدم في شعري نظائر لذلك كثيرة من استقرأها وجدها .

* * *

ولي من جملة قطعة مفردة :

يـا أسم ان صبابتى بك لواويت لها طويله
واخذتنى بذنوب شيب لـم تكن لى فيـه حيله
نزلت شواتـى خطـة منـه احاذرها نزيلـه
وقضى الشباب وليتـه لما قضى لـم يقض غيله
كان الشباب وسيلتي فالان ما لى مـن وسيله

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

تقاسم الليل والاصباح بينهما عمري فمن حاصد طوراً ومزدرعي
اعطى نهاري وليلي شبه صبغهما فنسج ايدى الدجى ثم الضحى خلعي
لليل سودى وللصبح المنير اذا أجلاه شيبي فلومي فيه أو قدعي
فنوبة الليل قد ولت كما نزلت فأصبح من هذا المشيب معي

هذه الأبيات متضمنة لمعنى غريب، لأن هذا القسم والتوزيع على الليل والنهار من الشيب والشباب شبههما وتظيرهما ما وجدته الى الآن على هذا الترتيب في شيء من الشعر المأثور .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

ان عاقب الشيب السواد بمفرقي فالليل يتلوه الصباح الواضح
من اخطأته وقد رمت قوس الردى يبيض منه مفارق ومسانح
لو كان لليل البهيم فضيلة لم تدن منه مقابس ومصابح
البيض للعينين وجه ضاحك والسود للعينين وجه كالح
واشد من جدع الجياد اذا جرت جرياً واصبرهن نهد فارح
والبزل تغتال الطريق سليمة وعلى الطريق من البكار طلائح

قد جمعت هذه الأبيات من الاعتذار للشيب والتسلية عنه من غريب بديع غير مبتذل وبين معروف معهود ، كأنه لحسن موقعه وعذوبة لفظه غير معروف ولا معهود والتأمل لذلك حكم عدل فيه . فمعنى البيت الثالث هو الذي ليس بمطروق .

وأدل دليل على أن السواد البهيم ليس بفضيلة للاستضاءة فيه بالمقابس والمصابح وهذا تعلل وتمحل وان كان من مليح ما تمحل ، لأن الليل لا تتم الأغراض فيه الا

بالمصابيح ليهتدى بهافي سواده والا فالأوطار فيه غير مبلوغة ، وليس هذا في سواد الشباب وبياض الشيب ، ومن ذم بياض الشعر لـم يذممه لأنه فضل البياض على السواد على كل حال ، فينتقض عليه ذلك بمصابيح الليل . وانما ذمه لأن الأوطار التى تنال بالشباب المحمودة كلها تفقد معه ، فكان المذموم هو فقد سواد تدرك به الأغراض وتنال معه الأوطار دون ما ليس هذه صفته . وهذا التحقيق مطرح في الشعر ، ويكفى الشاعر اذا عيب ببياض شعره وفضل سواده على بياضه أن يعتذر في ذلك بما ذكرناه في البيت .

فأما البيت الرابع فمعناه أيضاً كالبديع الغريب ، ويشبهه مامضى من قولي « تضاحك فيها النور وهى قطوب » فان القطوب كالكلوح .

* * *

ولي وهى قطعة مفردة :

تصدين عني للمشيب كأنني ... صرفت شبابى أودعوت مشيبى

وكيف سلوي عن حبيب اذا مضى ... فلا متعة لى بعده بحبيب

كأنى ربع بعده غير آهل ... وواد جفاه القطر غير خصيب

فلا تندبى عندى الشباب فانما ... بكائى عليه وحده ونحيبى

* * *

ولي وهى قطعة مفردة :

أمن بعد ستين جاوزتها ... تعجب اسماء مـن شيبتى

واعجب من ذاك لوما كبرت ... ولم ينزل الشيب فى لمتى

فان كنت تأبين شيب العذار ... فكم خيب المرء من منبت

وان انت يوماً تخيرت لى فشيبى اصلح من ميتتى
فلا تغضبى من صنيع الزمان فمالك شىء سوى الغضبة

معنى قولى « فمالك شىء سوى الغضبة » ان الغضب لايفيد شيئاً ولاتحصلين فيه الا على مجرد الغضب من غير فائدة .

فأما قولي « فشيبى أصلح من ميتتى » فقد تقدمت نظائره .

* * *

ولي وهي قطعة مفردة :

جزعت امامة من مشيب الرأس اذ سفهت امامه
وتنكرت بعد الصدود وقد ألم بنا لمامه
واستعبرت لما رأت فى لمتى منه ابتسامه
ورأت على ظلم المفارق من توضحه علامه
مثل الثغامة لونها لكنها غير الثغامه
وتظلمت منه على ان ليس تنفعها الظلامه
ولقد أقول لها وكم من قائل أمن الملامه
لاتنكري بدء المشيب فانه ثمر السلامه

من بليغ القول ومختصره وصف الشباب بأنه ثمر السلامة .

* * *

وهذا انتهاء ما خرج وصف المشيب من نظمي الى سلخ ذى الحجة من سنة احدى وعشرين واربعمائة، وان تراخى الأجل وترامى المهل واتفق فمايخرج من الشعر شىء من وصف الشيب ضممناه الى ماتقدم. والله ولي التوفيق فى كل قول وعمل وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين.

(مسألة فى معجزات الانبياء عليهم السلام)

([illegible])

بسم الله الرحمن الرحيم

[بعض عقائد أسلاف المجبرة والمشبهة]

مسألـة :

من كلام قاضي القضاة عبدالجبار بن احمد في أن المجبرة والمشبهة أن يمكنهم الاستدلال على النبوة .

قد اخترت في وقتنا هذا على التزام أشياء كان سلفهم يمتنعون من التزامها ، وأطلقوا ألفاظاً كانوا يأبون اطلاقها . بل صار ما كان مشايخنا يرومون الزامهم اياه أول ما يفتون به ، واستغنوا عن الكلام في البدل وعن كثير من العبارات التى كانوا يحايلون بها [١] وان كان لا محصول لها .

ومروا على جواز تكليف العاجز ما عجز عنه ، ومطالبة الأعمى بالتمييز بين الألوان ، والزمن بصعود الأجبال[٢] ، وتعذيب الأسود [على سواده][٣] . والزمن

---

١) أى يحولون بتلكم الكلم عن معرفة الحقيقة .

٢) الزمن: من اصابته الزمانة، وهى العاهة، أوعدم بعض الاعضاء ، أو تعطيل القوى .

٣) زيادة منا لاكمال الجملة .

على زمانته ، تكلف الممنوع صعود السماء ، والمشي على الماء ، ورد الفائت واحياء الميت، والجمع بين المتضادين[١]، وجعل المحدث والقديم محدثاً وتعذيبه اذ هو لم يفعل ذلك .

وأجازوا في العقل أن يرسل الله تعالى الى عباده رسلا يدعون الى عبادة غير الله والكفر ، وأن يحسن ذلك منه ومن الفاعل له عند أمره[٢] ، وأن يرد القيامة اثنان فيعذب أحدهما لأنه وحد الله ويعذب الاخر لأنه ألحد .

وأنكروا ألايكون للحسن والقبيح في العقل حقيقة أصلا .

وبلغنى أن فيهم من التزم أنه ليس في أفعال الله تعالى ما هو حسن ، لأنهم لما عقلوا قبح القبيح بنهي الله عنه ـ والله تعالى ليس بمنهي لم يصح منه شيء ـ لزوال علة القبيح من أفعاله .

قيل لهم : فكذلك فقولوا انه ليس في أفعاله حسن ، اذ علة الحسن فينا ،وهي الأمر زائلة[٣] عن أفعاله .

واتصل بنا أنهم مروا على ذلك فخالفوا نص القرآن والاجماع ، وخرجوا عن سائر الأديان، ولم يحجموا عن شيء ، وان ظهر أمره الالخوف عاجل ضرره، وألايقبل العامة منهم ، وألا يعاديهم[٤] السلطان عليه من جواز ظهور العجز على تكذيب[٥] المدعي للنبوة .فأما من يدعي الالهية لنفسه فقد أجازوا ذلك .

وسئلت أن أصرف طرفاً من العناية الى شرح هذا الفصل ، وأن أذكر من

---

١) في الاصل « بين المتضادان » .
٢) في الاصل « عند امرد » .
٣) كذا في النسخة .
٤) في الاصل « تعادهم » .
٥) في الاصل « على الكذب » .

ذلك طرفاً مما أرتئيه [١] على أقصى ما في مللهم انشاء الله ، وبه القوة .

[وجه عدم اظهار المعجزات على أيدي غير الانبياء]

يقال لهم : اذا أجزتم أن يصد الله تعالى العباد عن الدين ويستفسد المكلفين ويخلق الضلال في قلوبهم والجحد في ألسنتهم ، فلم لايجوز أن تظهر المعجزات على المقتولين ليغتر بذلك المكلفون فيصدقوهم فيماهم فيه كاذبون ؟

فان قالوا : لايجوز ، لأن المعجز لنفسه أولكونه معجزاً دال على صدق الصادق ونبوة النبي ، فليس يجوز أن ينقلب عما هو عليه ، والا يخرج [٢] من أن يكون دليلا على أن فاعله قادر .

قيل لهم : ولم زعمتم ذلك ، وما وجه دلالة المعجز على صدق من ظهر عليه ومن أي وجه أشبه ماذكرتموه ؟

فان قالوا : بينوا أنتم وجه دلالة ما ذكرناه على ما زعمتم أنه دليل عليه .

بينا وجه ذلك وأوضحناه ونهجنا طريقه ، ثم عدنا الى المطالبة بوجه دلالة ماسألناهم عنه على المسالمحة دون المضايقة .

فان قالوا : لأنا رأينا دعاء كل منكذب في ذلك يسمع والعلم عند مسألته لايقع فعلمنا أن من ظهر على يديه لابد من أن يكون مبايناً لغيره من المتخرصين ، اذ لو كان كهم لوجب أن تقع عند كل داع ومسألة كل سائل .

يقال لهم : ما أنكرتم أن يكون الغرض في وقوعه دعوى بعضهم دون بعض هو الأستفساد والتلبيس ولظنوا ما قلتم انكم عملتموهم ، فصح أن يكون غواية

---

١) في الاصل « طرقا ماى ارتاه » .

٢) في الاصل « والا ان يخرج » .

وتلبيساً . ولو ظهر على يدي كل كاذب وصح لكل مدع لجرت العادة به ، ولايتم الغرض .

[لايجوز كذب الرسول في اخباره]

استدلال آخر :

ان قالوا : لو جاز أن يظهر المعجز على يدي الكذابين لم يجزأن يظهر على [يدي] [١] أحد من الصادقين ، ولوجب أن يكون من ظهر عليه كاذباً في جميع ما يخبر به . كما أنه لما دل‌عندنا وعندكم على صدق الأنبياء لم يجز أن يقع منهم كذب ، وفي علمنا يصد من ظهر على يديه في كثير مما يخبر به ، دليل على أن المعجز دليل الصدق لا الكذب .

يقال لهم : ان لم تمسكتم[٣] أن يكون دلالة على كذب الكاذب وانماسميناكم تلبيساً [٢] واضلالا ، وما كان كذلك فليس يجب أن يجري على طريقة واحدة . واذا كان هذا الزامنا سقط ما تعلقتم به .

وأيضاً : فان العلم ليس هو تصديق لمن ظهر عليه في كل ما يخبربه ، وانما هو تصديق له فيماأخبر به من النبوة لنفسه وبحمله الرسالة عن ربه ، واذاكان كذلك ثبت أنه لم يظهر قط الا تصد لمن كذب في هذا المعنى ، فأما صدقه في غيرذلك فلاتعلق له بالمعجز .

وانما قلنا نحن أن الرسول عليه السلام لايجوز أن يكذب في شيء من أخباره لأن في كونه في‌غير ما أداه عن‌الله تعالى [يكون] [٣] اتهاماً له وتنفراً عنه ، وليس

---

١) زيادة منا لاتمام الكلام .

٢) كذا في النسخة .

٣) الزيادة منا والعبارة غير مستقيمة .

يجوز أن يرسل الله تعالى من يكون كذلك ، كما لايجوز أن يفعل شيء من ضروب الاستفساد . وهذه طريقته المستمرة على أصولكم ، فالمطابقة بحالها .

فان قالوا : ليس يخلو المعجز من أن يكون دليلا على الصدق والكذب ، فان كان دليلا على الصدق فهو ما قلنا، وان كان دليلا على الكذب لزم فيه ماألزمنا.

قيل لهم : ما انكرتم ألايكون دليلا على أحدهما وأن يكون الغرض فيه هو التبيين على مابينا فهل من فضل . وما أنكرتم من أن يكون تصديقاً لكاذب مخصوص وهو المدعي للنبوة فلا يوجد الا كذلك ، فهل من شيء تدفعون به ما طولبتم [١] به ، ولن تجدوا ذلك أبداً .

[استحالة القبيح على القديم تعالى]

دليل آخر لهم :

ان قالوا: ان المعجز تصديق لمن ظهر عليه، فكما لايجوز أن يصدق الله تعالى أحداً ـ بأن يخبر بأنه صادق وهو كاذب ـ فكذلك لايجوز أن يصدق لما يجري مجرى القول من الفعل .

يقال للنجارية منهم : المسألة عليكم في البابين واحدة ، فلم لايجوز ذلك .

ويقال للكلابية : نحن قلوبكم ذلك ، فبم تنفصلون .

فان قالوا : قد ثبت أن الله تعالى صادق لنفسه أو أن الصدق من صفات ذاته، فليس يجوز عليه الكذب في شيء من أخباره ، كما انه اذا كان عالماً لنفسه لم يجز أن يجهل شيئاً من معلوماته .

قيل لهم : ههنا سلمنا لكم هذا الذي لا سبيل لكم اليه ، وسنبين لكم بطلان

---

١) في الاصل « ما طولتم » .

دعواكم له فيما بعد ، ولكن كيف بناء ما سلمناكم عنه على ما سلمناه لكم ،وذلك أن الكذب ثم يمتنع وقوعه من القديم تعالى لقبحه ، فلايجوز أن يقع منه ما ضاهاه في القبح . وانما استحال عليه لأنه موصوف بضده لنفسه .

وليس هذا المعنى موجوداً فيما سألناكم عنه ، لأن المعجز فعل من أفعال الله تعالى ، فما الجامع بينهما . فلايجدون شيئاً .

[عدم جواز اضلال الله تعالى عن الدين]

دليل آخرلهم :

ان قالوا : لوجاز أن يظهرالله المعجز على [أيدي][1] الكذابين لكان لاسبيل لنا على الفصل بين الصادق [والكاذب][1] والنبي والمتنبي من جهة الدليل ،ولكان القديم تعالى غير موصوف بالقدرة ، على أن يدلنا على الفصل بينهما . وهذا تعجيز له، وقد دليل الدليل على أن القدرة من صفات ذاته ، فما أدى[2] الى خلاف ما دل الدليل عليه فهو باطل .

قنل لهم : فقولكم أداكم اليه ، وذلك أن كذب الكاذب اذا كان لا يخرج القديم من أن يكون قادراً على ما كان قادراً عليه ولم يكن قبح الفعل يؤمننا من وقوعه منه تعالى على قولكم ، فما انكرتم من أنه لاسبيل لناولا للقديم تعالى الى الفصل بين الصادق من جهة الدليل لا ترون أن من خالفكم في اجازة الضلال عن الدين على الله تعالى لقبح ذلك . كيف يمكنه أن يستدل بظهور المعجز على صدق من ظهر عليه وانكم مختصون بتعذر ذلك عليكم على أصولكم . فهذا القول بمقتضى أصولكم

---

١) الزيادة منا لتكميل الكلام .

٢) في الاصل « نما ادرى » .

وقوع على مذاهبكم ، فان كان قولكم صحيحاً فهوصحيح فلا تأبوه [١]، وان كان باطلا فقولكم الذي أدى اليه باطل .

ارأيتم ان لوجعلنا ابتداء السؤال عن هذه فقلنا لكم : لوجاز أن يضل الله عن الدين ويفعل غير ذلك من ضروب القبيح فما الدليل على أنه موصوف بالقدرة على الفصل [٢] بين الصادق والكاذب من جهة الدليل . فما كان يكون جوابكم عن هذا ؟

فان قالوا : اذا ثبت أن القدرة من صفات ذاته، وكان هذا وجهاً يمكن الفصل فيه وطريقاً يمكن سلوكه ويطرق منه الى الفرق بين النبى والمتنبى ،وجب أن يكون القديم موصوفاً بالقدرة . على أن يفرق لنا بينهما ولما كان ذلك تعجيزاً .

قيل لهم : ولم زعمتم أن هذا وجه يمكن الفصل منه على تلك الأصول . وما الفرق [٣] بينكم وبين من قال: انه لو كانت العقول لاتدل على أن القبيح لايجوز على الله تعالى وان الاضلال عن الدين مابع منه [٤] جائز في حكمه . لكان العقل مقتضياً أنه لاسبيل الى الفصل بين الصادق والكاذب من جهة الدليل ،وكان ذلك في قسم المحال الذي لا تصح القدر عليه ولا العجز عنه .

[تقسيم خاطىء فى المعلومات]

ثم يقال لهم : ليس في المعلومات مالا يصح أن يعلم من وجه ويصح أن يعلم من غيره .

ولايجب أن يقال : ان القديم لو لم يكن موصوفاً بالقدرة ــ على أن تعلمناه

---

١) فى الاصل « فلا يأتوه » .

٢) فى الاصل « على الفعل » .

٣) فى الاصل « وأما الفرق » .

٤) كذا فى النسخة .

من ذلك الوجه ـ لاقتضى ذلك تعجيزه واخراجه عن منعه هو عليها لنفسه . وهذا كالعلم بما كان ويكون وسائر ما يجري به مجرى العلم بالغيب ، فانه لا يصح أن فعله بالأدلة العقلية .

ولايوصف تعالى بالقدرة على أن ينعت لنا دليلا على وجوده عقلياً وكونه أو يجعل الأجسام دلالة عليه كما يكون دلالة على الله تعالى . وان جاز أن يعلمنا ذلك عند الادراك والخبر المتواتر ويضطرنا الى وجود ذلك ابتداءاً .

وكذلك ما تنكرون أن يكون تعذروقوع العلم لنا من جهة الدليل بالفصل بين الصادق والكاذب لايوجب تعجيزه تعالى لا (١) القدرة عنه عما يجوز القدرة عليه .

ويقال لهم : أليس ماجرت العادة به من نحو طلوع الشمس وغروبها ونحو ذلك ، لايصح أن يكون دليلا على نبوة أحد من الأنبياء ، ولا يوصف القديم بالقدرة على أن يجعل دليلا على صدق أحد منهم وهو على ما هو عليه الان .

فاذا قالوا : بلى .

قيل لهم : فما أنكرتم ألايكون في العقل دليل على الفصل بين الصادق والكاذب ، وان كان ذلك ممكناً من غير جهة الدليل العقلي .

فان قالو : ان ما جرت به العادة قد كان ممكناً أن يجعله دليلا بأن لا تجري العادة به، فيكون حدوثه على مايحدث عليه الان نقضاً لعادة أخرى ، فيستدل به على صدق من ظهر عليه .

قيل لهم : أفحين جرت له العادة وذلك هذا المعنى عنه (٢)، أوجب ذلك خروج القديم عن صفة قد كان عليها لنفسه أو حدث وصفه بالقدرة على أن يجعله دليلا ،

---

١) كذا في النسخة .

٢) كذا ، والعبارة غير مفهومة عندي .

والعجز انما يصح القدرة عليه .

قيل لهم : فكذلك ما كان في الأصل مستحيلا أن يعلم بالأدلة العقلية لم يجز أن يقال : انه يقدر عليه أو يعجز عنه ، ويعاد عليهم ما ذكرناه من العلم بالكائنات الغائبات .

[نفى الاضلال ليس من التعجيز فى الفعل]

ثم يقال لهم : بالفصل بينكم وبين من قال انه لو لم يجز أن يظهر الله المعجزات على النبيين لم يكن القديم تعالى موصوفاً بالقدرة على أن يضل الناس عن الدين هذا الضرب من الضلال وأن يلبس عليهم هذا النوع من التلبيس ، وقد ثبت أن القدرة من صفات ذاته والتلبيس من صفات فعله . وهذا وجه يمكن أن يضل منه عن الدين ، فلو لم يصح أن يفعله لكان ذلك تعجيزاً له .

فان قالوا : لايكون ذلك تعجيزاً ، لأنه قادر على أن يضلهم بغير هذا الضرب من الاضلال .

قلنا لهم : فقولوا أيضاً بما ألزمناكموه ولا يكون يعجز الله تعالى ، لأنه قادر أن يعلمهم الصادق من الكاذب من جهة الدليل، بأن يضطرهم الى ذلك . وهذا هدم لهذا المذهب وقبض لألسنتهم عن الشغب .

فان قالوا : هو قادر على ذلك لكن لايفعله لئلا يخرج بفعله اياه عن صفة[1] هو عليها لنفسه .

قيل لهم : ان خروج الشيء عن صفة هو عليها لنفسه لا يكون مقدوراً ، وان كان مثل هذا يجوز أن يكون مقدوراً فما أنكرتم أن يكون قد فعله ، فخرج عن

١) فى الاصل « عن صبغة » .

تلك الصفة . وهذا ما أردنا الزامكموه من أقبح الوجوه .

فان قيل : ألستم تجيزون وقوع ما علم الله تعالى أنه لايكون وان كان مما لو كان لكان حسناً لم يمنع أن يعلموا أنه لا يقع، وان وقوع مثله جائزاً مما هو حسن، فما أنكرتم أن يكون وقوع هذا الضرب من الاضلال غير جائز . وأن يصح أن يعلم أنه لايقع وان جاز وقوع غيره من الاضلال ، وأن يكون المانع من هذين أن أحدهما مؤد الى تجهيل الله والاخر الى تعجيزه . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قيل لهم : انا لم نمتنع من اجازة كون ما علم الله أنه لايكون ، اذا أردنا بالجواز معنى الشك من حيث ذكرتم ، لكن متى علمنا أن الله تعالى عالم بأن شيئاً لايكون فنحن عالمون بأنه لايكون، لأنه لايجوز أن نعلم أن عالماً من العالمين قد علم كون شيء أو أنه مما لايكون ونحن شاكون أو جاهلون بكونه أو أنه مما لايكون ، لأن العالم بأن العالم عالم لابد من أن يكون عالماً بأن معلومه على ما علمه عليه . ولهذا نظائر من مدلول الدليل ومخبر الحال [. . .] [1] .

ونحو ذلك مما سألتم عنه انما أمنا من وقوعه علمنا بأنه لا يقع ، وسؤالكم مبني على ذلك والا بطل واضمحل .

وما ألزمنا يكون فانما ادعيتم أنه مؤد لكم الى القول بمالا تلزمونه من تعجيز الله تعالى ، فأريناكم أنه ان كانت أقوالكم [2] صحيحة فانه لايؤدي الى ذلك بل يؤدي الى حال القدرة على مالا يصح أن يكون مقدوراً ، وذكرنا له نظائر من خاص قولكم ومما نتفق فيه معكم مما يستحيل وصف القديم تعالى بالقدرة عليه، ولم يوجب ذلك تعجيزاً له ولا اخراجه عن صفات ذاتية . واذا كان هكذا فليس بين

---

١) بياض في النسخة .

٢) في الاصل « امولكم » .

ما الزمناكموه وبين ما سألتم عنه سبب .

[معنى الضلال والهدى والحسن والقبح]

ثم يقال لهم : انا نسألكم عن ضلال فرضنا في نفس المسألة أنه مما علم أنه لانفع ، كما سألتم عن هدى فرضتم في نفس المسألة أنه لايقع . وانما سألناكم عن ضلال موقوف على الدليل وفي جواز وقوعه .

والشك في كونه يتكلم معكم : فليس يخلو من أن يكون مما يصح وصف القديم تعالى بالقدرة على ايجاده على الوجه الذي سألناكم عنه أولا يصح ذلك بل يستحيل ، فان كان مما يستحيل وصفه بالقدرة عليه فليس يلزمكم اذا لم تصفوه بالقدرة عليه تعجيز الله تعالى ، فلا تلزموا أنفسكم ذلك كما يلزمكم ، ولايلزمنا ايضاً تعجيز الله تعالى متى لم نصفه بالقدرة على ما يستحيل أن يكون مقدوراً من الجمع بين المتضادات وسائر المحالات .

وان كان مما يصح وصف القديم بالقدرة عليه فما الذي آمن من وقوعه ، فان الحال عندنا يختلف في مقدورات القديم ويتفق عندكم ، وذلك أن سنخ القبيح يؤمننا من وقوعه منه تعالى لأدلتنا المشهورة في ذلك ، وماليس بقبيح فلا سبيل لنا الى الامتناع من تجويزه . ولا يؤمننا من وقوعه الا الخبر الصدق اذاورد بنفي وقوعه .

وجميع مقدورات القديم عندكم بمنزلة الحسن من مقدوراته عندنا ، لأن قبح القبيح لايعجز عن فعله ، بل لا يصح منه شيء . وعلى قولكم فلا أمان لكم من وقوع شيء من ذلك الا من جهة الخبر .

فاذا كنا انما نكلمكم في الطريق التي منها يعلم صحة الخبر ، فقد انسدت عليكم

الطريق التي تؤمن من وقوع ماسألناكم عنه. وهذا كما ترى يوجب عليكم الانسلاخ من جميع الأديان والشرائع والشك في سائر الرسل صلوات الله عليهم . ولم يجدوا عن ذلك مذهباً الا بترك قولهم .

[وصف القديم تعالى بما لا يوصف]

ثم يقال لهم : أيوصف القديم تعالى بالقدرة على ان يظهر المعجزات على [أيدي] (١) الكذابين .

فان قالوا : لايوصف بالقدرة على ذلك .

قيل لهم: فهل يقتضي ذلك تعجيزه تعالى وخروجه عن صفة من صفات ذاته .

فان قالوا : لا .

قيل لهم : فلم تنفروا من شيء أحلتم وصفه بالقدرة على وجه دون وجه ، وذلك أن كذب هذا الكافر هو الذي أحال وصف القديم تعالى بالقدرة على اظهار المعجز على يده ولو صدق لم يستحل ذلك . فاذا جاز أن يوصف على شيء وعلى بعض الوجوه دون بعض، فلم لايجوز أن يوصف بالقدرة على الفصل بين الصادق والكاذب من وجه دون وجه . وهذا الأضطرار دون الاكتساب .

وان قالوا : ان القديم تعالى موصوف على اظهار المعجز على [أيدى] (٢) الكذابين .

قيل لهم : فما الذي يؤمن من فعله .

فان قالوا : لو فعله يخرج من أن يوصف بالقدرة على الفصل بين الصادق

---

١) زيادة منا .

٢) زيادة منا .

والكاذب من جهة الدليل .

قيل لهم : فكأنه يقدر أن يخرج نفسه من أن يكون قادراً على مايصح وصفه بالقدرة عليه .

فان قالوا : نعم .

قيل لهم : فما يؤمنكم أن يفعل ذلك ، فان خرج من أن يكون قادراً ، لأن خروجه عن كونه قادراً لو كان أمراً مستحيلا لما صح أن يكون مقدوراً لقادر ، كما أنه لو جعل محدثاً والمحدث قديماً لما كان مستحيلا ، لم يصح أن يتعلق بقدرة قادراً [١] .

فان قالوا : لا نقول بأنه لوفعل لخرج من أن يكون قادراً على ما يصح وصفه بالقدرة عليه، لكن لوفعله لاستحال وصفه بالقدرة على الفصل بين الصادق والكاذب من طريق الدليل .

قيل لهم : لاضير ، فما تنكرون أن يفعله وان استحال ذلك بعد فعله ، فانمنزلة هذا يكون بمنزلة نفس الشيء أنه متى أوجده فصار موجوداً باقياً استحال وصفه[٢] بالقدرة على ايجاده . واذا كان هذا هكذا فما الذي يؤمنكم من وقوعه، فلايجدون سعياً فضلا عن جهة .

[نقل كلام للشيخ المفيد]

وقد ألزمهم الشيخ ابوعبدالله في أصل هذا الكلام ، فقال : ما الفصل بينكم وبين من قال : ولوجاز أن يضل الله عن الدين لكنا لا نأمن أن يكون جميع مافعله

---

١) اي في حال كونه قادراً .

٢) في الاصل « وصف » .

ضلالا ولولم يصل الى الفرق بين الضلال والهدى ، ولكان القديم تعالى لايوصف بالقدرة على الفصل بين الضلال والهدى .

فان قال منهم قائل : ان مايفعله القديم تعالى ولم يتعلق لنا به امر ولانهي فليس بضلال ولاهدى وما أمربه ونهي عنه ، فليس الامر والنهي دليلين على كونه هدى وضلالا بل هما علة كونه كذلك . وليس المعجز كذلك ، لأنه انما يدل على صدق الصادق وليس هو مابه[1] يكون الصادق صادقاً، واذا كان هكذا لم يكن هذا الالزام نظيراً لما قلناه .

فان نقلتم الكلام الى أن الهدى والضلال والهدى لم يكن ضلالا وهدى الا بالأمر والنهي . أخرجتم هذه المسألة الى شيء آخر .

يقال لهم : أليس ما أمر الله تعالى من الاعتقادات والاخبار عن المحرمات وما فعله من ذلك فينا ، لايدل فعله له وأمره به على أن معتقد الاعتقاد ومخبر الخبر على ماهما به لا يمتنع أن يكون الاعتقاد جهلا والخبر كذباً ، ولايكون فعله وأمره دليلين على أن مخبر الخبر الذي أمر بفعله ومعتقد الاعتقاد الذي تولى فعله أو أمر به على ما هو عليه ، ولايوصف بالقدرة على أن يدل على حق ذلك من باطله .

فاذا قالوا : بلى .

قيل لهم : ولم يخرج بهذا عندكم عن صفة هو عليها في ذاته ولا أوجب صفة نقص له ، فما أنكرتم أنه لايمكن أن يجعل المعجز دليلا على صدق من ظهر عليه ، ولا يوجب ذلك تعجيزاً له ولا خروجه عن صفة من صفات ذاته . فقد بان صحة ما ألزمهم اياه بطريق الكلام فيه .

فان قالوا : انهم أيضاً يقولون : انه لا سبيل الى ابتداء الاستدلال على أن الله

---

١) في الاصل « ماله » .

حكيم لايفعل القبيح بأمره أو بفعله إياه قبل الأدلة العقلية التى هي تدل على أن القبيح لايجوز عليه، فيكف انكرتم مثل هذا علينا ؟

قيل له : بمثل ما قلنا طلبناك ، وذلك أنه لما كان ابتداء الاستدلال بذلك غير ممكن أحلناه وقلنا : ان القديم تعالى لا يجوز أن يوجب الاستدلال به ، ولا أن يجعله دليلا على مالا يمكن أن يستدل به علينا .

فان كنا قد بينا أن الاستدلال بالمعجز على سياق يحب أن يكون كذلك ، فلا نقول : انه لو لم يكن الفصل به بين الصادق والكاذب لأدى ذلك الى تعجيز الله تعالى ، اذ المحال لايصح القدرة عليه ولا العجز عنه ،كما قلنا نحن فيما ذكرته عنا . فقد بان أنه لامتعلق لهم بشيء من الرسل على وجه لاسبب . نعوذ بالله من الحيرة في الدين .

[معجزية القرآن الكريم]

فأما القرآن فانه يعلم أنه كلام الله تعالى أوحكاية لكلامه أو افهام لكلامه ـ على ما يطلقه بعضهم ـ بخبر الرسول صلى الله عليه وآله . وذلك أنه لايمتنع أن يخلق الله تعالى القدرة على نظمه والعلم بكيفية تأليفه ووصفه على الوجه الذي لكونه عليه يكون بليغاً فصيحاً قدراً من الفصاحة والبلاغة لم تجر العادة بمثله في بعض البشر ، أما من جاء به أو في ملك من الملائكة أو لجني من الجن ونحو ذلك .

واذا كان هذا سابقاً في قدرة الله تعالى ولم يكن قبح ذلك وكونه استفساداً مانعاً من وقوعه من الله تعالى وكنا قد بينا أن العلم بصدق الرسول متعذر على أصولهم . فلاطريق لهم الى العلم بأنه كلام الله تعالى عيناً أوحكاية او افهاماً .

فان قالوا : قد علمنا أنه لم يكن من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله لعلمنا

بمقدار كلامه عليه السلام في الفصاحة والبلاغة ، لما تأدى الينا من خطبه ومحاوراته في المواضع التي كان يقصد فيها الى ايراد فصيح الكلام ويتعمل لذلك ويجتهد فيه ، فوجدنا ذلك اجمع ناقصاً عن رتبة القرآن في الفصاحة والبلاغة مقداراً لم تجر العادة بوقوع مثله بين كلام البشر ، فأمننا ذلك من أن يكون من كلامه .

قيل لهم : ما انكرتم من أن يكون القديم تعالى هو الذي يقدره ويخلق فيه العلم بالفصاحة متى عزم وان يحتر من [١] عليه ويدعي الرسالة منه ، وينزع ذلك منه عند مخاطباته وخطبه تلبسياً واضلالا وغرابة واستفساداً . واذا كان هكذا فلم لايكون من كلامه .

ثم لم لايجوز أن يكون من كلام غير البشر كالجن والملائكة ، فانكم لاتقفون على قدر فصاحة أولئك وبلاغتهم وبأي منظوم الكلام ومنثوره لهم .

ويقال للنجارية منهم : لم تدفعون أن يكون في اخبار القرآن وان كان كلام الله تعالى ما هو كذب وكان فيها ما هو صدق ، لأن الكلام فعل من أفعاله . فكما لايمتنع أن يكون في أفعاله الجور والعدل والحسن والقبيح لم يجز أن يكون فيها الكذب والصدق والباطل والحق . فلا تجدون شيئاً سوى ما تقدم وقد نقضناه .

[مناقشة الكلابية في كلام الله تعالى]

وقد يتوهم الكلابية أنها تعتصم من هذا الالزام بقولها : انه تعالى صادق والصدوق من صفات ذاته ، فليس يجوز أن يوصف بهذا للصدق . ويستدلون بأنه صادق بأن يقولوا : ان القرآن قد تضمن مالايشك في أنه كالخبر عن الليل والنهار والسماء والأرض ونحو ذلك ، فاذا حصل صادقاً في شيء لم يجز أن يكون كاذباً

---

١) كذا في الاصل .

في غيره ، لأن الصدق من صفات ذاته .

فيقال لهم : أليس قد ثبت أنه صادق في بعض ما يصح ان يكون صادقاً عنه دون بعض ، ولايجوز أن يكون عالماً ببعض ما يصح ان يكون عالماً به ولا قادراً على بعض ما يصح أن يكون قادراً عليه دون بعض .

فان قالوا : بلى .

قيل لهم : فما انكرتم أن كان يكون كاذباً فى بعض مايصح أن يكون صادقاً عنه وان لم يجب أن يكون جاهلا ببعضما يصح أن يكون عالماً به ولا قادراًعلى بعض ما يصح أن يكون قادراً عليه .

فاذا قالوا : هو صادق في جميع ما يصحأن يكون صادقاً عنه الا انه لميحك ذلك لنا او لم يفهمناه .

يقال لهم : خبرونا عن هذه الحكاية والافهام أليسا من صفات فعله ولا من صفات ذاته .

فاذا قالوا : بلى .

قيل لهم : أهي في نفسها كلام واخبار .

فان قالوا : لا .

قيل : فكيف تعلمون أن الله تعالى قد صدق في شيء ، وما يعني ذلك وما سمعتم كلامه وانما تعلمون عقلا أنه لم يزل متكلماً انتفى الخرس والسكوت عنه على مايدعون ذلك الخرس والسكوت قد ينتفيان بالكذب كما ينتفيان بالصدق وبغير ذلك من ضروب الكلام . فلم قلتم انه صادق ولم تسمعوا كلاماً صدقاً ولا كذباً ، وما يدريكم لعله كاذب لنفسه أو الكذب من صفات ذاته .

فان قالوا : هذه الحكاية نفسها كلام .

قيل لهم : ومن المتكلم بها .

فان قالوا : القديم تعالى .

قيل لهم : يجوز أن يوصف بأنه متكلم من وجهين : من صفات ذاته ، ومن صفات فعله .

فان قالوا : نعم .

قيل لهم : فما انكرتم أن يكون صادقاً من صفات ذاته كاذباً من صفات فعله .

فان قالوا : لو لزمنا هذا للزمكم ان يكون عالماً لنفسه جاهلا بجهل محدث .

قيل لهم : لو قلنا ان أحدنا ان يكون عالماً بعلم يفعله مع كونه عالماً لنفسه للزمنا ما الزمناكم ، لكنا نجيز ذلك[١] وأنتم قد اجزتموه في الكلام ، فما الفصل؟

فان قالوا : ان المتكلم بهذه الحكاية غير الله .

قيل لهم : فما انكرتم ان ذلك الغير هو الكاذب دون الله ، فلم قلتم أن يكون القديم صادقاً لذاته يوجب أن يكون ذلك الغير صادقاً في كلامه .

فاذا قالوا : لأنه حكاية لكلامه [٢] بخبر الحاكي أو بأن سمعتم كلام الله ، فان كنتم سمعتم كلام الله تعالى وليس هو هذا ، فأسمعونا اياه وعرفونا اين هو وممن سمعتوه ، وان كنتم انما سمعتم كلام الحاكي واضافته اياه الى الله فلم زعمتم أن ذلك الحاكي قد صدق على قوله ان هذا المسموع منه حكاية كلام الله . فلا يجدون في ذلك شغباً .

ثم يقال لهم : أن الحكاية للكلام انما يكون بايراد مثله او بذكر معانيه ،

---

١) في الاصل « تخير ذلك » .

٢) هنا سقط والكلام غير مستقيم .

والمحدث لايكون مثل القديم ، فاذا هو المسموع [١] انما هو خبر عن كلام الله، فما انكرتم أن يكون كذباً ممن وقع من قديم أو محدث ، وأن يكون كون القديم تعالى صادقاً لنفسه لا يمنع من أن يكون هذه كذباً .

فان قالوا : ليست بكلام أصلا .

قيل لهم : فقد زال الشغل عنها بها، لم زعمتم أن الله صادق أوقد صدق في شيء من كلامه . وهذا مما لاحيلة لهم فيه تعالى .

ثم يقال لهم : كيف تعلمون أن الخبر عن السماء والأرض وعما زعمتم أنه صدق لاشك فيه من اخبار القرآن خبراً عما تناوله اللفظ حتى قضيتم أنه صدق ، والصدق لا يكون صدقاً حتى يكون خبراً حتى يعرف قصد المخبر به الى المخبر عنه ، والألغاز والتعمية قد تعور[٢] في الكلام ، وهما باب من التلبيس والاضلال. فلم لا يجوز أن تكون الفاظ القرآن كلها خارجة عن تلك الوجوه ، فلايكون فيها شيء قصد به الخبر عما تناوله اللفظ . وهذا ايضاً لاحيلة لهم فيه .

ثم يقال لهم : خبرونا عن الرسول نفسه كيف يعلم أن القرآن كلام الله اوحكاية لكلامه ، وليس يأبى [٣] أن يكون الملك قد ادعى ارساله به ، اذ لايأبى أن يكون قادراً على امثاله . وليس يمكنه حجة من عقل ، فمنع بها من اجازة التلبيس على الله تعالى والتمكين من ذلك .

وعصمة الملائكة انما يعلم سمعاً ، وتجويز خلقهم على ماورد السمع يعلم عقلا فكيف يعلم أنه رسول الله ؟

---

١) لعل العبارة « فاذا هذا المسموع » .

٢) كذا فى الاصل .

٣) فى الاصل « وليس باين » .

بل كيف لايجوز أن يكون الله هو الذي أمر بالتكذيب عليه ، ومماذا تعلمون أن مطيع الله مؤد لرسالته دون أن يكون متمرداً عليه، وقد قلتم ان التلبيس يجوز على الله . وهذا ايضاً مما لاحيلة لهم فيه .

فان قالوا : الرسول يعلم صحة ما أخبر به الملك اضطراراً ، وكذلك نحن نعلم أن الرسول الينا صادق اضطراراً .

قيل لهم : أفيصح أن يعلم ذلك استدلالا .

فان قالوا : نعم . طولبوا بالحجة وليس الى ذلك طريق . فان قالوا : لا .

قيل لهم : قد صرتم الى ماكنتم تمتنعون منه من أنه لا يوصف القديم بالقدرة على أن يدل على صدق الصادق .

والفرق بين النبى والمتنبى من أصح الوجوه ، واذا صح[١] هذا فما انكرتم أن يكون المنتظر في هذا هو وقوع العلم الضروري بصدق الرسول ، فأما العلم بوجوده وعدمه فيستبان .

فان قالوا : هو كذلك .

قيل لهم : فظهوره الان على الكاذبين أجور ما يكون اذا كان لا معتبر به وان يوجب الله علينا تصديق من لا علم له .

فان مروا على ذلك قيل لهم : فليس لهم للرسل بمعجزة حجة ، وانما يدعى على ضمائر الناس أنهم يعلمون صدقه ويقولون : انا لانعلم سياق ذلك، ولايمتنع أن يكون من المتنبي الذي يعارضه معجز يحتج به ، وهو خال من ذلك لا يدلي بحجة .

---

١) في الاصل « وانا صح » .

وهذا خروج من جميع الأديان والملل ، ولا مذهب لكم عنه الا بترك مذهبكم.

وليس لذكر الاجماع في هذا مدخل، ولايتعلق به من يفهم شيئاً، لأن الاجماع انما يعلم سمعاً لقول الرسول ، لولا ذلك لم يكن اجماع المسلمين أولى بالصحة مما اجمع عليه غيرهم من طريق الرأي ودخول الشبهة .

(مسألة في نكاح المتعة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مسألة خرجت في محرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، قال الشريف المرتضى رحمه الله:

[دحض أدلة القائلين بفساد المتعة]

استدل بعضهم على [فساد] نكاح المتعة بأنه نكاح لايصح دخول الطلاق فيه، فوجب الحكم بفساده قياساً على كل الأنكحة الفاسدة.

فيقال للمستدل بذلك: هذه طريقة قياسية، وقد دللنا في مواضع من كتبنا على أن القياس في أحكام الشريعة غير صحيح. واذا سلم استظهاراً صحة القياس جاز أن يقال لمن تعلق في ذلك: دل على صحة هذه العلة وان الحكم في الأصل متعلق بهـا.

فاذا قال: ما اعتاد الفقهاء المطالبة بذلك، وانما تقع الدلالة على صحة علة الأصل عند المعارضة.

قلنا: ما امتنع محصل من أصحاب القياس من المطالبة بصحة العلة في الأصل،

وانما لجأوا الى المناقضة اذا أمكنت والمعارضة ، لأن بالمعارضة يخرج الكلام في صحة العلة وبأي شيء تعلق حكم الأصل ، والا فلو طولب المحتج بالطريقة القياسية ـ بأن يدل على صحة علته ـ لما قدر على دفع ذلك .

فان استدل على صحتها بالاطراد والانعكاس . فليس ذلك بحجة في صحتها ، وقد نص محصلو أصحاب القياس على أن الطرد والعكس لايدل على صحة العلة وانما يدل على صحتها بيان تأثيرها في الحكم الذي علقت . وهيهات أن يبين صاحب هذه الطريقة تأثير امكان الطلاق في صحة العقد .

[جواز انفصال بعض الاحكام عن بعض]

ثم يقال له : امكان الطلاق حكم من أحكام النكاح، كما أن التوارث من الزوجين حكم من أحكامه . وليس يجب اذا تعذر في بعض الأنكحة بعض أحكام النكاح أن يحكم بفساد العقد . ألاترى أن نكاح الذمية عندكم صحيح والتوارث لايثبت فيه، وهو حكم من أحكام النكاح ، وليس يجب أن يقضى بفساد هذا العقد من حيث تعذر فيه هذا الحكم المخصوص .

فلو استدل مستدل على أن نكاح الذمية فاسد ، بأنه لاتوارث فيه ، وقاسه على الأنكحة الفاسدة . ألستم انما كنتم تفزعون الى مثل ماذكرناه ، من أنه غير ممتنع أن يعرض في بعض الأنكحة ما يمنع من حكم ثابت وفي غيره .

فاذا قلتم : المعنى الذي عرض في نكاح الذمية يمنع من التوارث معقول ، وهو اختلاف الملة .

قلنا : أليس هذا المانع من التوارث ـ وهو من أحكام النكاح كالطلاق ـ لايمنع من صحة هذا النكاح .

وبعد، فالمانع من دخول الطلاق في نكاح المتعة أيضاً مفهوم ، وهوأنه نكاح مؤجل الى وقت بعينه . فلم يحتج الى طلاق ، لأن انقضاء المدة في ارتفاع هـذا النكاح يجري مجرى الطلاق . فالطلاق انما دخل في النكاح المؤبد لأنه مستمر على الأوقات ، فيحتاج الى ما يقطع استمراره ويوجب الفرقة ، وليس كذلك المتعة .

فان قالوا : لانسلم أن التوارث حكم الأنكحة على الاطلاق ، بل هـو نكاح منتفى الملة .

قلنا : ولا نسلم نحن أن امكان الطلاق من حكم كل نكاح ، بل هو من أحكام النكاح المؤبد .

[العلل غير مطردة لكى يقاس عليها]

ثم يقال له : ما أنكرت أن يكون المتعة مـن الأنكحة الفاسدة : ان الطلاق لا يدخلها ولا مـا يقوم مقامه في الفرقة ، وليس كذلك نكاح المتعة لأنـه لا يدخله الطلاق ، فان فيه ما يقوم مقامه في وقوع الفرقة وهو انقضاء المدة .

وبعد، فان موضع هذا القياس فاسد ، لأنه يقتضي فساد نوع من أنواع النكاح من حيث فيه شروط باقي أنواعه ، وقد علمنا أن البيع بيع موجود حاضر وبيع على جهة السلم ، وليس نجد شروط السلم في بيع الموجود ولا شروط الموجود في السلم ، ولم يوجب ذلـك فساد البيوع المختلفة . فكذلك الأنكحة المختلفة غير ممتنع اختلاف شروطها وان عم الجميع الصحة .

على أن هذه العلة لو كانت صحيحة لما اجتمعت [١] مع اباحة نـكاح المتعة ، وقد علمنا بلا خلاف أن نكاح المتعة كان في صدر الاسلام مباحاً ، وانما ادعى قوم

---

١) فى الاصل « لما اجتمع » .

أنه حظر بعد ذلك ونسخت اباحته ، فكيف تجتمع علة الحظر مع الاباحة .

واذا كانت علة حظر هذا النكاح أن الطلاق لا يدخل فيه وكونه مما لا يدخله الطلاق قد كان حاصلا مع الاباحة المتقدمة بلا خلاف ، وذلك دليل واضح على فساد هذه العلة .

وما يفسد به هذا القياس كثير وفي هذا القدر كفاية .

(نقد النيسابوری في تقسيمه للاعراض)

([illegible])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مسألة :

قال رضي الله عنه :

تصفحت الأوراق التى عملها ابو رشيد سعيد بن محمد [1] في ذكر أنواع الأعراض وأقسامها وفنون أحكامها ، فوجدتها قد أخل بأيام [2] كان يجب أن يذكرها كما ذكر مايجري مجراها، وأخل أيضاً في تقسيماته بأقسام وتمثيلاته بأشياء لابد من ذكرها .

واني أشير الى ذلك حتى تتكامل بمااستدركته ولماتقدمه جميعاً ما [لابدمنه] [3] في هذا الباب بمشيئة الله تعالى وعونه وحسن معونته .

---

١) ابو رشيد سعيد بن محمد بن حسن بن حاتم النيسابورى ، من كبار المعتزلة وأخذ عن القاضى عبدالجبار المعتزلى وانتهت اليه الرئاسة بعده ، وكانت له حلقة فى نيسابور ثم انتقل الى الرى وتوفى بها نحو سنة ٤٤٠ (الاعلام للزركلى ١٠١/٣) .

٢) كذا فى الاصل ولعل الصحيح « بأشياء » .

٣) العبارة منا وبياض فى الاصل .

[أقسام الاعراض]

الأعراض على ضربين : [ما][1] يوجب أن يختص به حالا، والاخر لا يوجب حالا

وما يوجب حالا على ضربين : ضرب يوجب حال الحي ، والضرب الاخر يوجب الحال لمحله .

فأما الذي يوجب حالا لحي فأنواع : الاعتقادات، والارادات، والكراهات، والظنون ، والقدرة ، والحياة ، والشهوة وأضدادها ، والنظر .

وأما ما يوجب حالا لمحله فهو أنواع الأكوان . وأما ما لا يوجب لحي ولا لمحل فما عدا ما ذكرناه .

وينقسم مالا يوجب حالا لمحل ولا حمله الى ضربين: فضرب يوجب لمحله حكماً ، وضرب لا يوجب ذلك ، والأول هو التأليف اذا كان التزاماً والاعتقادات ، والثاني ـ وهو ما لا يوجب حالا ولا حكماً ـ هو : المدركات من الألوان ، والطعوم ، والأرياح ، والحرارة ، والبرودة ، والأصوات ، والالام .

والأعراض على ضربين : ضرب يصح أن يتعلق بكل حي من قديم ومحدث ويوجب له حالا ، والضرب الاخر لا يصح أن يتعلق الا بالمحدث خاصة . وليس فيها ما يختص بالقديم تعالى ، ولا يصح تعلق جنسه ولا نوعه بالمحدث .

فأما ما يتعلق بكل حي من قديم أو محدث فالارادات والكراهات وما عداها من التعلقات ، لا يصح اذا يوجب حالا الا للمحدث دون القديم .

والأعراض على ضربين : ضرب لا يصح خلو الجواهر من نوعه ، وضرب يصح خلوها وتعريها من أجناسه وانواعه .

---

١) زيادة منا لاستقامة الكلام .

فالأول هو نوع الأكوان ، لأن الجواهر لايصح مع وجودها أن تعرى من نوع الكون ، لأن الجوهر مع تحيزه لابد من اختصاصه بالجهة ولايكون فيها ألا يكون .

والضرب الثانى هو ما عدا نوع الأكوان ، لأنه يصح أن تعرى الجواهر من كل ما عدا الأكوان من المعاني .

الأعراض على ضربين: ضرب يدل على حدوث الاجسام والجواهر ، والضرب الاخر لايدل على ذلك. فالضرب الأول هو الأكوان لأنها المختصة ، فان الجواهر لا تخلو من نوعها . والثاني ماعدا الأكوان ، لأنه اذا جاز خلو الجواهر منها فلم تدل على حدوثها وان كانت هذه المعاني محدثة لتقدم الجوهر لها خالية منها .

والأعراض على ضروب ثلاثة : ضرب لايكون الاحسناً او لاقبح فيه، والضرب الأول العلوم والنظر عند ابي هاشم ، فانه يذهب الى أن العلم والنظر لايكونان الا حسنين ، وعند ابي علي أنه قد يجوز أن يكونا قبيحين ، بأن يكونا مفسدة .

والضرب الثاني : الجهل ، والظلم ، والكذب ، وارادة القبيح ، وكراهة الحسن ، والأمر بالقبيح والنهي عن الحسن ، وتكليف مالا يطاق . وهذا الضرب كثير وانما ذكرنا الأصول .

وهذا الضرب على ضربين : أحدهما لايمكن على حال من الأحوال ألا يكون قبيحاً ، والثاني يمكن على بعض الوجوه ألا يكون قبيحاً .

فمثال الأول الجهل المتعلق بالله تعالى ، كاعتقاد أنه جسم أو محدث . ومن مسلة [١] ما يعلق بالجهل بما لايجوز تغير حاله وخروجه على صفته ، كاعتقاد أن

---

١) كذا في الاصل .

السواد متحيز وان الجوهر له ضد غيره من الأجناس .

ويجوز أن يلحق بهذا الضرب ارادة الجهل الذي ذكرناه أولا والأمر به، لأنه كما لايجوز تغير المراد عن قبحه لايجوز قبح الارادة المتعلقة به .

ومثال الضرب الثاني ـ وهو ما لايمكن على بعض الوجوه ألا يكون قبيحاً ـ الجهل المتعلق بما يجوز تغير حاله والظلم والكذب وباقي القبائح التي عددناها.

وانما قلنا ان الجهل المتعلق بما يجوز أن لا يكون قبيحاً ولا جهلا ، لأنه اذا اعتقد أن زيداً في الدار في حالة مخصوصة ولم يكن فيها في تلك الحال فاعتقاده جهل ، الا أنه كان يمكن ألا يكون جهلا ، بأن يكون زيد في الدار في تلك الحال.

والضرر الذي هو ظلم كان يمكن أن يكون عدلا ، بأن يقع على خلاف ذلك الوجه ، وقد يكون أيضاً من جنسه ما ليس بظلم . وكذلك الكذب فيه الوجهان اللذان ذكرناهما معاً .

وأما الضرب الثالث فهو باقي الأعراض ، لأن الحسن والقبح يمكن أن يدخل في الجميع على البدل .

وما يقبح من أعراض على ضربين : أحدهما يختص بوجه قبح لايكون لغيره وان جاز أن يقبح للوجه الذي يعمه ويعم غيره . والضرب الاخر انما يقبح لوجه مشاركة فيه كل القبائح .

فمثال الأول الألم اذا كان كذباً وارادة القبيح وكراهة الحسن ، لأن الظلم وجه قبح يختص به ولايشاركه في هذا الوجه سواه . وكذلك الكذب وارادة القبيح وكراهة الحسن .

وانما قلنا انه يجوز مع هذا الاختصاص أن يشارك باقي القبائح في وجه القبح لأنه يجوز أن يعرض الظلم أو الكذب أو ارادة القبيح او كراهة الحسن أن يكون

مفسدة أوعبثاً ، فيقبح لذلك .

فأما مثال الضرب الثاني مما يقبح لوجه مشترك فهو سائر الأعراض ، لأنه لا شيء منها الاوقد يجوز أن تعرض فيه المفسدة او يكون عبثاً ، فيقبح لذلك .

واعلم انه لايمكن أن تجتمع وجوه القبح كلها في عرض واحد حتى يكون عبثاً ظلماً كذباً ارادة بقبيح كراهة لحسن مفسدة عبثاً لنا في هذه الوجه ، واكثر ما يجتمع فيه من وجوه القبح أنيكون العرض مثلا ظلماً كذباً ويتفقأن يكونمفسدة وعبثاً . وكذلك القول فيالكذب وارادة القبيح وكراهة الحسن اذا اتفق في كل كل واحد منها المفسدة والعيب ، فاعلم ذلك .

[اخلال النيسابوري في تقسيم الاعراض]

فأما الذي أخل بذكره في خلال تقسيمه ، فانه لما قسم الأعراض في تماثل واختلاف وتضاد ذكرفيقسمة التماثل الذي لااختلاففيه ولاتضاد التأليف والحياة والقيمة [1] والألم ، وأخـل بذكر الحرارة والبرودة والرطوب واليبوسة . وهذه اجناس تجري مجرى ما ذكره في أنها متماثلة لامختلف فيها ولامتضاد .

ولما ذكر قسم ما هو متماثل ومتضاد ولايدخله المختلف الذي ليس بمتضاد ذكر الألوان والطعوم والأرياح وأخل بذكرالأصوات ، وهيعند ابيهاشم متماثلة ومتضادة بغير مختلف ليس بمتضاد .

فان اعتذر باعتذار هو أن الأصوات غير متضادة ، فقد كان يجب أن يذكرها في بـاب المتماثل والمختلف مع الاعتمادات والارادات والكراهات والشهوة والبقاء والنظر ، ولاههنا ذكرها ولاهناك . فان [كـان] [2] متوقفاً في القطع بتضاد

---

١) كذا في الاصل .

٢) زيادة منا لاستقامة الكلام .

المختلف منها فقدكان يجب أن يذكر توقفه ، وأنها مع التوقف اما أن تكون داخلة في المختلف الذي ليس بمتضاد مع الاعتمادات والارادات ومع الذي هي مختلفة كالألوان والأكوان ، وهذا اخلال .

ولما ذكر أقسام الأعراض المتعلقات وكيفيات تعلقه ذا أخل بقسمة من ضروب تعلقها كان ينبغي أن يذكرها ، وهي: ان المتعلقات على ضربين : ضرب متعلق بغير واحد تفصيلا من غير تجاوز له كالاعتقادات والظن والارادة والكراهة والنظر ، والضرب الاخر يتعلق بما لا يتناهى كالشهوة والنفار والقدرة فيما يتعلق به من الأجناس أو الجنس الواحد في المحال والأوقات ، لأنها انما يتعلق بالواحد من غير تعدله [١] اذا كان الجنس والمحل والوقت واحداً .

وأخل بقسمة أخرى في المتعلقات ، لأنها على ضربين: أحدهما متعلق بمتعلقه على الجملة والتفصيل ، وهو الاعتقادات أو الارادات أو الكراهات . والضرب الثاني لا يتعلق الاعلى طريق سبيل التفصيل ، وهو القدر والشهوات والنفار .

ولما ذكر كيفية تولد الأسباب المولدة وعلى النظر والاعتماد والكون أخل بقسمة في هذه المولدات كان يجب ذكرها ، وهي أن يقال : ان الأسباب المولودة على ضربين : ضرب تولد في الثاني ، والضرب الاخر تولد في حاله . فمثال الأول النظر والاعتماد ، ومثال الثاني الأكوان .

ولما ذكر قسمة مايدرك من الأعراض وأن فيها ما يكفي في ادراكه محل الحياة وفيها ما يحتاج الى بنية زائدة ، أخل لما ذكر اقسام مالا يكفي فى ادراكه محل الحياة بالارابيح ، فانه ذكر الألوان والطعوم وترك ذكر الأرابيح .

وأخل أيضاً بقسمه في كيفية ادراك هذه المدركات واجب ذكرها هي : انهذه

---

١) كذا في الاصل .

الأعراض المدركات على ضروب : منها ما يدرك بمحله ، ومنها مايدرك في محله ومنها مـا يدرك محله من غير ادراك محله ولا انتقاله الى حاسة الادراك . فالأول هو الألم ، والثاني هو اللون والحرارة والبرودة والأصوات والطعوم والأراييح ، والثالث هو الألوان .

(مسائل شتى)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

[صيغة البيع]

مسألة خرجت في محرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، قال الشريف المرتضى رحمه الله :

عد الشافعي أن رجلا اذا قال لغيره « بعني كذا » فقال « بعتك » كان ذلك ايجاباً وقبولاً وانعقد البيع ، وقال في النكاح بمثل ذلك . ويحتاج عنده في البيع اذا كان « بعتك » أن يقول « اشتريت » حتى يكون قبولا صحيحاً .

والذي يقوي في نفسي أن النكاح كالبيع في افتقاره الى صريح القبول ، فاذا قال له « زوجني » فقال له الولي « زوجتك » لابد من أن يقول « قد قبلت هذا العقد » . وكذلك اذا قال له في البيع « بعني » فقال « قد بعتك » لابدمن أن يقول المبتاع « قد اشتريت » حتى يكون قبولا .

والدليل على صحة ماذهبنا اليه أن قوله « زوجني » او « بعني » أمر وسؤال على حسب الحال في رتبة القائل والمقول له ، فاذا قال له « بعتك» او « زوجتك»

لابد له من قبول صريح ، وليس في قوله « بعني » أو « زوجني » ما ينبيء عن القبول ، لأن الأمر لايفهم منـه ذلك . ألا ترى أنـه لو قال له « أتبيعني » أو قال « أتزوجني » قال الاخر « بعتك » فان احداً لا يقول ان ذلك يغني عـن القبول ، فكذلك اذا قال « بعني » أو « زوجني » .

فان قيل : انما لم يغن « أتبيعني » عن القبول لأنـه استفهام لايدل على ارادة الأمر للمأمور به ، فقام مقام القبول دون الاستفهام .

قلنا : الأمروان دل على الارادة ولم يدل الاستفهام عليها فليس بقبول صريح. ألاترى أنه لو قال مصرحاً « أنا مريد للنكاح أو البيع » لم يكن ذلك قبولا ، فاذا كان التصريح بكونه مريداً لا يغني عـن لفظ القبول فأجدر أن لا يغني عن لفظ القبول الأمر الذي يدل على الارادة .

وانما ضاق الكلام على ابى حنيفة في هذه المسألة مع الشافعي ، لأن الشافعي يحمل البيع على النكاح ولم يختلفا فى النكاح . ونحن نسوي بين الأمرين في أنه لابد من قبول صريح فيهما ، فليس يتوجه كلام الشافعي علينا .

فان قال الناصر لأبي حنيفة : ان العادة بالسوم في البيع جارية ، فاذا قال له « بعني » فانما هو مستام ، فاذا قال « بعتك » يحتاج الى قبول مجدد. وليس كذلك النكاح، لأن العادة لم تجرفيه بالمساومة بقوله « زوجنيها » عن أن يقول«تزوجت».

قلنا : الخطبة في النكاح كالسوم في البيع، وقد جرت العادة بأن يخطب الرجل ويعرض نفسه في عقد النكاح على غيره كما جرى في البيع بالمساومة ، فلايجب أن يجعل قوله « بعني » ولا « زوجني » مفهوماً منـه القبول في الموضعين ولابد من قبول صريح .

والذي يكشف عن صحة ما ذكرناه أنه لو قال له « ابتع مني هذا الثوب »

فقال « قد ابتعته » لا يكون قوله « ابتع مني » ايجاباً حتى يقول « قد بعتك » ، فكذلك لا يكون قوله « بعني » قبولا حتى يقول « اشتريت » ، وكذلك القول في النكاح .

والعلة الجامعة بين الأمرين أن الايجاب غير مفهوم من لفظ الأمر ، وكذلك القبول لايفهم من لفظ الأمرفلذا اعتبروا الأرادة وان قوله « بعني » يدل على الارادة ومع هذا فلم يغن ذلك عن لفظ الايجاب الصريح .

(٢)

[ألفاظ الطلاق]

مسألة خرجت في شهر ربيع الاخرسنة سبع وعشرين وأربعمائة ، قال رضي الله عنه :

أن اعتمد بعض أصحابنا في أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، غير أن من قال « أنت طالق ثلاثاً » [كان] [1] مبدعاً مخالفاً لسنة الطلاق ، فيجب أن لايقع طلاقه كما لايقع طلاق البدعة اذا كان في حيض أوطهر فيه جماع وماجرى مجرى ذلك.

الجواب :

ان تلفظه بالطلاق وقوله « أنت طالق » والشروط متكاملة ليس بدعة ، وانما أبدع اذا أتبع ذلك بقوله « ثلاثاً » ، وقوله « ثلاثاً » ملغى لاحكم له ، والطلاق واقع بقوله « أنت طالق » مع تكامل الشروط ، كما لو قال « أنت طالق » وشتمها ولعنها لكان مبدعاً بذلك وطلاقه واقع لامحالة .

وليس كذلك الطلاق في الحيض ، لأنـه منتهى عن التلفظ بالطلاق في وقت

١) الزيادة منا .

الحيض ، والنهي بظاهره يقتضي الفساد في الشريعة ولا تتعلق به أحكام الصحة .

ومما يوضح ذلك : أنه لو قال لها « أنت طالق » ثم اتبع ذلك فى المجلس أو بعده بقوله « وانت طالق » لكان عندنا مبدعاً وطلاقه واقعاً لا محالة ، بادخاله الطلاق على الطلاق من غير مراجعة بينهما .

ومع هذا فلا يقدر أحد من اصحابنا على أن يقول: ان تطليقة واحدة ماوقعت بقوله الأول « أنت طالق » وان اتبع ذلك لما هو مبدع فيه من التلفظ ثانياً بالطلاق فكذلك لايمنع قوله « ثلاثاً » الذي هو مبدع من التلفظ به من أن يكون قوله « أنت طالق » الذي لم يكن مبدعاً واقعاً .

(٣)
[استمرار الصوم مع قصد المنافى له]

مسألة ، قال رضي الله عنه :

كنت أمليت قديماً مسألة أنظر منهما[١] أن من عزم في نهار[٢] شهر رمضان على أكل وشرب أوجماع يفسد بهذا العزم صومه، ونظرت ذلك بغاية الممكن وقويته، ثم رجعت عنه في كتاب الصوم من المصباح وأفتيت فيه بأن العازم على شيء مما ذكرناه في نهار شهر رمضان بعد تقدم نيته وانعقاد صومه لا يفطر به ، وهو الظاهر الذي تقتضيه الأصول، وهو مذهب جميع الفقهاء .

والذي يدل عليه: أن الصوم بعد انعقاده بحصول النية في ابتدائه ، وانما يفسد بما ينافي الصوم من أكل أو شرب أوجماع ، ولا منافاة بين الصوم وبين عزيمة

---

١) كذا فى الاصل .

٢) فى الاصل « أن من عينهم لانهار » .

الأكل والشرب .

فاذا قيل : عزيمة الأكل وان لم تناف [١] الصوم فمتى تنافي نية الصوم التى لابد للصوم منها ولا يكون صوماً الا بها، لأن نية الصوم اذا كانت عندالفقهاء كلهم هي العزيمة على الكف عن هذه المفطرات وعلى ما حددتموه في المصباح هي العزيمة على توطين النفس على الكف اذا صادفت هذه العزيمة نية الصوم التي لابد للصوم منها أفسدت الصوم .

قلنا : عزيمة الأكل لا شبهة في أنها تنافي عزيمة الكف عنها، لكنها لاتنافي حكم عزيمة الصوم ونيته وحكم النية نفسها، لأن النية اذا وقعت في ابتداء الصوم استمر حكمها في باقي اليوم وان لم تكن مقارنة لجميع أجزائه وأثرت فيه بطوله. وعندنا ان هذه النية ـ زيادة على تلك ـ مؤثرة في كون جميع أيام الشهر صوماً وان لم تكن مقارنة للجميع .

وقد قلنا كلنا ان استمرار حكم النية في جميع زمان الصوم ثابت وان لم تكن مقارنة لجميع أجزائه ، ولهذا جوزنا وجوز جميع الفقهاء أن يعزب عن النية ولا يجددها ويكون صائماً مع النوم والاغماء . ونحن نعلم أن منافاة عزيمة الأكل لعزيمة الكف وكذلك منافاة النوم والاغماء لها .

ألا ترى أنه لا يجوز أن تكون النية عارية عنه في ابتداء الصوم ويكون مع ذلك صائماً ، وكذلك لايجوز أن يكون في ابتداء الدخول في الصوم نائماً أومغمى عليه ، ولم يجب أن ينقطع استمرارحكم النية بتجدد عزوب النية ولا يتجدد نوم أو اغماء مع منافاة ذلك لنية الصوم لو تقدم وقاربها . كذلك لايجب اذا تقدم منه

---

١) في الاصل « وان لم تساق » .

الصوم بالنية الواقعة في ابتدائه ثم عزم في خلال النهار على أكل أو غيره من المفطرات لايجب أن يكون مفسداً لصومه ، لأن حكم الصوم مستمر .

وهذه العزيمة لاتضاد بينها وبين استمرار حكم الصوم وان كانت لو وقعت في الابتداء لخرجت عن الانعقاد . وانما كان في هذا المذهب شبهة على الصائم تجديد النية في جميع أيام الصوم وأجزاء الصوم ، واذا كانت لاخلاف بين الفقهاء وأن تجديد هذه النية غير واجب لم يبق شهرة في أن العزيمة عن الأكل في خلال النهار مع انعقاد الصوم لايؤثر في فساد الصوم ، اذ لا منافاة بين هذه العزيمة وبين الصوم واستمرار حكمه، وانما يفسد الصوم بعد ثبوته واستمرار حكمه لمانافاه من أكل أو شرب أو جماع أو غير ذلك مما اختلف الناس فيه .

وعلى هذا الذي قررناه لايكون من أحرم احراماً صحيحاً بنية وحصلت في ابتداء احرامه عزم في خلال احرامه على ماينافي الاحرام من جماع أوغيره مفسداً لاحرامه ، بل حكم احرامه مستمر لايفسده الا فعل ماينافى الاحرام دون العزم على ذلك . وهذا لاخلاف فيه .

وكذلك من أحرم بالصلاة ثم عزم على شيء أوالتفات أوعلى شيء من نواقض الصلاة لم يفسدها للعلة التي ذكرناها .

وكيف يكون العزم مفسداً كما يفسده الفعل المعزوم عليه الشرعي، وقد علمنا أنه ليس في الشريعة عزم له مثل حكم المعزوم عليه الشرعي البتة .

ألا ترى [أن] [١] من عزم على الصلاة لايجوز أن يكون له حكم [٢] مثل حكم فعل الصلاة الشرعي ، وكذلك من عزم على الوضوء .

---

١) الزيادة منا .

٢) فى الأصل « حظ » .

وانما اشترطنا الحكم الشرعي، لأن العزم في الثواب واستحقاق المدح حكم المعزوم عليه ، وكذلك العزم على القبيح مستحق عليه الذم كما يستحق على الفعل القبيح ، وان وقع اختلاف في تساويه أو قصور العزم في ذلك عن المعزوم عليه.

ومما يدل على صحة مااخترناه أنه لو كان عزيمة الأكل وما أشبهه من المفطرات يفسد الصوم لوجب أن يذكرها أصحابنا في جملة ما عدوه من المفطرات المفسدات للصوم التي رووها عن ائمتهم عليهم السلام وأجمعوا عليها بتوقيفهم حتى ميزوا ما يفطر ويوجب الكفارة وبين مايوجب القضاء من غير كفارة، ولم يذكر أحد منهم على اختلاف تصانيفهم ورواياتهم أن العزم على بعض هذه المفطرات يفسد الصوم ، ولا أوجبوا فيه قضاء ولا كفارة ، ولو كان العزم على الجماع جارياً مجرى الجماع لوجب أن يذكروه في جملة المفطرات ويوجبوا فيه اذا كان متعمداً القضاء والكفارة كما أوجبوا متناوله من ذلك .

فان قيل : فما قولكم في من نوى عند ابتداء طهارته بالماء ازالة الحدث ثم اراد أن يطهر رأسه او رجليه غير هذه النية فنوى بما يفعل النظافة ومايجري مجراها مما يخالف ازالة الحدث .

قلنا : اذا كانت نية الطهارة لا يجب اذا وقعت النية فى ابتدائها أن تجدد حتى يقارن جميع أجزائها ، بل كان وقوعها في الابتداء يقتضي كون الغسل والمسح طهارة ، فالواجب أن نقول : متى غير النية لم يؤثر هذا التغيير فى استمرار حكم النية الأولى . كما أنه لو عزم أن يحدث حدثاً ينقض الوضوء ولم يفعله لايحب أن يكون ناقضاً لحكم الطهارة ولم يجر العزم على الحدث في الطهارة مجرى المعزوم نفسه .

وهذا الذي شبه مسألة الصوم وانا فرضنا من عزم على الفطر في خلال النهار وقلنا انه بهذا العزم لا يفسد صومه .

وأيضاً فانه يمكن أن يفصل بين الوضوء وبين الصوم : بأن الصوم لايتبعض ولا يكون بعض النهار صوماً وبعضه غير صوم وما أفسد شيئاً منه أفسد جميعه . وكذلك القول في الاحرام بالحج والدخول في الصلاة والوضوء يمكن فيه التبعيض وأن يكون بعضه صحيحاً وبعضه فاسداً .

فلو قلنا انه اذا نوى ازالة الحدث وغسل وجهه ثم بداله فنوى النظافة بما يفعله من غسل يديه أو غسل بدنه تكون هذه النية للنظافة لا لازالة الحدث ولاتعمل فيه النية الأولى لجاز ، ولكنا نقول له اعد غسل يديك ناوياً للطهارة وازالة الحدث ولا نأمره باعادة تطهير وجهه بل البناء عليه . وهذا لايمكن مثله في الصوم ولافي الاحرام ولافي الصلاة .

فان قيل : واكثر مايقتضيه ما بينتموه أن يكون الصوم جائزاً بقاء حكمه مع نية الفطر في خلال النهار ، فمن أين لكم القطع على أن هذه النية غير مفسدة على كل حال ؟

قلنا : كلامنا الذي بيناه وأوضحناه يقتضي وجوب بقاء حكم الصوم طول النهار وان [1] وقعت في ابتدائه ، ونية الاكل غير منافية لحكم الصوم وانما هي منافية لابتداء نية الصوم كما قلنا في عزوب النية والجنون والاغماء ، واذا كان حكم نية الصوم مستمراً والعزم على الأكل لاينافي هذا الحكم على ما ذكرناه قطعنا على أنه غير مفطر ، لأن القطع على المفطر انما يكون بما هو مناف للصوم من أكل أو شرب أو جماع ، والعزيمة خارجة عن ذلك .

وأنت اذا تأملت في كلامنا هذا عرفت فيه حل كل شبهة تضمنتها تلك المسألة التى كنا أمليناها ونصرنا فيها أن العزم مفطر ، فلا معنى لافرادها بالنقض .

وقد مضى في تلك المسألة الفرق بين تلك الصلاة وبين الاحرام والصوم ،

---

١) في الاصل « واذا » .

ولافرق بين الجميع ، فمن قال ان العزم على مـا يفسد الصوم يبطل الصوم يلزمه مثل ذلك في الصلاة ، ومن قال انـه لا يبطله يلزمه أن يقول مثل ذلك في الصلاة والاحرام .

ومضى في تلك المسألة أن من فرق بنية دخوله فى الصلاة العزم على المشي أو الكلام فيها تنعقد صلاته . وهذا غير صحيح ، لأنـه يعنى الصلاة في الشريعة تتضمن افعالا وتروكاً ، والأفعال كالركوع والسجود والقراءة والتروك كالكف عن الكلام والالتفات والمشي وما أشبه ذلك ، فكيف يجوز أن يكون عازماً في ابتداء الصلاة على أن يتكلم او يمشي وتنعقد صلاته ، ومـن جملة معاني الصلاة أن لا يتكلم .

ولو جاز هذا جازأن تنعقد صلاته مع عزمه في افتتاحها العزيمة على حدث من بول أو غيره، لأن الحدث وان أبطل الصلاة فالعزيمة عليه لا تبطلها ، لأنه لا منافاة بينه وبينها ، وبين عزمه على المشي منافاة لنية الصلاة من الوجه الذى ذكرناه .

(٤)

[اضافة الاولاد الى الجد اضافة حقيقيه]

مسألة :

ما تقول في رجل من ولد ابي طالب تزوج امرأة حسنية فرزقا مولوداً فخرجت قسمة رسم مخرجها ان تفض على ولد فاطمة عليها السلام هل يستحق به هذا المولود من الحسنية او الحسينية سهماً لولادته من مولاتنا فاطمة صلوات الله عليها بما تقدم من قيام الدلالة من كتاب الله تعالى أن ولد البنت ولد الجد على الحقيقة ، تفتينا في ذلك مأجوراً .

الجواب :

ولد البنت يضافون الى جدهم الى أمهم اضافة حقيقية ، فمن وصى بمال لولد فاطمة عليها السلام كان عاماً في أولاد بنيها وأولاد بنتها ، والاسم يتناول الجميع تناولا حقيقياً .

(٥)

[تحديد نسبة الاولاد الى الاباء]

مسألة :

ما تقول في من وقف على ولده وولد ولده ذكورهم واناثهم بالسوية بينهم أبداً ما تناسلوا ، فتزوجت احدى بناته برجل من غير الواقف فرزق ولداً ، فهل يستحق من الوقف ما يستحق أولاد الرجل لصلبه بالدلالة القائمة من كتاب الله تعالى أن ولد البنت ولد الصلب حقيقة لا مجازاً ، أفتنا في ذلك .

الجواب :

اذا أطلق الواقف القول بأن الوقف على ولده دخل فيهم ولد الأنثى البنت كدخول ولد الذكر ، لأن الاسم يتناول الجميع على سبيل الحقيقة . اللهم الا أن يستثنى اللفظ ويخصصه بما يخرج منه ولد البنت ، والا فالأطلاق يقتضي ما تقدم ذكره .

(٦)

[الفرق بين نجس العين ونجس الحكم]

مسألة :

سئل رضي الله عنه عن معنى قول القائل: هذا نجس العين وهذا نجس الحكم

يبين ذلك . وهذا وقع نجس الحكم في الماء منجس أم لا ؟

فأجاب بأن قال :

الأعيان لاتكون نجسة ، لأنها عبارة عن الأجسام ، وهي جواهر متركبة ، وهي مماثلة . فلو نجس بعضها تنجس سائرها ، وكان لافرق بين الخنزير وبين غيره من الحيوان في النجاسة ، وقد علم خلاف ذلك . والتنجيس حكم شرعي ، ولا يقال نجس العين الا على وجه المجاز دون الحقيقة .

والذي يدور بين الفقهاء في قولهم « نجس العين » و« نجس الحكم »محمول على ضرب من تعارفهم ، وهو أن كل ماحكم بنجاسته في حال الحياة وحال الموت ولم يتغير أجزاء هذا الوصف عليه قالوا «نجس العين» كالخنزير ، وما اختلف حاله فحكم عليه في بعض الأحوال بالطهارة وبعض الأحيان بالنجاسة قالوا « نجس الحكم» .

ألاترى أن ما تقع عليه الذكاة كالشاة وغيرها يحكم بطهارته حياً وبنجاسته اذا مات ، والكافر يحكم بنجاسته في حال كفره وبطهارته عند اسلامه ، فأجروا على ما اختلف حاله بأنه نجس الحكم وعلى ما لزمته صفة النجاسة في جميع الأحوال بأنه نجس العين .

وقد علمنا أن الجنب يجري عليه الوصف بأنه غير طاهر ، ومعلوم أن نجاسته حكمية . وأمثال هذا يتسع والمذكور منه فيه كفاية .

(٧)

[تنجس البئر ثم غور مائها]

مسألة :

بئر سقطت فيها نجاسة وغار ماؤها حتى لم يبق منه فيها شيء قبل التعرض

لنزحها ثم ظهر فيها الماء بعد الجفاف ، مـا حكم ذلك الماء الذي ظهر فيها من نجاسة أوطهارة ؟

الجواب :

انني لست أعرف في هذه المسألة نصاً ، والذي توجبه الأصول أن يقال : ان الماء الذي ظهر في البئر بعد الجفاف على أصل الطهارة وغير محكوم بنجاسة . والوجه في ذلك : أن الماء الذي حكمنا بنجاسته من أجل مخالطته لسنا نعلم أهو الماء الذي الان فى البئر بعد جفافها والا انه العائد [١] اليها ، لأنه جائز أن يكون ذلك الماء الظاهر في البئر انما هو من موادلها وجهات انصب اليها ، واذا لم يقطع على نجاسة هذا الماء فهو على أصل الطهارة .

وليس لأحد أن يقول : ظهور الماء عقيب الجفاف أمـارة على أن العائد هو الماء الأول المحكوم بنجاسته . وذلك أن ما ذكر [٢] ليس بأمارة على عود الماء النجس ، لأن جواز ظهور الماء بعد جفاف البئر من مواد ينصب اليها واتصلت بها كتجويز ظهور المـاء بعود الماء الأول اليها ، ولاترجيح لاحدى الجهتين على الأخر ، فلا أمارة في ظهوره على أنه هو الماء الأول ، ولم يبق في أيدينا الا التجويز بنجاسة كل ما يجوز أن يكون خالطته بنجاسة .

فـان قيل : هذه بئر تعلق عليها الحكم بوجوب النزح فيجب أن ينزح على كل حال .

قلنا : يعنى وجب نزح البئر لانزاح البئر نفسها ، لأن نزحها نفسها لايمكن وانما يتعلق النزح بما فيها ، واذا وجب نزح ماء بئر لأجل نجاسة ثم فقد ذلك الماء

---

١) لعل الصحيح « او أنه العائد » .

٢) فى الاصل « وذكر أن ما ذكر » .

فقد زال الحكم بوجوب النزح عن هذه البئر .

وليس لأحد أن يقول : ان أرض البئر وجوانبها التى أصابها الماء النجس تنجس ، فاذا تجدد عليها ماء جديد يحكم بنجاسته . لأن هذا يقتضي غسل البئر بعد نزح مائها ، وهذا لا يقوله محصل .

[٨]

[استحقاق مدح البارى على الاوصاف]

مسألة خرجت في صفر سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، قال رحمه الله :

اعلم أنه لايجب أن يوحش من المذهب فقد الذاهب اليه والعابر عليه ، بل ينبغي أن لايوحش عنه الامالا دلالة يعضده ولا حجة تعمده .

ولما فكرت فيما يمضي كثيراً في الكتب من أن القديم تعالى يستحق المدح عليه أنه تعالى لايفعل القبيح ، ورأيت أن اطلاق ذلك غير تفصيل وترتيب غير صحيح على موجب الأصول الممهدة .

والذي يجب أن يقال: انه تعالى من حيث أنه لم يفعل القبيح لايستحق المدح التابع للأفعال لكنه يستحق المدح بذلك من حيث كان تعالى على صفات تقتضي ألا يختار فعل القبيح، كما يستحق تعالى المدح بكونه قديماً وعالماً وحياً وقادراً، وان كان هذا المدح الذي يستحقه ليس هو كالمدح المستحق على الأفعال .

والذي يدل على ما ذكرناه: أنه جل وعز لايختار القبيح، اما لثبوت الصارف عنه ، وهو كونه تعالى عالماً بقبحه وأنه غني عنه ، أو من حيث أنه لاداعي الى فعله ، على اختلاف عبارة الشيوخ عن ذلك ، فجرى مجرى من لايختار القبيح منا بالالجاء الى أن لايفعله في أنه لايستحق مدحاً. ألاترى أن أحداً لايستحق المدح

بألايقتل نفسه وولده ويتلف أمواله ، لأن ذلك مما لايجوز وقوعه منه للصارف القوي عنه .

وليس لهم أن يفرقوا بين الأمرين بالالجاء ويقولون: ان أحدنا ملجأ الى أن [لا] [١] يقتل نفسه ويتلف ماله للمضرة التى تلحقه بذلك ، والقديم تعالى غير ملجأ الى أن لايفعل القبيح .

لأن المضار التى بها يكون الالجاء لاتجوز عليه ، وذلك أن المعول على المعاني دون العبارات، وانما كان أحدنا ملجأ الى أن [لا] يقتل نفسه لثبوت الصارف القوي عن ذلك وانه ممن لايجوز أن يختاره وحاله هذه .

وهذه حال القديم تعالى في كونه غير فاعل ، لأن ذلك انما اعتبر استعماله في من ألجأه غيره وحمله اما على أن يفعل أو على أن لايفعل .

وقولهم في الكتب : ان الالجاء اذا لم يكن من باب المنع فلا يحصل الا بالمضار الحاضرة. تحكم غير مسلم، لأن الالجاء في الموضع الذي ذكروه معلوم سقوط المدح فيه ، فيحتاج الى أن يعلل بأنه لم يسقط المدح فيه عن الفاعل ، واذا فعلنا ذلك لم نجد له علة الا خلوص الصارف وأنه لايجوز من العاقل والحال هذه أن يفعل ما خلص الصارف عن فعله .

وهذا بعينه ثابت في الأفعال القبيحة مع الله تعالى ، لأنه جل اسمه لايجوز البتة أن يختار القبيح ، لأن علمه بقبحه وبأنه غني عنه صارف ، فلا يجوز معه وقوع القبيح على وجه من الوجوه، فينبغي أن يسقط المدح كما يسقط في الموضع الذي ذكروه .

وليس بنا حاجة الى المضايقة في تسمية ذلك الجاءاً ، فلا معنى للخلاف في العبارات .

---

١) الزيادة منا .

وكيف يجوز أن نقول : حكم الالجاء مقصور على المضار الحاصلة . وعندنا ان ههنا ضرباً من الالجاء بغير المضار ، وهو أن يعلم الله تعالى القادر أنه متى رام الفعل منعه منه .

فاذا قالوا : ان الالجاء اذا لم يكن بالمنع ـ وهو وجه الذي ذكرتموه ـ فلايكون بالمضار .

قلنا : اذا كان الالجاء فلا يكون بالمضار وقد يكون بالوجه الذي سميتموه ، فالاجاز ثلاث وهو الوضع الذي أشرنا اليه ، لمساواته في الحكم للوجهين اللذين ذكرتموهما ، لأن الوجهين اللذين عنيتم انما كان لهما حكم الالجاء لخلوه من الصارف والقطع على أن الفعل لايجوز البتة وقوعه ، وهنا ثابت فيما ذكرناه .

فان قالوا : قد ثبت أن أحدنا لو استغنى بحسن عن قبيح ـ بأن يقدر وصول صاحبه الى درهم يعلم أنه يصل اليه بكل واحد من الصدق والكذب ـ فانا نعلم أنه لايختار وحاله هذه الا الصدق ، ومع هذا فانه يستحق المدح على امتناعه من القبيح مع ثبوت الصارف عنه، وهو الاستغناء بالصدق عنه . فيعلم بذلك أن القديم تعالى يستحق المدح واذا لم يفعل القبيح ، لأن الحالين واحدة .

قلنا : ومن الذي يسلم لكم أن أحدنا اذا استغنى بالصدق عن الكذب وحاله ما ذكرتم يستحقه بامتناعه من الكذب مدحاً، فدل على ذلك فانه دعوى منكم ، و هيهات أن يتمكنوا من الدلالة عليه .

ولو جاز أن يستحق مدحاً وحاله هذه على امتناعه من القبيح لجاز أن يستحق المدح على امتناعه من القبيح مع الالجاء، فأي فرق بين الأمرين والصوارف ثابتة والدواعي مرتفعة ، والقطع على أنه لا يجوز أن يفعل القبيح وحاله هذه حاصل على أن أحدنا لو استحق المدح في هذا الموضع ـ وان القول أيضاً الأصح

أنه لايجوز أن يستحقه ـ بينه وبين القديم تعالى [. . .] [١] منفعة في الكذب وداع اليه على كل حال ، وان [. . .] [١] فيما يصل اليه بهما من النفع ، والقديم تعالى لاحاجة له ولا منفعة تتعلق بكل واحد من [. . .] أحدهما قبيح صارف خالص من فعله واستحقاق المدح مع ذلك بعينه [٢] .

فان قالوا : فيجب على هذا أن لايمدح من لايفعل القبائح حتى يعلم من حاله أنه امتنع مع الحاجة اليها وأنه ليس بمستغن عنها .

قلنا : كذلك، ومن الذي يقول ان كل ممتنع من القبيح لالقبحه بل لغير ذلك لايستحق مدحاً ، فنحن لا نمدح الممتنع من القبيح الا بعد أن نعلم أنه امتنع منه لقبحه . وكذلك لاقدح الا اذا علمنا له اليه داعياً ولالمدحه مع خلوه من الصوارف عنه .

فان قالوا : فيجب [. . .] يستحق المدح من فعل الواجب .

قلنا : أما الضرب من المدح الذي يستحق على الأفعال فيجب أن لايستحقه تعالى على فعل الواجب ، لأنه لا داعي له الى الاخلال به كما قلناه في فعل القبيح لكنه يستحق على ذلك الضرب الاخر من المدح الذي تقدمت الاشارة اليه كما يستحق هذا القبيح بأن لا يفعل القبيح .

فان قيل : فكيف قولكم في استحقاقه تعالى المدح على الاحسان والتفضل.

قلنا : يجب أن يستحق بذلك المدح المستحق بمثله على الأفعال، لأن الاحسان مما يجوز ـ وهو على ما هو عليه ـ أن يفعله وأن لايفعله ، وليس اليه داع موجب لابد معه من فعله ولا عن الامتناع منه صارف خالص لابد من ارتفاعه معه ، والدواعي

---

١) بياضات فى الاصل .

٢) فى الاصل « فعينه » .

والصوارف مترددة، والدواعي اليه كونه احساناً والصارف كونه غير واجب على الفاعل ، فاذا اختار فعله فلابد من استحقاق المدح .

فان قالوا : فيجب مع امتناع [١] أحدنا من القبيح الذي يستغنى عنه بالحسن أن يستحق الضرب الاخر من المدح الذي قلتم ان القديم تعالى يستحقه على أنه لم يفعل القبيح .

قلنا : لايجب ذلك ، لأن القديم تعالى انما لا يختار القبيح لكونه تعالى على صفات نفسه يقتضي ذلك يستحق بها المدح والتعظيم من كونه تعالى غنياً عالماً ، وهذا غير ثابت في أحدنا . وانما اتفق لأمر عارض كان يجوز ألايحصل استغناؤه عن القبيح بالحسن، من غير أن يكون له في نفسه وجه لاستحقاق ضرب من ضروب المدح .

فان قيل : هذا الذي حررتم يخالف كل شيء سطره الشيوخ قديماً في هذه المسألة .

قلنا : الذي ذكروه أنه تعالى يستحق المدح بألايفعل القبيح ، وقد قلنا بذلك ودللنا عليه ، فما خالفنا ظاهر ما أطلقوه وان كانوا [. . .] [٢] الضرب الاخر من المدح الذي من شأنه أن يسقط عند خلوص الصوارف فقد زلوا في ذلك ، والزلل جائز عليهم لاسيما في هذه المواضع [. . .] [٢] .

(٩)

[المنع من العمل بأخبار الاحاد]

مسألة خرجت في شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ، قال رضي الله عنه:

---

١) في الاصل « مع امتنع » .

٢) بياض في الاصل .

فيما يجب الاعتماد في فساد العمل بأخبار الاحاد في الشريعة قوله تعالى «ولا تقف ماليس لك به علم »[١] وقوله تعالى « وأن تقولوا على الله مالاتعلمون »[٢]، وكل آية تنهى فيها عن الفعل من غير علم ، وهي كثيرة .

ولما كان بخبر الواحد في الشريعة عاملا به الظن من غير علم لصدق الراوي يوجب أن يكون داخلا تحت النهي .

فان قالوا : في العامل بخبر الواحد علم وهذا العلم بصواب العمل بقوله وحسنه وان لم يكن عالماً بصدقه فلم يجب العلم من العمل[٣] ، وانما نهى تعالى عن العمل الذي لا يستند الى شيء من العلم .

قلنا : الله تعالى نهىعن اتباع ماليسلنا به علم ، [ولو عملنا][٤] بخبرالواحد فقد قفونا ماليس له علم ، لأنا لاندري أصدق هو أم كذب ، والعلم بصواب العمل عنده هو علم به ، وأقوى العلوم به العلم بصدقه ، وليس ذلك بموجود في العمل بخبر الواحد ، فيجب أن يكون النهي متناوله .

فان قيل : نهينا[٥] عن أن نقتفي ما ليس لنا به علم ، ونحن اذا عملنا بخبر الواحد فانما اقتفينا بخبر قول الرسول صلى الله عليه وآله الذي يعبدنا بالعمل به والدليل الدال على ذلك ولم نتبع قول الخبر الواحد .

قلنا : ما اقتفينا الا بقول الخبر الواحد ولا عملنا الا على قوله ، لأن عملنا مطابقاًلما أخبرنا به مطابقة يقتضي تعلقها به . وانما الدليلفيالجملة عند من ذهب

---

١) سورة الاسراء : ٣٦ .

٢) سورة البقرة : ١٦٩ .

٣) في الاصل « فلم يجب العمل من عمل » .

٤) زيادة منا .

٥) في الاصل « لقينا » .

الى هذا المذهب الى وجوب العمل بخبر الواحدالعدل وعلى طريق التفصيل انما نعمل بقول من أخبرنا بتحليل شيء بعينه أو تحريمه .

وبعد ، فلو سلمنا أنا مقتفون قول النبي صلى الله عليه وآله لكان لابد من كوننا مقتفين أيضاً قول المخبر لنا بالتحليل أوالتحريم . ألاترى أن قوله عليه السلام لو انفرد عن خبر المخبر [1] .

فان قيل : هذا سيبطل بالشهادات ، وقيم المتلفات ، وجهة القبلة ، ومسائل لاتحصى .

قلنا : أخرجنا هذه المواضع كلها من ظاهر الاية بدليل وبقي موضع الخلاف متناولا حكمه للظاهر .

ويمكن أيضاً أن يستدل على أن الظن عند خبر الواحد في الشريعة لايجوز العمل عنده ، وكذلك في القياس الشرعي ، بأن الله تعالى ينهى في الكتاب عن اتباع الظن والعمل به ، وظاهر ذلك يقتضي العمل به ولا عنده في موضع من المواضع ، ولمادلت الأدلة الظاهرة على العمل عند الظنون فيمواضع من الشريعة خصصنا ذلك بتناوله النهي وبقيت مسائل الخلاف يتناولها الظاهر ولانخرجها منه الابدليل ، ولادليل يوجب اخراجها .

(١٠)

[الجسم لم يكن كائناً بالفاعل]

مسألة خرجت في ربيع الأولسنة سبع وعشرين وأربعمائة ، دليل لم نسبق عليه على أن الجسم لم يكن كائناً بالفاعل [2] قال ، رحمه الله :

١) كذا ، والعبارة فيها نقص .

٢) في الاصل « بانها على » .

الذي يدل على ذلك : أنه لو كان الجسم كائناً بالفاعل لوجب أن يكون التأثير[١] في هـذه الصفة من صفات الفاعل لأنه ذات الفاعل لايجوز أن يؤثر في كـون الجسم على صفة ، ولا يخلو من أن تكون تلك الصفة المؤثرة هي كون الفاعل قادراً أو كونه مريداً أو كارهاً ، كما تحصل هاتين الصفتين مؤثرتين في كون الخبر والأمر على ماهما عليه .

ولايجوز أن يؤثر في كون الجسم كائناً في المحاذيات كون الفاعل مريداً أو كارهـاً أو صفة من صفاته غير كونه قادراً ، لأنه قـد يعرض[٢] في هذه الصفات كلها ويجعل الجسم كائناً ومتحركاً وساكناً. ألاترى أن النائم والساهي قد يخلوان[٣] من الارادة والكراهة والعلوم ومع هذا يجعلان الأجسام مستقلة في المحاذيات .

فثبت أن التأثير بكونه قادراً ، وكونه قادراً صفة مؤثرة في الأحداث ، فيجب أن لايؤثر سواه . ألاترى أن كونه قادراً لايؤثر في كون الفعل محكماً ولا في كون الصوت خبراً وأمراً .

وحيث[٤] كانت هذه كلها أحوالاً زائدة على الأحداث فيجب أن يؤثر كونه قادراً في كون الجسم كائناً لما ذكرناه .

(١١)

[النظر قبل الدلالة]

مسألة ، قال رضي الله عنه :

---

١) في الاصل « ان يكون الرر » .

٢) كذا في الاصل .

٣) في الاصل « قد يخلوا » .

٤) في الاصل « وامرأة من حيث » .

اعلم أن عادة الشيوخ جرت اذاذكروا في كتبهم أن من الواجبات النظر في طريق معرفة الله تعالى أن يبتدؤا بالدلالة على أن كون النظر أولا قبل الدلالة على وجوبه . والظاهر يقتضي العكس فيما فعلوه .

وليس يجوز أن يكون الوجه في ذلك أن كون النظر لاسابقاً وكونه واجباً صفتان له ، وأنت بالخيار في تقديم كل واحدة على الأخرى . وذلك أن كونه أول الواجبات يتضمن دعوى وجوبه وأوليته ، وليس يمكن أن يعلم أنه أول الواجبات فوجب لذلك تقديم الكلام في أوليته ، لانفصال الوجوب من الأولية وتعلق الأولية بالوجوب .

ولما فكرت في جهة العذر في ذلك لم أجد الا ما أنا ذاكره ، وهو :

أن الدلالة على وجوب النظر مبنية على وجوب معرفة الله تعالى ، ومعرفة الله تعالى مبنية على أن اللطف في فعل الواجبات العقلية ، وهو العلم باستحقاق الثواب والعقاب على الطاعات والقبائح لايتم الا بمعرفة الله تعالى ، ومبني على أن اللطف واجب على الله تعالى اذا كان من فعله ، واذا كان من فعلنا فواجب علينا ، فصار العلم بوجوب النظر في معرفة الله تعالى لايتم الا بعد معارف كثيرة طويلة لايمكن أن يدل عليه عاجلا من غير حوالة على ما يطول من أصول كثيرة ، وأخروا الكلام في وجوبه لما ذكرناه من تعلقه لما لايمكن الكلام في هذا الموضع . والله أعلم.

[١٢]

[التاء في كلمة « الذات » ليست للتأنيث]

مسألة :

سئل رضي الله عنه عن التاء في قولنا « ذات القديم تعالى » [و] في قولهم

« صفات الذات » و« ذات الباري » ، فقيل : هل التاء في « ذات » للتأنيث كقولنا « جاءتني امرأة ذات جمال » أو هي من نفس الكلمة كالتاء في قولنا « بات » .

فأجاب فقال :

الجواب وبالله التوفيق :

ان صفات التأنيث لاتجوزعليه تعالى ، لأنها تقتضي النقص عن كمال التقصير ، ولا يجوز عليه تعالى ما يقتضي نقصاً ويبقى كمالا .

وليس يعترض على هذا الذي ذكرناه قولهم « علامة » و« نسابة » ، لأن الهاء ههنا ليست للتأنيث وانما هي للتأكيد وقوة الصفة .

وقولنا « ذات » لايقتضي تأنيثاً ، والتاء في اللفظ ليست للتأنيث بل هي من نفس الكلمة ، ولم يدل على ذلك الا أنه يستعمل في القديم تعالى منزه عن التأنيث .

ويدل على قولنا « ذات » ليست التاء الداخلة فيه للتأنيث : أنه وصف يجري [على] الذكر والانثى وجميع الموجودات ويجري على المعدومات كلها عند اكثر المتكلمين ، فلو كان للتأنيث لما جرى على الذكر ولاختصت به المؤنثات ، ولما جرى أيضاً على الأعراض وما يوصف به على الحقيقة بتأنيث ولا تذكير .

فوضح بذلك أنه لايختص التأنيث وانما هو عبارة عن نفس الشيء وعينه ، فتقول : ذات يخالف الذوات كما نقول عين يخالف الأعيان .

وانما نعني بقولنا «امرأة [ذات] جمال» فالتاء للتأنيث لامحالة، لأنها تختلف في المذكر والمؤنث ، فتقول « جاءني رجل ذوجمال وامرأة ذات جمال »، فلو لم تكن للتأنيث لما اختلف مع التذكير ولا تخالف المذكر والمؤنث في الوصف بأنه ذات على ما بيناه . فالله أعلم بالصواب .

[١٣]

[منع كون الصفة بالفاعل]

مسألة :

استدل من منع من كون الصفة بالفاعل ، بأن قال : لو كانت بالفاعل لكان متى قدر على جعل الذات على صفة يكون عليها بالفاعل. ألا ترى أن [من] قدر منا على جعل الصوت خبراً فهو قادر على أن يجعله أمراً ونهياً وخبراً عن كل مخبر عنه من حيث كانت هذه الصفات أجمع بالفاعل . فلو كان الجسم مستقلا بالفاعل لكان كونه أسود وأبيض بالفاعل ، لأن الطريق واحد .

وهذا الدليل معترض، بأن يقال: ما انكرتم أن يكون انتقاله بالفاعل وكونه أسود وأبيض بمعنى ، لأن الصفات التي تجوز على الذات ينقسم استنادها : فتارة تستند الى الفاعل، فما الذي يمنع عن استناد الانتقال الى الفاعل والسواد والبياض الى العلة . واذا كنا نجوز ذلك يمكن القطع على أن السواد اذا كان لعلة كان الانتقال كذلك .

وليس يعصم من هذا السؤال قولهم: ان الصفتين اذا كانت كيفية استحقاقهما واحدة لم يجز أن يكونا مستحقين من وجهين مختلفين ، فلما كان الجسم يستحق كونه أسود يستحق كونه منتقلا في باب الصحة والجواز والشروط ، وجب متى كانت هذه الصفة بالفاعل أن تكون الأخرى كذلك .

وان كانت لمعنى فكذلك ، لأن الاشتراك في كيفية الاستحقاق ـ وهو حصول الصفة على وجه الجواز ـ انما يدل على أن الصفة ليست للنفس، فاذا انتفى بالاشتراك في هذه الكيفية كون الصفة مستندة الى النفس ، وانقسم بعد ذلك بما يمكن استناد الصفة اليه : فتارة يكون بالفاعل ، وأخرى بالعلة .

فمتى علمنا بالدليل أن العلة أثر بها قطعنا بذلك، ومتى دل على أن الفاعل أثر بها حكمنا بـه ، ومتى جوزنا في البعض أن يكون الفاعل هـو المؤثر والبعض العلة وجب التوقف وترك القطع .

وهذه حالنا في انتقال الجسم وكونه أسود ، لجواز أن يستند الانتقال الى الفاعل والسواد الى المعنى . فلا سبيل بالاعتبار الذي اعتبر على أن يقطع على أن الانتقال لايجوز استناده الى الفاعل من غير توسط معنى .

[١٤]

[الدليل على أن الجوهر ليس بمحدث]

مسألة :

ومما استدلوا بها على أن الجوهر لايكون محدثاً ، بمعنى أن ذلك لو وجب فيه لكان المعنى الذي يحتاج اليه في حدوثه يفتقر الى معنى ، لمشاركته له في العلة التي احتاج اليه من أجلها، وهي حدوثه مع جواز ألا يحدث . وذلك يؤدي الى اثبات مالا نهاية له من اثبات الحوادث ، وهو مستحيل .

وهذا الدليل يعترض بمثل المسألة الأولى، لأنه يمتنع أن يكون حدوث بعض المحدثات لعلة حدوث البعض الاخر بالفاعل .

وقولهم : انهما اذا اشتركا في كيفية الاستحقاق لـم يجز أن يقتضي أحدهما أمراً والاخر سواه . باطل، لأن المشاركة في كيفية الاستحقاق جواز الحدوث يمنع من استناد الصفة الى النفس، واذا بطل استنادها الى النفس لم يمتنع انقساماً يستند اليه ، فيكون في بعض الذوات بالفاعل وفي بعض بالعلة .

وهذا أمر متلبس لاسبيل الى العلة، بل الشك في ذلك والتجويز هو الواجب

الى أن يدل دليل .

(١٥)

[ابطال قول « ان الشيء شيء لنفسه »]

مسألة :

لايجوز أن يقال ان الشيء شيء لنفسه . لأن ذكر المعلوم بأنه شيء ليس بصفة لاشتراك الموجود والمعدوم والأجناس المختلفة في اجراء هذا الاسم عليها .

فان قيل : فلما تصفون الموجود بأنـه موجود لنفسه واجراء ذلك في القديم تعالى .

قيل له : لأن الوجود صفة ، فجاز أن يستند الى النفس .

فان قيل : فما تقولون في العرض .

قيل : اجراء هذا الاسم على ماليس بصفة وان كان غير قولنا عرض أنه الذي لالبـ [١] له كلية الأجسام ، وهذا الحكم فليس بصفة .

(١٦)

[النسبة بين الافعال وما هو لطف منها]

مسألة :

ان يسأل سائل عن وجه المناسبة بين الأفعال في العقل وبين ما هو لطف فيها من الشرعيات .

---

١) كذا في الاصل .

فالجواب : انا اذا علمنا كون هذه الأفعال ـ أعني الشرعيات ـ واجبة علمنا أن لها وجهاً [1] ومناسبة بين ما هي لطف وان لم يتعين لنا وجه المناسبة ، غير أنهم قد بينوا ما يمكن أن يكون وجهاً على طريق الاستظهار [. . .] [2] وقالوا :

انه يمكن أن يكون الوجه أن في الشرعيات من ذكر الله تعالى والرجوع اليه والتمسك بطاعته وتوطين النفس عليها ، مثل الذي يجب على المكلف في التكليف العقلي أن يفعله ، فاذا عزم على هذا الفعل ووطن نفسه على الاستكثار وسارع الى مثله في العقليات .

والوجه الثاني فى هذه الأفعال من تحمل المشقة على وجوه مخصوصة مثل ما في تلك الأفعال .

وهذا يسقط استبعاد من يستبعد كونها تصلح في العقليات، وقالوا : انا لانقطع على أنها مصلحة لأي وجه من هذين الوجهين. وانما أوردنا ليزيل مايتوهم ويستبعد من المناسبة .

وبينوا : أن الطريقة في ذلك كالطريقة في الالام والغموم والمعالجات ، وذلك أن من نزلت به الالام فتلف لها وطلب التخلص منها بالمكاره والعلاج واحتمى من الملاق [3] طلباً للسلامة منها يكون أقرب الى مفارقة المعاصي وفعل الطاعات وتحمل المشقة فيها ، ليتخلص من العقاب الدائم ويستحق الثواب الدائم.

ثم لم يجز أن يعرف التفصيل في ذلك، ولا أن يقطع على أن هذا هو الوجه دون غيره. وبينوا ذلك أيضاً بأن الانسان اذا قارف ذنباً وجب عليه التوبة منه، قد

---

١) فى الاصل « ان لها وجوب » .

٢) بياض فى الاصل .

٣) كذا فى الاصل .

حصل ليزيل من نفسه العقاب .

ولا فرق بين أن يعرف عين الفعل وبين أن لايعرفه، في أن وجه وجوب التوبة قد حصل له وقد تمكن من تلافي ما كان منه ، فكذلك القول في المصالح ، لأنها انما تجب لما يتضمن من ازالة المضرة واجتناب المنفعة على ما بين .

[١٧]

[دور العقل والسمع في النوافل]

مسألة :

اذا قلنا : ان النوافل انما يتعلقها لذلك السمع ، وهو استحقاق الثواب عليها وان تركها لايستحق العقاب عليه، فلابد من بيان أن السمع هو الكاشف عن ذلك وأن العقل لامدخل له فيه .

وذلك أنه قد تقرر كونها لما فيها من المشقة قبيحة ، فلو لم يكن فيها بعض وجوه المصالح لعرضنا لاعتقاد يجري مجرى الجهل ، لأنه كان يجب لولا البيان أن نعتقدها قبيحة منا ومن حقها أن تكون حسنة .

والوجه الذي ذكر في حسنها : أنها مسهلة للفرائض ، فكأن المكلف اذا مرن على فعلها واعتادها يكون اقدامه على الواجب أسهل وعلى النفار من فعله أبعد ، فيكون وجهاً مقوياً داعياً الى فعل الفرائض .

وعلى هذا ورد الشرع في أن يأمر الصبي بالصلاة في حال ويضربه على فعله في حال ، لكي يعتاد ويمرن عليها .

فاذا كان ما يتقدم التكليف يؤثر هذا التأثير، فان تأثر [١] النوافل على هذا الحد

---

١) في الاصل « فلا تؤثر » .

في حال التكليف أقرب .

وهذة الطريقة متعارفة، لأن من يتحمل المشقة فيما لايجب عليه يكون الواجب عليه أسهل عنده وأقرب الى فعله .

وقدقيل: أن النوافل مسهلة لأمثالها من العقليات من الاحسان والتفضل، واعتبر قائل ذلك أنهــا لو كانت مقربة الى فعل الواجبات الشرعية لوجبت كمــا وجبت الشرعيات لتقربها من الواجبات العقلية . وفي هذا نظر .

(١٨)

[الدليل على أن الجواهر مدركة]

مسألة :

استدل على أن الجواهر مدركة : بأن النبي صلى الله عليه وآله لو خبربأن زيداً في الدار وكون جسم مخصوص فيها ، ثم أدركناه على حد ما أخبربه تقوى العلم بذلك ، فلو لا أن الادراك تناوله لما وجب قوة العلم لما كان متناول الخبر والادراك واحداً ، اذ لو كان مختلفاً لما أوجب ذلك .

(١٩)

[دفع شبهة للبراهمة فى بعث الانبياء]

شبهة للبراهمة :

قالوا : لو حسنت البعثة لكان من يبعثه الله تعالى لأداء الرسالة يقطع على أنه سيبقى حتى يؤديها ، لأنه متى لم يقطع على ذلك جوز ألا يكون تعالى مزيحاً لعلة المبعوث اليهم في مصالحهم . وقطعه على البقاء مفسدة ، لأنه اغراء بالمعاصي على

ما يقولون بمثله في سائر المكلفين وكما يذكرونه في تعريف الصغائر وتعريف غفران الكبائر . وهذا يجوز أن يكون بعثة الرسول لاتنفك من القبيح ، فاذا ثبت أنه لا يجوز أن يستصلح المبعوث اليهم باستفساد المبعوث فيجب قبح البعثة .

الجواب :

ان الرسول فيما كلفه من أداء الرسالة بمنزلته في سائر ما كلفه في أنه يعلم أنه سيبقى بشرط ، وهذا السؤال لأنه اذا جوز في سائر ما كلف لأنه قد علم بحكم النقل أن تكليفه على شريطة ، واذا لم يقطع على حصولها جوز أن لا يكون مكلفاً وان كان يعلم أن تلك الشريطة متى ثبتت كان مكلفاً .

وليس كذلك حال أداء الرسالة، لأنه قد يعلم أن البعثة بها ارادها الى المبعوث اليهم ، فمتى لم يمكن من الا[١] لم يزح علة المبعوث اليهم في المصالح ، فيعلم لعقله ؟ أنه يمكن من التأدية محصل من ذلك الاغراء .

فيقال له : وان علم في الرسالة أنها مصلحة للغير وأنه متى لم يعلمها ذلك الغير لم يكن مزاح العلة فانه يجوز متى لم يكن من الا[١] ان يؤمر بها غيره فيزاح علته ، لأن الذي يعلمه بالعقل أنه لابد من ازاحة علة المكلف ثم لايعلم أن ذلك يكون [...][٢] قبل غيره ، كما لا يعلم أنه يكون بالمشافهة دون الخبر وشكه في [. . .][٢] لا تمنع من حصول اليقين من له ولايؤدي الى فساد .

فان قيل : فيجب على هذا الجواب أن لا يعلم الرسول أنه قد حمل الرسالة لا محالة .

قيل : هو يعلم ذلك وانما يشك هل كلف [. . .][٢] في الأحوال المتراخية أم لا ، مع علمه بأنه قد كلف لا محالة ان بقي على شرائطه .

---

١) كذا في الاصل .

٢) بياض في الاصل .

فان قيل : انما حمل الرسالة حتى يؤدي ، فيجب أن يقطع ثبوت الأول .

قيل له : ان من سلك هذه الطريقة يقول : انما حملها لكي يؤدي ان بقي على صفات المكلف، ولا يطلق الا ما أوردت اطلاقاً ، كما يقول في رد الوديعة عند المطالبة انه مكلف ذلك ان بقي متمكناً ، وان لم يتمكن لم يجب الا أن يكون مكلفاً في الأول على الشرط الذي ذكرناه .

فان قيل : الغرض فيما يفعله من مقدمات الوديعة وصولها الى [. . .] [1] ، فالغرض بتحمل الرسالة العزم على تأديتها الى من بعث الرسول اليه .

جواب آخر :

اذا قلنا انه يعلم [. . .] [1] الرسالة فلا يجب بذلك الاغراء ، لأن الاغراء يختلف باختلاف المكلفين ، فمن علم من [. . .] [1] على الطاعة لكونه معصوماً والعلم بحاله في ايثاره التمسك بما يلزمه فعله بذلك لايكون [. . .] [1] من حاله خلاف ذلك يكون اغراء في حقه ، فتختلف أحوال المكلفين بحسب المعلوم من أحوالهم ، فلايجب [. . .] [1] قدروه من الفساد .

ولمن حكم بأن في المعاصي صغائر أن يفرق بين العلم بصغير المعصية والعلم [. . .] [1] أن يقول : العلم بصغير المعصية يقتضي أن لايستضر بفعلها ضرراً يعتقد بمثله مع ماله فيها من الشهوة ، فيكون ذلك اغراء . وكذلك القول في تعريف القرآن .

وليس كذلك اذا علم أنه سيبقى يجوز معه ألا يختار التوبة ، فالمخالفة قائمة من الاقدام على المعاصي ، فلذلك جاز أن تختلف أحوال المكلفين فيه .

---

١) بياضات في الاصل .

وانما يصير الاعلام بالتبعية اغراء اذا انضافه الى العلم بأنه مأمور لا محالة وان أقدم على المعاصي .

ويمكن أن يقال : انـه يأمن ألا يستكثر من الطاعات فتفوته المنافع العظيمة والخوف من فوات المنفعة كالخوف من فوات المضرة .

ووجدت عبدالجبار بن أحمد قد ذكر في هذا فصلا في المعنى ، وهو أن قال: ان الرسول يقطع على أنه سيبقى الى أن يؤدي الرسالة التى حملها ، ثم بعد يعود حاله الى أنه في كل وقت مستقبل يجوز أن يبقى وأن يقطع تكليفه ، وكذلك كانت أحوال الأنبياء تنتهي الى هـذه الطريقة . وذلك يزيل ما نذكره من الاغراء ، لأن الوجل والخوف انمـا يزولان عنه متى علم انتهاء[١] تكليفه ، فأما اذا لـم يعلم فالخوف قائم .

وهذا الجواب يعترض ، بأن يقال : انما ألزمت الاغراء فى الحال التي يقطع فيها المكلف على أنـه سيبقى لامحالة ، وهي الحال التي يعلم فيها بقاؤه الى حين الأداء . فأمـا بعد هذه الى الحال فلاقطع للنبى عليه السلام على البقية والأغراء ليس بحاصل ، فاذا علـم انتهاء تكليفه عادت الحال الى الاغراء . فيعلم أن هذا الجواب ليس بصحيح .

(٢٠)

[معنى النفع فى الضرر]

مسألة :

قال رضي الله عنه :

---

١) فى الاصل « بأنه مسمور » .

٢) فى الاصل « على انتهاء » .

ان الألم يحسن اذا لم يكن ظلماً ولاعبثاً ولامفسدة، وان حد الظلم مايعرى عن نفع يوفي عليه ودفع ضرر يزيد عليه .

ومن رأيت هذا مضروباً والظاهر أنه ذواستحقاق وزيد فيه ولاكان على وجه المدافعة فان ذكر القصد والحد، فقيل الألم المقصود متى يعرى من الوجوه الثلاثة كان ظلماً لم يدخل المدافعة ، لأن الألم فيها غيرمقصود ولو قصدلكان قبيحاً وظلماً.

ولابد من بيان وجه قولهم : نفع في الضرر تجرى الألم .

والظاهر أن الظن يقوم مقام العلم في هذه الوجوه [1] كلها للاستحقاق ، فان الخلاف بين أبي علي وأبي هاشم: فذهب أبوهاشم الى أن الظن فيه أيضاً يقوم مقام العلم ، واستدل بأنا نذم العاصي اذا غاب عنا وان جوزنا أن يكون قد تاب لظن العلم ، وقال أبوعلي في هذا الموضع : وانما يحسن الظن مشروطاً لا مطلقاً .

وقول أبي علي كأنه أقوى ، ويجب أن يراد به الوجوه التي يقصد بالألم ، فيحسن عليها أن يفعل للاعتبار ، ومعنى الاعتبار أن يفعل المؤلم عنده اما طاعة أو ممتنع أو من معصية .

وهذا الوجه كا [. . .] [2] من هذه الوجوه ، لأن الله تعالى اذا فعل الألم للاختبار [. . .] الحاصل عليه ، بل العوض كالتابع والأصل الاعتبار ، فبالعوض يخرج من أن يكون عبثاً .

وهذا الوجه خاصة لايصح الامن القديم تعالى خاصة دون غيره من العباد ، لأنه جل اسمه المكلف لهم، فازاحة [3] علتهم بالاطلاق واجبة عليه وغيره من العباد

---

١) في الأصل « الوجود » .

٢) بياض في الأصل .

٣) في الأصل « فاناحة » .

وليس بمكلف لغيره فيلزمه الطاعة . فصار هذا الوجه خاصة يختص بالقديم تعالى من الوجوه المشتركة بيننا وبين القديم تعالى .

فعلم الالم بوجه الاستحقاق، فان الله تعالى يعاقب العصاة ويؤلمهم لهذا الوجه كما يـرم العاصي[٢] وان عمه ذلك [. . .][٣] لهذا الوجه ، فصار هذا الوجه مشتركاً والأول خاصاً به تعالى . فأما باقي الوجوه التي ذكرناها فنختص نحن بها دونه ، فلايصح دخول شيء منها فيما يدخله تعالى من الالام .

أما الظن فيستحيل عليه تعالى لأنه عالم لنفسه .

وأما فعل الألم لدفع الضرر فانما يحسن منا اذا كنالا نتمكن من دفعه الابه ، ولهذا لايحسن أن يخرج الغريق من الغمرة بأن يكسر يده الا اذا لم يتمكن من اخراجه الاكذلك ، فان تمكنا من اخراجه بغير كسر يده فأخرجناه كا[. . .][٣] من يده ضمناكسر يده . ولما كان القديم تعالى قادراً على دفع كل ضرر قل أم كثر من غير أن يفعل شيئاً من الالام ارتفع هذا الوجه أيضاً من جملة أفعاله .

وأما فعل الالام فلايحسن الا اذا كان لايوصل الى النفع الابه ، ولهذا لايحسن منا أن نتعب نفوسنا في طلب الارباح ونحن نقدر على الوصول اليها من غير ألم ولا تعب . ولماكان القديم تعالى قادراً على ايصال [...][٣] يريد ايصاله من المنافع من غير مقدمة ألم لم يحسن منه أن يؤلم لايصال النفع . فلذا قلنا : ان الاعتبار هو المقصود والنفع تابع .

فصار المحصل من هذه الجملة التى ذكرناها أن الوجوه التى يقع عليها الألم فيخرج من أن يكون ظلماً فيها مشتركة بين القديم تعالى وبيننا وهو الاستحقاق فقط ، ومنها ما يختصه تعالى وهو الاعتبار ، ومنها ما يختصنا وهو باقي الوجوه من فعله

---

١) كذا فى الاصل .

٢) بياض فى الاصل .

لرفع الضرر أو للنفع .

واذا كان غير مقصود فعلى سهل المدافعة، لأن هذا الوجه أيضاً لا يليق بالقديم تعالى ، لأنه قادر على دفع كل ألم يقصده الظاهر من غير فعل شيء من الالام ، ولأنه تعالى لايصح أن يقع منه ألم غير الم، والالام في المدافعة لا تكون مقصودة.

وتأمل هذه الجملة ، فان فيها فوائد كثيرة لا تمضي [١] في الكتب ومابسطناها في الذخيرة بحسن التوفيق .

واعلم أن هذه الوجوه التى ذكرناها تنقسم : فمنها ما اذا حصل تكامل منه بحصوله حسن الا [. . .] [١] في حسنه الى غيره ، ومنها مالايتكامل بذلك الوجه حسنه بل يقف كمال حسنه على غيره .

فمثال الوجه الأول الاستحقاق، فانه يحسن لكونه مستحقاً من غير زيادة عليه، وكذلك يحسن الألم لدفع ما هو أعظم منه ويتكامل بذلك حسنه، وكذلك اذا وقع غير مقصود على وجه [. . .] [١] فانه يحسن هذا الوجه ويتكامل به حسنه .

ومثال القسم الثاني الاعتبار ، فان الاعتبار لايتكامل حسنه وانما [...] [١] من أن يكون عبثاً ، والنفع الزائد يخرج من أن يكون ظلماً .

ومثال هذا الوجه من الألم أيضاً النفع، فانه ينقسم، فان فعلناه يضرنا، نظرنا فان كان ممكناً أن نوصل ذلك الغير الى النفع من غير ألم قبح الألم لكونه عبثاً وان كان فيه نفع . مثاله : ان استأجر الأجير بالأجرة الوافرة التى يرضى بها لاستيفاء الماء من نهر الى آخر ، فانه يكون عبثاً وان لم يكن ظلماً ، ولابد فيه من عوض زائد على ايصال النفع .

---

١) بياض في الاصل .

وأما القسم الثالث ـ وهو ما تفعله نفوسنا من الألم ـ فيتكامل حسنه بالنفع الزائد من غير زيادة عليه ، ومن شرطه أن يكون ذلك النفع لايحصل الا بتقديم هذا الألم . ومثاله : اتعاب اما معلوماً واما مظنوناً .

وكل وجه من هذه الوجوه التي ذكرنا أن [...] [1] شيء عوض فيه المفسدة قبح لأجلها، لأن المفسدة متى عرضه غيرت وجوب الواجبات كلها وصارت [...][1] فأولى أن يكون الألم كذلك في الوجوه التي يحسن عليه الألم .

واذا قيل : واذاكانت المفسدة تغير وجوب الواجبات فما الذي يؤمنكم أن يكون رد الوديعة أو قضاء الدين مفسدة في بعض الأوقات .

فالجواب عن ذلك : انه لو كان شيء مفسدة في بعض الأوقات لوجب على الله تعالى أن يبينه لنا ويميزه، فلما لم يفعل ذلك علمنا أن جميع الأوقات متساوية في وجوب ذلك كله . وهذا بين .

(٢١)

[معنى قول النبي « من أجبا فقد أربى »]

مسألة :

الأجباء في اللغة العربية هو بيع الزرع [2] قبل أن يبدو صلاحه ، يقال : أجبا الرجل يجبي اجباءاً فعل ذلك .

فمعنى ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله « من أجبا فقد أربى »: أن من باع الزرع قبل أن يبدوصلاحه ـ وقد نهى عن ذلك وحظرعليه ـ

---

١) بياض في الاصل .

٢) في الاصل « هو بياع الزوج » .

يجري مجرى من أربى ، لأنه فاعل المعصية محظور عليه ، وان لم يكن بيع مالم يبدو صلاحه ربى في الحقيقة ولا معناه معناه غير أنه جار مجراه في الحظر والمعصية ، وجار مجرى قول القائل « من زنى فقد سرق » ، أي هو عاص مخالف لله تعالى ، كما أن ذاك هذه حاله [١] .

(٢٢)

[اللفظة الدالة على الاستغراق]

مسألة :

ان سأل سائل فقال : اذا لم يكن عندكم في لغة العرب لفظة هو حقيقة في الاستغراق ، فمن أي وجه علم تناول الوعيد بالخلود كافة على جهة التأبيد .

فان قلتم : انما علم ذلك من قصد النبي صلى الله عليه وآله ضرورة .

قيل لكم : والنبي من أي وجه علم ذلك .

فان قلتم : اضطره الملك الى ذلك .

قيل لكم : والملك من أين علم ذلك ، ومع كونه مكلفاً لا يصح أن يضطره الله سبحانه الى قصده .

الجواب :

انا انما قلنا في المحاورة وأنه لا لفظ موضوع فيها لذلك ، اذا كان هذا غير ممتنع أن يكون في لغة الملائكة لفظ موضوع للاستغراق يفهمون به مراد الحكيم سبحانه في الخطاب ، واذا صح ذلك وخاطبهم الله بذلك صح أن يضطر الملك النبي « ص » الى مراد الله تعالى منه في الاستغراق .

---

١) في الاصل « هذنه حاله » .

ويمكن أيضاً أن يغنى الله تعالى بعض ملائكته بالحسن عن القبيح ويضطره الى علم مراده باستغراق كافة الكفار في تأبيد العقاب وتناوله سائر الأوقات، ويضطر ذلك الملك غيره من الملائكة، ويضطر من اضطره النبي صلى الله عليه وآله الى ذلك.

فهرس المجموعة

جوابات المسائل المصريات

(١٤ – ٣٥)

الحوادث لا يمكن حدوثها الابمحدث	١٧
في الرعد والبرق والغيم	١٨
الدليل على حياة الفاعل	١٩
تعقل من لامثل له ولا ضد	١٩
تعقل فاعل من دون لمس	٢٠
القدرة على خلق الأجسام	٢١
القدرة على الاختراع من غير مباشرة	٢١
وقوع الخير والشر من فاعل واحد	٢٢
تعقل الشيء من دون أن يكون جسماً	٢٢
حدوث شيء ولا من شيء	٢٣
الاضافة الى الطبع مضاف الى العرض	٢٣
استغناء الطبائع أو عدمه	٢٤
تمثل جبرئيل في صورة دحية الكلبي	٢٥

معنى الصفة في القديم تعالى ٢٦
كلام الله تعالى كيف يكون ٢٧
حول الكعبة والميثاق والعقل والروح ٢٨
أول ما خلق الله تعالى ٣٢
حقيقة الفراغ وهل له نهاية ٣٢
تكليف أهل جابرق وجابرسا ٣٣
تكليف الأطفال يوم القيامة ٣٤
عقاب من قاتل اماماً ٣٤
الملائكة والجن بعد انتهاء التكليف ٣٥

جوابات المسائل الواسطيات

(٣٧ – ٤٤)

انكاح النواصب والغلاة ٣٩
ميراث أهل الذمة ٤٠
الصلاة في ثوب ابريسم ممزوج ٤٠
عدة وفاة الذمي ٤١
المرأة المتسامحة في نفسها عن مراعاة الطلاق ٤١
لاحد للمستمتعات في العدد ٤٢
طلاق المضطر ثلاثاً كم يعد ٤٣
جواز المتمتع للمستمتع بها قبل انقضاء العدة ٤٣

المسائل الرملية

(٤٥ – ٥٠)

حكم الطلاق بعد ارتفاع الدم وايلاء المرأة ٤٧
حكم الخلاف في رؤية الهلال ٤٨

شرح القصيدة المذهبة

(٥١ – ١٣٩)

مقدمة الشريف المرتضى ٥٣

بدء القصيدة المذهبة ٥٣

بعض وقائع طلحة والزبير ٦٥

انصراف الزبير عن الحرب وتوبته ٧١

قصة رد الشمس على علي عليه السلام ٧٨

قصة الراهب مع أمير المؤمنين في طريق صفين ٨٥

أمير المؤمنين وصي رسول الله « ص » ٩٣

بعض فضائل علي عليه السلام ٩٥

قصة غزوة خيبر ١٠٣

فضل نسب أمير المؤمنين على نسب غيره ١٠٨

مقتل عمرو بن عبدود في غزوة الأحزاب ١١٧

نصب علي عليه السلام في غدير خم ١٣٠

شيء من ترجمة السيد الحميري ١٣٨

الشهاب في الشيب والشباب

(١٤١ – ٢٧٥)

مقدمة الشريف المرتضى ١٤٣

ابيات أبي تمام في الشيب والشباب ١٤٦

ابيات البحتري في الشيب والشباب ١٥٩

ابيات الشريف الرضي في الشيب والشباب ١٧٨

ابيات الشريف المرتضى في الشيب والشباب ٢١٢

الزيادة في كتاب الشيب والشباب ٢٦١

مسألة فى معجزات الانبياء عليهم السلام

(٢٧٧ – ٢٩٩)

بعض عقائد اسلاف المجبرة والمشبهة ٢٧٩

وجه عدم اظهار المعجزات على أيدي غير الانبياء ٢٨١

لايجوز كذب الرسول في اخباره ٢٨٢

استحالة القبيح على القديم تعالى ٢٨٣

عدم جواز اضلال الله تعالى عن الدين ٢٨٤

تقسم خاطىء فى المعلومات ٢٨٥

نفي الأضلال ليس من التعجيز في الفعل ٢٨٧

معنى الضلال والهدى والحسن والقبح ٢٨٩

وصف القديم تعالى بمالا يوصف ٢٩٠

نقل كلام للشيخ المفيد ٢٩١

معجزية القرآن الكريم ٢٩٣

مناقشة الكلابية في كلام الله تعالى ٢٩٤

مسألة فى نكاح المتعة

(٣٠٠ – ٣٠٦)

دحض أدلة القائلين بفساد المتعة ٣٠٢

جواز انفصال بعض الأحكام عن بعض ٣٠٤

العلل غير مطردة لكى يقاس عليها ٣٠٥

نقد النيسابورى فى تقسيمه للاعراض

(٣٠٧ – ٣١٥)

أقسام الأعراض ٣١٠

اخلال النيسابوري في تقسيم الأعراض ٣١٣

مسائل شتى

(٣١٧ – ٣٥٥)

صيغة البيع ٣١٩

ألفاظ الطلاق ٣٢١

استمرار الصوم مع قصد المنافي له ٣٢٢

اضافة الأولاد الى الجد اضافة حقيقية ٣٢٧

تحديد نسبة الأولاد الى الاباء ٣٢٨

الفرق بين نجس العين ونجس الحكم ٣٢٨

تنجس البئر ثم غور مائها ٣٢٩

استحقاق مدح الباري على الأوصاف ٣٣١

المنع من العمل بأخبار الاحاد ٣٣٥

الجسم لم يكن كائناً بالفاعل ٣٣٧

النظر قبل الدلالة ٣٣٨

التاء في كلمة « الذات » ليست للتأنيث ٣٣٩

منع كون الصفة بالفاعل ٣٤٠

الدليل على أن الجوهر ليس بمحدث ٣٤٢

ابطال قول « ان الشيء شيء لنفسه » ٣٤٣

النسبة بين الأفعال وما هو لطف منها ٣٤٣

دور العقل والسمع في النوافل ٣٤٥

الدليل على أن الجواهر مدركة ٣٤٦

دفع شبهه للبراهمة في بعث الأنبياء ٣٤٦

معنى النفع في الضرر ٣٤٩

معنى قول النبى « من أجبا فقد أربى » ٣٥٣

اللفظة الدالة على الاستغراق ٣٥٤

۱۳۵۰